صاحب الأغاني

أبو الفرج الأصفهاني الراوية

الطبعة الثانية

١٩٦٢

تأليف

الدكتور محمد أحمد خلف الله

Adab.

Hit Adab

الدكتور
محمد احمد خلف الله

صاحب الأغاني
أبو الفرج الأصفهاني الراوية

الطبعة الثانية

١٩٦٢



مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد ـ القاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

بقلم الأستاذ أمين الخولى

هذه كلمة ليست من التقريظ القديم ، ولا من التزكية الحديثة ، التى يلتمسها صاحب مطبوع ليتأثر بها قارئه ؛ أو بعبارة أصرح ، ليتأثر بها مشتريه ! !

ولن تكون كذلك ، لأن القلم العريان ، الذى كتبها لا يحسن أن يستر نفسه ، فى هذا السبيل .. ولأن من كتبت عنه قد مرنته الأحداث ، على ألا يكون رأيه فى نفسه ، من رأى الناس فيه .

فستكون هذه الكلمة شيئاً من التحليل ، إلى جانبه شىء من التأريخ .. وهذا كل ما يمكن أن تكونه ..

* * *

وأصحاب الأخلاق ، حين يتعرضون لشىء من الحكم الخلقى ، يعنيهم التفريق بين الحكم على العمل ، والحكم على العامل .. ولا يختلط عليهم الأمر فى شىء من ذلك .

وأصحاب التقدير الفنى ، الواعى ، اليوم ، يعمدون إلى فهم الأثر الفنى ، عن طريق فهمهم لصاحبه ، نفسياً واجتماعياً ؛ كما يعدون الأثر الفنى نفسه وسيلة لاستكمال الفهم لشخصية صاحبه .. ولا يرون قيمة للنقد الفنى - بعامة -

أو النقد الأدبى ـ بخاصة ـ إذا لم يقم على هذا الأساس ، من التفاعل بين الأثر وصاحب الأثر ..

وإذا كان الأمر كذلك فإن من الخير حين نعمد إلى شىء من التقدير لهذا الدرس ، عن « أبى الفرج الأصفهانى » ، أن نحدث عن العمل والعامل ، وننظر إلى المؤلف والتأليف .

وهذا المؤلف ، أو الدارس — بعبارة أصح عند أصحاب الغد — من الشبان ، الذين جمعتنى بهم أواصر المعرفة المتعاونة ، سنوات طوالا ، فى اجتماعات خاصة ، وفى مجالس الدرس العامة ، وفى الرحلة المتعلمة ، وفى الزيارة المتوادة ، وفى مناسبات متنوعة .

وكانت سنوات هـذه الصلة بالدكتور « محمد خلف الله » أطول من مثلها فى حياة سائر أصدقائى ، من أصحاب الغد ، لظروف عملية ، من الشدائد المعلمة ، اختبرت فيها الأيام تلك الصلة ، بل فتنتها ، كما تفتن النار الذهب ، على حد التعبير المعروف . . فتكشف لكل منا من أمر صاحبه ما يجعله أدق معرفة ، وأصل حكما ، وأصح قولا .

والقارىء المتصل بجو الحياة الفكرية ، خلال البضع السنوات الأخيرة ، يعرف من تلك الظروف ما لا يحتاج معه إلى شرح ؛ ويعرف حادث رسالة « الفن القصصى فى القرآن الكريم » وما اتصل بها من أحداث عقلية ، وخلقية ، واجتماعية ، صارت اليوم من حق التاريخ العقلى ، لمصر الحديثة ، الذى يترفع عن أن يقود أحد خطاه ، أو يوجهه وجهة ما ، فى تدوين هذه الصفحة من تاريخ الحياة الفكرية ، والحرية العقلية ، فى مصر والشرق الأوسط . وإن كان من واجبنا — بلا مراء — أن نسلمه الوثائق الرسمية ،

عن هذه الأحداث ، ليصدر فى نزاهة سامية ، حكمه الأخلد من حكم أى سلطة ، تحمى حقاً فى الأرض ، أو تقيم عدلا . .

ولا ينتظر القارىء أن يسمع منى هنا كلمة ما عن شخص أو شىء يتصل بهذا الحدث الأكبر . . وإنما أشرت إليه فى كلامى عن الدارس « الدكتور محمد خلف الله » ، لأشير إلى نتائج امتحان الجامعية فى هذا الدارس . ثم امتحان الجامعية بهذا الدارس . .

فقد كشف امتحان الجامعية فيه عن شاب يؤمن بالعلم ، فى هذا العصر ، ويطلب تفسير ذلك العلم لظواهر الحياة ، فنية أو غيرها ، ويوجه درسه الأدبى إلى هذه التفسيرات الجادة . .

والإيمان بالعلم هو كل الفرق ، بين شباب الغرب ، وشباب الشرق . . وهو جملة ما يتميز به الغرب ، حين يجد ويتقدم . . ولا يسلم للشرق فيعبث ، ويتردد ، ويتوقف .. أو يجمد ..

وإيمان « خلف الله » بالعلم ، هو الذى يجعله يؤمن بأن التطور والتدرج هو الناموس ، الذى يسود الحياة ويضبطها ، فيؤمن بما عليه من واجب ، فى أن يدفع الدرس الأدبى شبرا ، أو فترا ، أو إصبعا ، إلى الأمام .

ولكل أولئك اقتحم هذا الدارس ما اقتحم ، فى دراسته العليا ، من النواحى الفنية ، يلتمس لها التفسير العلمى ، الذى تعين عليه ثقافة العصر ، والذى لا تأنف منه المعرفة الإنسانية الناهضة اليوم . . ويبغى بذلك كله ، أن يقول شيئاً يصحح خطأ ، أو يفسر مبهما ، أو يزيل حيرة . . وليس كل ذلك وما إليه إلا ما قصدته الجامعية ، حين شرطت ، فى الدراسات العليا لأبنائها : أن تفيد العلم فائدة محققة ! !

وما قيمة الإيمان بالعلم ، والإيمان بنواميسه ، فى تسيير الحياة إلا فى أن يدفع هذا الإيمان صاحبه إلى أداء واجبه الاجتماعى ، بإزاء ما يتكشف له من حقائق العلم ، وصحاح النواميس .. وما الواجب الاجتماعى عليه ، والحق للحياة عنده ، إلا أن يعالن الناس بما عرف ، ويكشف لهم عنه . بدعوة مؤمنة .. لا يئودها شىء فى هذا السبيل ، ولا تصدها عنه صعوبة ، حتى تأخذ الحياة به ، وتضمه إلى تراثها ، وتتمثله فى سيرها .. ثم تتقدم إلى شىء جديد بعده .

وفى سبيل هذا الواجب ناضل « خلف الله » ، وأوذى .. فاحتمل وصبر . وإن يدم ذلك سنوات ليست بالقصيرة فى حياة الفرد ، ولكنها ليست بالطويلة أيضاً فى حياة الأمة .. فإذا كانت قد كفرت به رجعية عامية ، أو جامعية زائفة فإنه ما لبثت أن آمنت به خاصة مستنيرة ، قدرت عمله ، وقضت له ، ولدى الزمن من التقدير ما هو أدق منهجا ، وأطول عمرا .. وكذلك كان امتحان الجامعية فيه خيراً ، كفر عن شرور ، كشفها امتحان الجامعية به .. وتلك هى التى نعف ونعفى أنفسنا من ذكرها أو وصفها ، ونترك للتاريخ الحر أن يقول فيها ، ما لا تحرج معه ، ولا حياء فيه ..

وحسبنا الآن أن نجمل ذلك ، فى الآية الكريمة الجامعة لناموس حياة الآراء وصراعها ، ونصرها ، من قول القرآن الحكيم : « لقد ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الأمور ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » ..

* * *

تلك ملامح عامة من شخصية صاحب هذا الدرس ، وخطوط كبرى من صورته ، لم يلمحها خيال ذوى هوى ، ولم يصورها بيان مفتون ، بل كشف عنها امتحان الجامعية فيه ، كما سمعت .

وتلك الملامح هى التى أرجو أن يتبينها القارىء ، فيما بين يديه من درس « للدكتور خلف الله » : فيجد فيه آثاراً واضحة للإيمان بالعلم ، والاطمئنان إلى ناموس التطور المتدرج . . والشعور بالواجب الاجتماعى أمام الحقيقة المستبينة ، والجهر بها عن طمأنينة ، ودون تهيب . . وهو ما أرجو وآمل ، أن يكون قد توافر منه « لخلف الله » فى درسه « لأبى الفرج » ما توافر له منه فى رسالته الأولى عن : « الفن القصصى فى القرآن الكريم » ، فيكون قد وفق للكشف عن جانب من شخصية رجل قدم للآداب العربية أضخم مجموعة خبرية ، ثم لعله شغل تاريخ تلك الآداب ، بأكثر ما شغله به إنسان . فكان من الحق أن يعرف الناس صاحب هذا العمل ، ومقدم تلك المادة ، فتكون معرفة للعامل ، لابد منها ، ولا استغناء عنها ، فى معرفة العمل وتقديره . . على ما أسلفنا صدر هذه الكلمة .

ولا أحتكم فى حرية القارىء لكتاب « الدكتور خلف الله » ، فألقاه بحكم لى عنه ، أو حكم للجنة المناقشة فيه . . لا أحتكم فى حرية القارىء بهذا ، كما أوقن أن « الدكتور خلف الله » لا يميل إلى هذا الاحتكام ، لأنه عرف قيمة الحرية وناضل فى سبيلها ، وآمن بحقه فيها ، ولا يصدق ذلك كله إلا حين يؤمن بحق الآخرين فى تلك الحرية ..

فهل يرى القارىء أن « الدكتور خلف الله » ، قدم من الدرس لشخصية أبى الفرج ونفسيته ، ما لابد منه لتقدير كتاب الأغانى والاستفادة منه ؟.. أو يرى القارىء حاجة الصورة إلى شىء من الأضواء ؟

هذا ما سيقوله القارىء ، بعد أن يفرغ من قراءة الكتاب فليمض فى قراءته حراً ملتمسا آثار شخصية العامل فى عمله .

وسلام عليه حين يبدأ ، وحين ينتهى .

وسلام عليه حين يعجب أو ينقد ؟

فى مصر الجديدة ٢ يونيو سنة ١٩٥٣

أمين الخولى

تمهيد

لا نستطيع أن نمضى فى دراسة أبى الفرج الراوية قبل أن نعرف أولا وقبل كل شيء ما الراوية ؟

وحدود هذا اللفظ كما ترسمها المعاجم كثيره : لعل أقربها إلى ما نحن بصدده من حديث عن الراوية فى الأدب وفى التاريخ ، هى التالية .

الراوية هو البعير أو البغل أو الحمار الذى يستقى عليه الماء . والرجل المستقى أيضاً راوية . .

ورجل رواء إذا كان الاستسقاء بالراوية له صناعة . يقال جاء رواء القوم . .

وفى حديث بدر فإذا هو بروايا قريش أى إبلهم التى كانوا يستقون عليها . .

يقال لسادة القوم الروايا . قال أبو منصور وهى جمع راوية ، شبه السيد الذى تحمل الديات عن الحى بالبعير الراوية . .

قال الجوهرى رويت الحديث والشعر رواية فأنا راو فى الماء والشعر من قوم رواة . ورويته الشعر تروية أى حملته على روايته وأرويته أيضاً . وتقول أنشد القصيدة يا هـذا ولا تقل أروها إلا أن تأمره بروايتها أى باستظهارها[1] .

---

(١) راجع مادة روى فى كل من أساس البلاغة والنهاية واللسان .

وواضح من كل هذه الحدود أو من كل هذه المعانى أن النقل من المعانى الأولى لهذه المادة ، وأنه كثيراً ما يكون المحور الذى تدور حوله استعمالات هذه المادة .

وإذا كان النقل الذى يهمنا فى هذا الموطن هو نقل الأنباء والآراء أو النقل العلمى بمعناه الواسع الشامل كان من المستحسن أن نقصر الحديث عليه .

والنقل الدقيق يبدأ بالتحمل أى بجمع الراوى للأنباء والآراء أو للمرويات من طرقها المختلفة وأساليبها المتنوعة . ولهم فى التحمل حديث طويل لسنا بحاجة إليه فى هذا الموطن ما دمنا سنعرض له فى الباب الثالث إن شاء الله .

والراوى بعد التحمل يقابل ويصحح المرويات . يقابل ما سمعه فوعاه أو ما سمعه فدونه على ما عند غيره من الأقران ممن أخذ معه عن الشيخ ، أو يصحح ما سمعه على الشيخ نفسه أو على نسخته ، وهذا هو ما نستطيع تسميته بتصحيح النقل أو تصحيح السماع .

وعلى الراوى أن يحتفظ بالمرويات كما أخذها عن الشيخ من غير تغيير أو تبديل فيها ، وذلك بحفظها عن ظهر قلب ووعيها فى الذاكرة ، وقد يضم إلى ذلك تدوينها فى كتاب ، وذلك من حين التحمل إلى حين الأداء . ومن هنا نراهم يشترطون فى الراوية القدرة على الضبط وإلا تطرق الخلل إلى المرويات . وهذه أيضا من المسائل التى لن نحتاج إليها فى هذا الموطن والتى سنتحدث عنها فى الباب الثالث إن شاء الله .

أما الأداء فهو الذى يهمنا فى هذا الموطن وهو الذى يجعلنا نفهم بوضوح وجلاء مدلول هذا العنوان (أبو الفرج الراوية) .

الأداء هو نقل المرويات مع تبليغها إلى الغير بأية طريقة من طرق النقل والتبليغ ، وذلك قد يكون بالكتابة إليه أو بالإملاء عليه أو بالمحادثة الشفهية أو ما شاكل ذلك من طرق للنقل وللتبليغ .

لكن على أى أساس تكون التأدية ويكون التبليغ ؟ أعلى أساس الصحة فى النقل ؟ أم على أساس صحة المنقول وصدق قضاياه ؟ .

هنا لابد لنا من وقفة مع مختلف الرواة لنفهم أسلوبهم ونقف على طريقتهم ونضع أيدينا على ما هو الأساس .

ونبدأ من هؤلاء برواة الحديث ، فهم وإن يكونوا أحدث عهدا من رواة الشعر والأخبار إلا أنهم هم الذين قاموا أولا ببحث هذه المسألة ودرسها درسا علميا ثم انتهوا من ذلك إلى نظريات تعرف عنهم وتنسب إليهم .

يقول ابن الصلاح فى مقدمته « ومتى قالوا هذا حديث صحيح فمعناه أنه اتصل سنده مع سائر الأوصاف المذكورة وليس من شرطه أن يكون مقطوعا به فى نفس الأمر إذ منه ما ينفرد بروايته عدد واحد وليس من الأخبار التى أجمعت الأمة على تلقيها بالقبول .

كذلك إذا قالوا فى حديث إنه غير صحيح فليس ذلك قطعاً بأنه كذب فى نفس الأمر إذ قد يكون صدقا فى نفس الأمر وإنما المراد به أنه لم يصح إسناده على الشرط المذكور والله أعلم[1] .

فهذا النص ـ وبخاصة الفقرة الأخيرة منه ـ يشير إلى أن الأساس الأول الذى تدور عليه الرواية عند رواة الحديث إنما هو الصحة فى النقل والتأكد من أن هذا الحديث قد ورد حقا عن رسول الله .

---

(١) ١٠ مقدمة ابن الصلاح

ولعل مما يؤكد هذا القول أنهم عند حديثهم عن التصحيحات التى قد يقوم بها الراوى قالوا أولا بإيراده المرويات كما سمعها وعلى ما فيها من أخطاء ثم يتبعها بما شاء من التعقيبات والتصحيحات[١] . إذا كان ممن يحق لهم ذلك لتقدمهم فى العلم ومعرفتهم بالأحاديث . وليس يخفى أن مدار الفكرة هو أن الراوية إنما يهتم أولا وقبل كل شىء بالصحة فى النقل .

والنقل على هذا الأساس فى الأحاديث وفى الآثار المروية عن رسول الله هو الأمر الواجب الاتباع ذلك لأن المقصود الأول والأخير لرواة الحديث إنما هو التأكد من أن الرسـول عليه السلام قد قال ذلك حقاً ، أو فعله ، أو أمر به ، ليكون حديثاً تجرى حوله البحوث الفقهية ـ ما دامت السنة هى المصدر الثانى من مصادر التشريع .

وعلى هذا الأساس أيضا أساس الصحه فى النقل يمضى رواة الشعر واللغة ، وليس يخفى أن أساسهم مستمد من طبيعة صناعتهم التى هى التأكد من أن هذا الشعر قد قاله فلان وأن تلك اللفظة نطقت بها العرب ، ولعله من هنا وقف بعض النحاة موقفهم المعروف من أحاديث الرسـول عليه السلام حيث نراهم لا يعتمدون عليها فى وضع القواعد النحوية لأنها كثيراً ما تروى بالمعنى[٢] وأعتقد أنا لسنا بحاجة إلى أن نمضى إلى أبعد من هذا الحديث عن رواة الحديث واللغة .

أما الأخباريون وهم الذين نعنى بهم فى هذا الموطن فقد اختلفوا فيما بينهم وتوزعتهم الأسس السابقة من صحة فى النقل أو صحة فى المنقول . وهذا التوزع هو الذى سيضع أيدينا على الفروق المميزة لنوعين من الأخباريين هم المؤرخون والرواة .

---

(١) ١٩٢ المصدر السابق (٢) ١/٥ خزانة الأدب

جاء فى طبقات الشعراء لابن سلام « وكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل كل غثاء محمد بن اسحاق مولى آل مخرمة بن المطاب بن عبد مناف . وكان من علماء الناس بالسير فنقل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول : لاعلم لى بالشعر إنما أوتى به فأحمله ، ولم يكن ذلك له عذرا ، فكتب فى السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء ، فضلا عن أشعار الرجال ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ ألوف من السنين ؟ والله يقول وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى . . . » [1]

وواضح أن ابن اسحاق إنما يذهب مذهب الرواة أو مذهب من يرى أن واجبه الحمل والتبليغ وأن ابن سلام إنما يذهب مذهب المؤرخين الذين يطلبون الحقيقة ويرون أن واجب الإنسان ألا يحمل إلا ما هو الحق أو ما يتوقع أنه الحق . فالأول إنما يحرص على النقل والثانى إنما يحرص على صحة المنقول ـ وإن قاس هذه الصحة باعتبارات خاصة بالسند .

وجاء فى الطبرى « وليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن اعتمادى فى كل ما أحضرت ذكره فيه . مما شرطت أنى راسمه فيه : إنما هو على ما رويت من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه ، والآثار التى أنا مسندها إلى رواتها فيه . دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس ، إلا اليسير القليل منه ، إذا كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين ، دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس . فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه

(١) ٤ طبقات الشعراء ٠ ط ليدن سنة ١٩١٣

سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها فى الصحة ولا معنى فى الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا [١] .

وواضح أن الطبرى قد التزم أن يؤدى المرويات على نحو ما أديت إليه حتى ولو كان فيها ما يستنكره القارىء أو يستشنعه السامع . وليس يخفى أنه يريد أن يقول إنى أنما أحرص على الصحة فى النقل .

نعم إن الطبرى يذكر فى هذا النص أيضاً أنه قد يعمد فى القليل اليسير إلى ما يدرك بحجج العقول ويستنبط بفكر النفوس وذلك قد يدل على القصد إلى الصحة فى المنقول ؛ ولسنا نعارض فللطبرى موقفان : موقف هو الكثير الغالب يحرص فيه على الصحة فى النقل . وموقف هو اليسير القليل يحرص فيه على صحة المنقول ـ الأمر الذى قد يوجد عند غيره والذى سنجعل منه نقطة البدء فى الفصل بين الراوية والمؤرخ بعد لحظة إن شاء الله .

وجاء فى معجم البلدان (حتى لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول وتنفر عنها طباع من له محصول . لبعدها عن العادات المألوفة وتنافرها عن المشاهدات المعروفة ، وإن كان لا يستعظم شىء مع قدرة الخالق وحيل المخلوق ، وأنا مرتاب بها نافر عنها متبرىء إلى قارئها من صحتها لأنى كتبتها حرصاً على إحراز الفوائد وطلباً لتحصيل القلائد منها والفرائد ، فإن كانت حقاً فقد أخذنا منها بنصيب المصيب وإن كانت باطلا فلها فى الحق شرك ونصيب . لأنى نقلتها كما وجدتها فأنا صادق فى إيرادها ، ولتعرف ما قيل فى ذلك حقاً كان أو باطلا ، فإن قائلا لو قال سمعت زيدا يكذب لأحببت أن تعرف كيفية كذبه . وها أئمة الحفاظ الذين هم القدوة فى كل زمن

---

(١) مقدمة الطبرى لكتابة تاريخ الأمم والملوك

وعليهم الاعتماد فى فرائض الشرع والسنن لم يشترط أكثرهم فى مسنده، وهى أحاديث الرسول التى تبتنى عليها الأحكام ويفرق بها بين الحلال والحرام، إيراد الصحيح دون السقيم ونفى المعوج وإثبات المستقيم . ولم يخرجهم ذلك عن يعدوا فى أهل الصدق أو يتزحزحوا عن مراتب الأئمة، والحق إنهم أوردوا ما سمعوه كما وعوه . وإنما يسمى كذابا إذا وضع حديثاً أو حدث عمن لم يسمع منه أو روى عمن لم يرو عنه ، فإما أن يروى ما سمع كما سمع فهو من الصادقين والعهدة على من رواه عنه إلا أن يكون من أهل الاجتهاد فله أن يرويه ثم يزيفه ولولا ذلك لبطل كثير من الأحاديث . وعلينا الاقتداء بهم والتمسك بحبلهم[١]) .

وواضح أن صاحب المعجم يجعل مدار الثقة فى نقل الأخبار أو مدار الصدق والصحة فيها الصدق فى النقل والصحة فى الإسناد . وهو يجرى فى ذلك على قاعدة رواة الحديث ويطلب إلى غيره أن يتمسك بحبلهم .

وهنا شىء يجب أن نلتفت إليه هو أن صاحب المعجم يفرق بين الراوى وبين المجتهد ويجعل من حق الثانى أن يروى الحديث ثم يزيفه ذلك لأن هذه التفرقة بين الراوى والمجتهد فى رواية الأحاديث هى التى نريد أن نعتمد عليها فى التفرقة بين المؤرخين ورواة الأخبار حين نقول إن عمل المؤرخ هو رواية ثم استبعاد أو رواية تريد الوصول إلى ما هو فى نفسه صحيح أو الوصول إلى الحقيقة التاريخية . أما الرواة فإنما عليهم أن يعتمدوا فى عملهم صدق النقل وصحة الإسناد . والراوى على ذلك هو ناقل الخبر دون نقد لمتنه ، صدقاً كان ذلك المنقول أو كذبا ، فليس عليه من بأس فى ذلك . وإنما البأس كل البأس فى الوضع أو فى الرواية عمن لم يرو عنه أو فى

(١) راجع مقدمة معجم البلدان لياقوت

التحديث عمن لم يسمع منه أو يأخذ عنه بمكاتبات أو أجازات .

ولسنا فى هذا الموقف بصدد بيان أدوات التزييف وعوامل الوصول إلى الحقيقة ، فقد تختلف الأدوات والسبل ، ولعل من أحسن ما يشار إليه فى هذا المقام ما كتبه ابن خلدون فى المقدمة وبخاصة فى الفصل الأول منها ، وما كتبه كل من الأستاذين أسد رستم وحسن عثمان الأول فى كتابه مصطلح التاريخ والثانى فى كتابه فى منهج البحث التاريخى . فليرجع إلى هذه الكتب من يريد الوقوف على سبل الوصول إلى الحقيقة التاريخية . وهناك أيضاً قد يجد فصولا قيمة عن صنيع الرواة .

هذا الراوى الذى وقفنا على شىء من صفاته له خطره وقيمته من الناحية العلمية ، وله صفاته المميزة التى تفرق بينه وبين المؤرخ . بل له أحيانا شخصيته الجبارة التى قد تضيع شخصية المؤرخ إلى جانبها وتصبح لا عمل لها إلا بعمل الراوى ، ولا وصول لها إلى الحقائق إن لم تؤمن بذلك الراوى وما قدم لها من مرويات ، وما حفظ لها من وثائق .

ويأتى هذا الخطر للراوى من صفتين تلازمانه فى كل بيئة وفى كل أمة : وأولى هاتين الصفتين القدم ـ فالراوى أسبق ظهورا فى حياة المعارف من صاحبه ، لا فى تاريخ التاريخ فحسب بل فى تاريخ كل فرع من فروع العلم وكل لون من ألوان الفنون والآداب . ومن هنا كان أبعد غوراً وأرسخ قدما فى تاريخ الفكر البشرى . وأظننا لسنا بحاجة إلى أن نقدم شيئاً من الأدلة أو البراهين حيث نقول إن تاريخنا العلمى يثبت أنه قد وجد راوى الحديث قبل أن يوجد المشرع المجتهد أو الفقيه . ووجد راوى الشعر واللغة قبل أن يوجد العالم بالشعر وباللغة . ووجد راوى الأخبار والأحداث

قبل أن يوجد المؤرخ لأن كل ذلك من البديهيات التى لا تحتاج إلى دليل أو برهان .

أما الصفة الثانية فهى صفة تعتمد على الأولى وتستمد قوتها منها وتلك هى صفة السيادة . فالراوى لا سيما فى حياتنا الفكرية الإسلامية العربية متسلط جبار . فهو قد سيطر على حياتنا العلمية ورسم لنا الخطوط التى يجب أن نسير عليها فى مختلف الميادين . ومن هنا كان له من الأنصار والأعوان من يقدسه ويرى الخير كل الخير والبركة كل البركة فى أن يتمسك بحبله وينسج على منواله . وقد خلقت هذه السيطرة قدسية فى عقول المقلدين تجعل النقد الذى يقوم به المؤرخ والمجتهد من الأمور الصعبة التى لا يقبلها أمثال هؤلاء . ولن يدب النشاط الفكرى فى حياتنا العلمية إلا بعد أن نتخلص من سلطان هؤلاء الجبابرة الرواه . ولن نتخلص من سلطانهم إلا حين نقف على الصغير والكبير من أمورهم ، ونعرف كيف جمعوا آراءهم ، وكيف كونوا معرفتهم وعلمهم ، وعلى أى أساس من الأسس الفكرية كانوا يصدرون حين خلفوا ما خلفوا من تراث ، وحين رسموا ما رسموا من خطط ومناهج.

إن التجديد لن يكون حتى نناقش هذه الأسس وحتى نقوم هذه المعارف لنعرف إن كان حقاً ما خلف الأقدمون أو باطلا ، وصادقة هذه المعرفة أو كاذبة ، أما أن نتلقى ما يقولون ونردد ما يروون بدون أن نكمل نقد المؤرخ وتزييف المجتهد فإن ذلك سيؤدى حتما إلى الجدب والفناء .

هاتان الصفتان هما اللتان تمكنان للراوى وتثبتان قدمه ، وهما اللتان نستطيع أن نحيلهما إلى عوامل شيخوخة وضعف لو كان فينا جانب من قوة وفضل من نشاط .

أما الفروق فتأتى من طبيعة عمل كل منها – ونستطيع أن نجمل أهمها فيما يلى :

(ا) أنه لما كان عمل الراوى – النقل والنقل ليس غيره – كان معبراً عن رأى غيره فى الحقيقة ومصوراً لوجهة نظر الآخرين . وذلك بخلاف المؤرخ الذى يحاول أن يصور لنا الحقيقة كما رآها ومن وجهة نظره هو . ومن هنا نجد وحدة فى عمل المؤرخ ونجد تعدداً فى عمل الراوى ، ذلك لأنه قد يروى آراء مختلفة ومتعارضة فى أكثر الأحايين .

على أن هذا الصنيع من الراوى له خطره فى الميدان العلمى ذلك لأن هذا الاختلاف وهذا التعارض لهما أثرهما القوى الواضح فى محاولة الوصول إلى الحقيقة ، وفى العمل على تجدد العلم ونشاطه وعلى دوامه واستمراره ، فلولاهما لكان الجمود فى الحركة العلمية ولكان الوصول إلى الحقيقة فى غاية الحرج والمشقة . ويكفى منا نظرة بسيطة إلى أخبار الآحاد التى قد تصور وهما كاذبا أو أسطورة خارقه . وكم عانى العلماء من أخبار الآحاد ؟

(ب) أنه لما كان حظ المؤرخ من العلم الوصول إلى الحقيقة كان من حقه أن يستغنى عن إيراد كثير من الأخبار التى لا يرتضيها العقل ولا يؤمن بها العلم وهو فى ذلك على العكس من الراوى الذى من ألزم لوازمه أن يروى ما يقع تحت يده من الأخبار حتى ولو آمن بأنها من المصنوعات والأكاذيب أو من الأوهام والأساطير .

والراوى هنا يقدم للعلم خدمة جليلة ذلك لأنه هو الذى سيمكننا من دراسة خطوات التقدم والترقى فى حياة الفكر البشرى ويرينا كيف كان يفسر الأقدمون الظواهر ويعللون المسائل ويمضون فى الشرح وفى التأويل.

ولو حاولنا أن نطلب إلى الرواة أن يصنعوا ما يصنعه المؤرخون من الاستغناء عما لا يعتقدونه الحق أو عما يعتقدونه الكذب لأضعنا على أنفسنا تراثا قد يمكننا من الوصول إلى الحقيقة كما يحفظ لنا كثيراً من المواد التى لا يكون التاريخ تاريخا إلا بها . ويكفى الراوى أنه كان ولا يزال لكل ـ هذه الأشياء ـ الحافظ الأمين .

(ج) أنه لما كان حظ الراوى النقل والنقل ليس غير كان عليه أن يتوقف حين لا يجد ما يرويه وهو فى ذلك على العكس من المؤرخ الذى يكون من حقه أن يعتمد على البراهين النظرية والأدلة العقلية فيقدم المقدمات ويستنتج النتائج ويستنبط من الأمور ما يملأ به الفراغ ليقدم لنا صورة الحقيقة كما رآها وكما آمن بها ، ويقدمها كاملة غير منقوصة إن وجد إلى ذلك السبيل .

والراوى حين يقف موقف الحافظ الحريص على هذه المسائل إنما يقدم للعلم خدمة جليلة ذلك لأنه هو الذى سيباعد بين العلم وبين الكذبة الوضاعين . كما أنه هو الذى سيقدم لنا الدليل على الكثير من أخطاء المؤرخين .

تلك هى أهم الفروق المميزة أو الصفات البارزة لكل من الرواة والمؤرخين وهى صفات أو فروق تستمد قوتها وحيويتها من صنيع كل منهم وطبيعة عمله ، وعسى أن تكون من الوضوح بحيث تمكننا من فهم مدلول عنوان هذا البحث ، كما تمكننا من درس أبى الفرج على أساس علمى .

وإذا كان لابد من كلمة نختتم بها هذا التمهيد فهى أنه يجب ألا يختلط علينا الأمر فى فهمنا لشخصيات الأقدمين فنخلط بين الرواة والمؤرخين وبخاصة حين يكون المؤرخ ممن يعتمدون على أسلوب الرواية فى التاريخ .

الباب الأول

العوامل المؤثرة فى حياة أبى الفرج

الفصل الأول

الحدود الزمانية والمكانية

١ — الحدود الزمانية:

والحدود الزمانية لحياة أبى الفرج تبدأ بحد متفق عليه وتنتهى إلى حد مختلف فيه، وهى ظاهرة تشعرنا بأمر ما فى حياة أبى الفرج، ذلك لأنا نعلم أن الأمر يجرى على العكس من ذلك فى الحدود التى تبدأ بها وتنتهى إليها حياة الآخرين من العلماء والعظماء ومن الأدباء والفلاسفة ورجال الفن ورجال الدين. فحد الوفاة هو المتفق عليه فى الغالب وتاريخ الميلاد هو المختلف فيه. وتفسير ذلك ليس بالأمر الصعب، فالطفل حين يولد لا يلتفت إلى مولده غير أهله، ولكنه حين يتوفى - وبخاصة إذا كان قد بلغ من المجتمع مكانة سامية جعلته فى عداد العظماء أو فى عداد العلماء والأدباء - يلتفت إليه جميع الناس، ويذكرون ذلك الحادث لأنه فى عرفهم ليس من الحوادث الفردية التى تشغل الأهل فحسب وإنما لأنه من الأحداث التى تنزل بالمجتمع فيضطرب لها، وقد يهتز من أجلها جميع الناس. ومن هنا فيما نرى كان ذلك التقليد الذى يجرى عليه المؤرخون وأصحاب كتب الطبقات من جعلهم حد الوفاة الأساس الزمنى الذى يقوم عليه الترتيب التاريخى لحياة العلماء والأدباء.

هذه الظاهرة من تاريخ أبى الفرج لابد لها من تفسير أو تعليل إذ لعل هذا التعليل أن يوضح لنا جانبا من جوانب هذه الحياة.

لن نستطيع أن نعلل هذا الاختلاف فى تاريخ الوفاة بموت الرجل بعيداً عن الوطن فلقد توفى الرجل ببغداد وتوفى على ذلك بين الصحب والإخوان[١].

ولن نستطيع أن نعلل هـذا الاخلاف بأنه من تطاول الزمن فقد وقع هذا الاختلاف بين المعاصرين الذين سجلوا أقوالهم فى كتبهم من أمثال ابن النديم[٢] وأبى نعيم[٣] أو الذين أملوا أقوالهم أو رووها لطلابهم من أمثال ابن أبى الفوارس[٤].

المسألة فيما أرى ترجع إلى أمر واحد هو أن الرجل قد فارق الدنيا ولم يكن قد اكتسب تلك الشهرة التى طبقت فيما بعد الآفاق . ومن هنا كان الإهمال وكان النسيان وكان الاختلاف فيما بين المعاصرين من المؤرخين والرواة .

ولن يعترض علينا معترض بتلك النصوص التى تروى عن أمثال المهلبى والصاحب بن عباد وعبد العزيز بن يوسف وغيرهم من الولاة والوزراء[٥] فتلك نصوص لم تكن فيما نرى إلا لتبنى لكتاب الأغانى مجداً وتجعل لأبى الفرج ذكرا . نصوص اخترعها أحد النساخ حتى يكثر الطلب على الكتاب فيكثر النسخ ويتسع الرزق ـ كما سنذكر بتفصيل فى الفصل الأخير من هذا الباب إن شاء الله ـ وقد يكفى فى هذا الموطن أن نقرر أن هـذه النصوص

---

(١) ٢/٢٢ أخبار أصفهان لأبى نعيم
(٢) ١٦٧ الفهرست لأبى النديم ط الرحمانية بمصر
(٣) ٢/٢٢ أخبار أصفهان لأبى نعيم
(٤) ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد للخطيب
(٥) ٩٧ و ١٣/٩٨ معجم الأدباء ط رفاعى

لم توجد فى الكتب التى ألفت فى القرنين الرابع والخامس من أمثال الفهرست وأخبار أصبهان واليتيمة وتاريخ بغداد وإنما وجدت فى الكتب التى جاءت بعد ذلك والتى ألفت بعد موت أبى الفرج بأكثر من قرنين من الزمن ـ إن فى ذلك من عوامل الشك والارتياب بهذه النصوص ما فيه .

إن كتاب الأغانى لم ينل حظه الفائق من الشهرة إلا بعد أن فقدت المكتبة العربية كثيراً من الكتب وكثيراً من المرويات التى اعتمد عليها أبو الفرج فى التأليف ، ولولا ذلك لظل الكتاب وسطا بين الكتب وظل أبو الفرج ـ كما كان فى عصره ـ من الأدباء الذين يحسنون السمر ويجيدون قص الأخبار ولا شىء وراء هذا . فليس الرجل بالشخصية الجبارة . وليس الرجل بالعقلية الفذة حتى يضخم وتتضاءل إلى جانبه جميع الشخصيات .

أبو الفرج شخصية عادية أو أديب مغمور فى عصره ومن هنا كان الاختلاف فى تاريخ الوفاة .

ولد أبو الفرج سنة أربع وثمانين ومائتين[١] ذلك هو الحد المتفق عليه . وتوفى أبو الفرج سنة نيف وستين وثلاثمائة فيما يقول ابن النديم[٢] أو سنة سبع وخمسين وثلاثماية فيما يذكر أبو نعيم . أو يوم الأربعاء لأربع عشرة خلون من ذى الحجة سنة ست وخمسين وثلاثمائة فيما يروى عن ابن أبى الفوارس[٣] وهذا هو الأمر المختلف فيه .

نستطيع أن نتفق أولا على إخراج قول أبى نعيم على أساس أن الرجل لم يكن على صلة تامة بأبى الفرج كما كان كل من صاحبيه ابن النديم

---

(١) ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد للخطيب .
(٢) ١٦٧ الفهرست لابن النديم ط الرحمانية مصر
(٣) ٢/٢٢ أخبار أصبهان لأبى نعيم

وابن أبى الفوارس ، فقد كان الأول له قرينا وكان الثانى له تلميذاً ، وكل منهما قد روى عنه ، روى عنه ابن النديم أخباراً فى كتابه الفهرست[١] . وروى عنه ابن أبى الفوارس أحاديث فيما يذكر الخطيب[٢] ولم يرو عنه أبو نعيم شيئاً فيما يحكى هو عن نفسه[٣] .

ثم على أساس أن أبا نعيم أصبهانى وكل من ابن النديم وابن أبى الفوارس من البغداديين وقد توفى الرجل ببغداد فيما يحكى أبو نعيم نفسه وكما سبق أن ذكرنا .

ولم يؤرخ أبو نعيم لأبى الفرج إلا لوجود هذا اللقب (الأصبهانى) ولولاه لسكت عنه لأنه لم يعرف من أمره إلا الأخبار الطائرة التى سجلها فى بضعة أسطر قد لا تتجاوز فى العد أصابع اليد الواحدة . ولعله من كل ما تقدم رجح الخطيب البغدادى وغيره قول ابن أبى الفوارس على قول أبى نعيم[٤] .

نتفق على إخراج قول أبى نعيم ونقف لنوازن بن القولين الآخرين قول ابن النديم وقول ابن أبى الفوارس . فلعل هذه الموازنة أن تقربنا من الحق إن لم نضع يدنا عليه .

والنظرة الأولى للقولين تشعرنا بما فى قول ابن أبى الفوارس من دقة متناهية وبما فى قول ابن النديم من إهمال شنيع فابن النديم يهمل اليوم والشهر ويهمل السنة ويكتفى بالعقد . أما ابن أبى الفوارس فيحدد اليوم باسمه

---

(١) ١٠٣ الفهرست
(٢) ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد للخطيب
(٣) ١١/٢٩٩ تاريخ بغداد
(٤) ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد

وبموقعه من الشهر . ويحدد الشهر باسمه لنعرف موقعه من العام . ثم يحدد السنة تحديداً واضحا بينا لا يحوطه غموض أو إبهام .

علام يدل هذا التحديد الواضح وهذه الدقة المتناهية ؟

لا نستطيع أن ندعى دلالتهما على الصدق لأنهما يحملان فى طياتهما ظواهره فقد تكون هذه الظواهر آية الوضع وعلامة الزور والبهتان من حيث أن الواضع يعمد دائماً إلى آيات الصدق فيحلى بها قوله حتى تجنح النفس إليه وتثق به وتعتبر صاحبه من المدققين المحققين الذين يقفون كثيراً أمام الأخبار .

وعلام يدل هذا الإهمال الشنيع ؟

إنا هنا قد نجنح إلى دلالته على الصدق من حيث أن الشخص قد يهمل لا لأنه لايعنى بأخباره ولا يحصل ما يقول ، وإنما لأنه يعرف أن ما يهمل هو من الحقائق الواضحة والأخبار البينة التى يعرفها الجميع . وذلك هو الأمر الذى كان يفعله ابن النديم حين يؤرخ لمن كان قريب العهد من الإخباريين والأدباء أنظر إلى ما يقوله عن جحظه « وأخباره أشهر وأظهر من أن نذكرها فى كتابنا لقرب عهده منا[١] » .

إن الذى يهمل قد يهمل لأنه يشعر أنه ليس بحاجة إلى هذه الدقة المتناهية التى توضح وتبين كل شىء ما دام الأمر فى نفسه واضحا . ومن هنا يجب ألا نقبل قول ابن أبى الفوارس لدقته وألا نرد قول ابن النديم لإهماله، وإنما يجب أن نحذر الدقة فقد يكون السم فى الدسم ، ويجب أن نبحث أسباب الإهمال فقد يكون الإهمال نفسه دليل الصدق وعلامة الصحة .

---

(١) ٢٠٨ الفهرست الرحمانية مصر

والنظرة الثانية ترينا أن ابن النديم قد خط قوله بيده وسجله فى كتابه . أما قول ابن أبى الفوارس فقول يروى عنه ولم يسجل فى كتاب إلا بعد موت أبى الفرج بما يزيد على قرن من الزمن ، وذلك لأن الذى سجله إنما هو الخطيب فى كتابه تاريخ بغداد .

هذه الظاهرة اعتماداً على قولهم بالعلو فى السند وعلى ما نرى من أن الضبط بالكتابة أفضل من الضبط بالحفظ ، وأن الروايات المكتوبة مقدمة على الروايات الشفهية ، تشعرنا بتقديم قول ابن النديم وترجيحه على قول ابن أبى الفوارس . .

وإذا ما ضممنا إلى ذلك أن ابن النديم كان قرينا وزميلا لأبى الفرج وأنه كان مقيما ببغداد ، وأنه كان من الاخباريين الذين يؤرخون للرجال[١] وأن ابن أبى الفوارس كان طالبا وكان لا يزال فى سن الطلب وقت وفاة أبى الفرج وأنه كان يرحل إلى غير بغداد وإلى غير البلاد العربية فى طلب الحديث[٢] وأنه لم يكن من الذين يؤرخون للرجال ، تبين لنا أن عوامل ترجيح قول ابن النديم أكثر ، وأنه الذى يصح لنا أن نعتبره الحق أو القريب إلى الصواب .

على أن الأمر قد لا يقف عند هذا الحد بل يعدوه إلى أن الخطيب كان يشك أحياناً فى أقوال ابن أبى الفوارس حين تتعلق بحياة الرجال[٣] . وإلى أن بعض الأقدمين قد شكك فى قول ابن أبى الفوارس بل أبطله حين علق عليه بقول « وفاته هذه فيها نظر وتفتقر إلى التأمل لأنه ذكر فى كتاب أدب الغرباء من تأليفه . حدثنى صديق قال . قرأت على قصر معز الدولة بالشماسية

---

(١) راجع مقدمة الفهرست (٢) ١/٣٥٢ تاريخ بغداد

(٣) ١/٤١٥ تاريخ بغداد

يقول فلان بن فلان الهروى حضرت هذا الموضع فى سماط معز الدولة والدنيا عليه مقبلة وهيبة الملك عليه مشتملة ثم عدت إليه فى سنة إثنتين وستين وثلاثمائة فرأيت ما يعتبر به اللبيب يعنى من الخراب[١].

أعتقد أن الأمر قد وضح من حيث ترجيح قول ابن النديم لا سيما بعد ذلك النص الذى يثبت أن أبا الفرج قد أخرج كتابه أدب الغرباء بعد سنة اثنتين وستين وثلاثمائة .

لكن ما العمل فى تلك الغلبة التى تمت لقول ابن أبى الفوارس وهذه الشهرة التى سايرته فى كل مكان حتى ليعتمد عليه الجم الغفير من المؤلفين قدماء ومحدثين من لدن الخطيب فى كتابه تاريخ بغداد إلى الأستاذ أحمد أمين فى كتابه ظهر الإسلام[٢] ؟ .

لاشىء فالشهرة لاتكسب الرأى الصحة ولاتكسب القول الصدق لأنها لا تقوم على الحق وحده وإنما تقوم أحياناً على أسباب قد تكون سياسية وقد تكون دينية أو مذهبية وقد تكون اجتماعية وقد تكون شخصية بحتة وهى فى كل هذا لا علاقة لها بالصدق أو الصحة . ولقد جاءت الشهرة إلى قول ابن أبى الفوارس من أن الخطيب وهو راويه الأول قد وثقه حين علق عليه بقوله . وهذا هو القول الصحيح فى وفاته[٣] . لكن يجب أن نعلم أن توثيق الخطيب له قد لايفيده فى شىء بعد ذكرنا للمرجحات السابقة ، وبعد أن نعرف أن الخطيب إنما رجح قول ابن أبى الفوارس على قول أبى نعيم وأنه لم يتعرض لقول ابن النديم حتى لنظن بأنه لم يقع عليه حين أرخ لأبى الفرج ، وإلا فما سر هذا السكوت ؟

---

(١) ١٣/٩٦ معجم الأدباء . ط . رفاعى (٢) ٢٤٠ ظهر الاسلام
(٣) ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد

ونتهى من كل ما تقدم إلى شيئين :

الأول أنه يجب علينا أن نحذر الروايات المحددة الدقيقة فقد يكون السم في الدسم . وأن نحـذر الروايات الشائعة المشهورة فقد لا يكون شحما ذلك الورم .

الثانى أن حياة أبى الفرج تبدأ بسنة أربع وثمانين ومائتين وتنتهى فيما هو القول الراجح بسنة نيف وستين وثلاثمائة . ومضمون ذلك أن أبا الفرج فارق الحياة وقد بلغ الثمانين من الأعوام وهو عمر مديد فيما نرى ، وهى سنوات عجاف اضطربت فيها أمور الدولة وسقطت فيها هيبة الخلافة ، وزالت دولة وقامت دويلات وكل ذلك أحداث سياسية واجتماعية خطيرة . أحداث شاهدها أبو الفرج شهود العيان وتأثر بها إن قليلا وإن كثيراً ، وظهرت آثارها فى حياته الطويلة . ولكن ليس لى أن أقف فى هذا الموطن لأتناول كل هـذه الآثار بالحديث فأنا أعلم أن لكل منها موطنه فى الفصول المقبلة ، وأنا أعلم أنى لم أقف هنا إلا لأحقق تاريخيا تلك الأزمنة التى عاش فيها أبو الفرج . وإذ كنت قد بلغت من ذلك بعض ما أريد فإن من الخير أن أتركه إلى تحقيق أمر آخر هو الحدود المكانية لتلك الحياة .

* * *

٢ — الحدود المكانية :

ولد أبو الفرج بأصبهان ونشأ وتربى ببغداد . إلى هذا الرأى يذهب كاتب مادة أبى الفرج فى دائرة المعارف الإسلامية . كما يذهب إليه قوم آخرون . سبقوا هذا الكاتب أو جاءوا بعده . من أمثال طاشكبرى زاده . وخير الدين الزركلى . وسيد صقر . وأحمد أمين . الأول فى مفتاح السعادة[1] . والثانى

(١) ١٨٤/١ مفتاح السعادة

فى الأعلام [١] . والثالث فى مقاتل الطالبين [٢] . والرابع فى ظهر الإسلام [٣] . يذهبون إليه فى صراحة وفى عبارة لا يحوطها الغموض أو الإبهام .

أما أنه نشأ وتربى ببغداد فذلك هو الأمر الذى لا تستطيع له دفعا . ذلك لأنا نعلم أنه استوطن بغداد منذ صباه [٤] . وإنه ليحدثنا بأنه كان بها حين ورد إليها أبو الفياض سوار بن أبى شراعة . وأن ذلك كان حوالى سنة ثلاثمائة . وذلك حيث يقول : (. . . وابنه أبو الفياض سوار بن أبى شراعة . أحد الشعراء الرواة . قدم علينا بمدينة السلام بعد سنة ثلاثمائه . فكتب عنه أصحابنا قطعات الأخبار واللغة . وفاتنى فلم ألقه . وكتب إلى والى أبى رحمه الله بإجازة . وأخبرنا بأخبار على يد بعض إخواننا . . . إلخ [٥]) .

وأما إنه ولد بأصبهان فتلك هى المشكلة . ذلك لأنا نعلم أن أسرة أبى الفرج كانت تقيم بسر من رأى . وكانت تقيم بها قبل مولد أبى الفرج بخمسين من السنين . كان يقيم بها جده ، وجد أبيه . وكان يقيم بها عمه ، وعم أبيه . وكان جد أبيه . أحمد بن الهيثم . من المعاصرين لاسحاق الموصلى [٦] . واسحاق قد فارق الدنيا قبل مولد أبى الفرج بنصف قرن على أقل تقدير .

كذلك كان عمه الحسن بن محمد . وعم أبيه عبد العزيز بن أحمد من الكتاب بسر من رأى فى ذلك الحين [٧] .

---

(١) ٢/٦٦٦ الأعلام (٢) ٩ مقاتل الطالبيين مصر سنة ١٩٤٩

(٣) ٢٤٠ ظهر الاسلام

(٤) لوحة ٢٧٥ ب ٠ ٩٢٧٦ تاريخ الاسلام الكبير للذهبى مصورة رقم ٤٢ تاريخ دار الكتب ٠

(٥) ٢٠/٣٥ أغانى ٠ ساسى ٠

(٦) ٢ ، ١١/٣/ المصدر السابق ٠

(٧) ٩٨ ، ٩٩ جمهرة الانساب لابن حزم ٠

والأمر لا يختلف بالنسبة لأسرة أمه . فجده لأمه هو يحي بد محمد بن ثوابه . وقد كان أيضا من الكتاب [١] . وآل ثوابه فى ذلك الوقت كانوا يقيمون بسر من رأى . أو ببغداد تبعا للخلفاء والوزراء . كما كان شأن الكتاب فى ذلك الحين .

أسرتا أبى الفرج . أسرة أبيه ، وأسرة أمه . كانتا تقيمان بسر من رأى . أو ببغداد . كما سنشرح بتفصيل فى الباب التالى إن شاء الله . وإقامتهما بين البلدين تجعل الذهاب إلى القول . بأنه قد ولد باصبهان من المشكلات التى لا تحل ، إلا إذا ثبت لدينا أن أباه وأمه قد انتقلا من سر من رأى . أو من بغداد . إلى أصبهان . الأمر الذى لم نعثر له على دليل . بل الأمر الذى تعارضه الأخبار التى تدور حول أسرة أمه . أو حول أسرة أبيه [٢] .

على أن هناك أمراً آخر يزيد هذه المشكلة تعقيداً . أو يجعل القول بمولده باصبهان بعيد الاحتمال . ذلك لأن أبا الفرج حين يروى عن أفراد الأسرة أو يتحدث عنهم يدل على أن لقب الأصبهانى لم يكن لقب أبى الفرج فحسب . وإنما هو اللقب الذى يعرف به كل من عمه . وابن عمه . وجده . فعمه هو الحسن بن محمد الأصبهانى [٣] . وابن عمه هو أحمد بن الحسن الأصفهانى [٤] أو أبو عبد الله أحمد بن الحسن بن محمد الأصبهانى [٥] . وجده هو محمد بن أحمد الأصبهانى [٦] ثم إن أباه هو الحسين الإصبهانى ، الأمر الذى

---

(١) ١٨/٤٣ أغانى . ساسى .
(٢) ٢٠/٩١ أغانى . ساسى .
(٣) ٨/٣٦ المصدر السابق .
(٤) ٦/١٥١ المصدر السابق .
(٥) ١٥/١٠٢ المصدر السابق .
(٦) ٦٩٨ مقاتل الطالبيين . مصر سنة ١٩٤٩ .

يكروره كثيراً رواة كتاب المقاتل . فليس أبو الفرج عندهم إلا على بن الحسين الأصبهانى . ومعنى ذلك كله أو مضمونه أن أبا الفرج قد ورث هذا اللقب عن الأسرة ، وأن التفسيرات اللغوية التى كان يظن أن تكون أحد الأبواب التى تحل لنا هذه المشكلة لا تصلح فى هذا المقام .

ليس لنا من بد من تتبع هذه المسألة فى الكتب ، وتتبعها على أساس من التاريخ . وأعتقد أنا لسنا بحاجة إلى أن نقنع القارىء بأن تاريخ المشكلة يكون دائما جزءاً من حلها . فإنه يعلم ذلك ، ويعلمه لأنه الأمر المقرر عند جميع العلماء .

لقد سكت ابن النديم وهو المعاصر لأبى الفرج عن هذه المسألة[١] . كما سكت عنها معاصر آخر هو أبو نعيم[٢] . ولا يعترض علينا بترجمة أبى نعيم له فى أخبار أصبهان فقد يكتفى المؤرخ فى ذلك بهذه النسبة اللغوية . وقد يجيز ذلك أن أصول الرجل من أصبهان . بل كان يجيز ذلك إقامة الرجل فى بلدة ماممدة ليؤرخ له فى الكتب التى تهتم بأخبارها حتى ولو لم يكن من أهلها . الأمر الذى نجد له مثلا عديدة فى كتاب تاريخ بغداد .

إن أول من ذكر هذه المسألة من الأقدمين هو الثعالبى فى اليتيمة ، وذلك حين قال فى ترجمته له (الأصبهانى الأصل البغدادى المنشأ[٣]) . وهو قول لا ينص فى صراحة على أن أبا الفرج قد ولد بأصبهان . بل هو حتى لا يدل على ذلك . ولعل الأمر الأقرب إلى الحق . أنه يدل على أنه لم يولد بأصبهان . ذلك لأن هذا التركيب « أصبهانى الأصل » إنما يدل فى الكتب الأدبية لذلك العصر على أن أصوله هم الذين ينسبون إلى أصبهان . ولعل فى الأمثلة التالية

---

(١) ١٦٦ ، ١٦٧ الفهرست . ط . الرحمانية . مصر .

(٢) ٣/٣٣ أخبار أصبهان .

(٣) ٢/٢٧٨ اليتيمة . ط . دمشق

التى ننقلها عن كتاب الأغانى لأبى الفرج من الأضواء مانستعين به على تفسير هذا التركيب .

جاء فى الأغانى بصدد حديثه عن محمد الرف هو محمد بن عمرو مولى تميم كوفى الأصل والمولد والمنشأ [١] . وجاء بصدد حديثه عن حماد عجرد . وأصله ومنشؤه بالكوفة [٢] . وهى أقوال تشير فيما نرى . إلى أن الأصل إنما يعبر به عن الآباء والجدود . ولا يعبر به عن الشخص ونسبته إلى الموطن . وإذا فلا يستفاد من قول صاحب اليتيمة أن أبا الفرج قد ولد بأصبهان .

أما الخطيب فيعبر عن ذلك بقوله . (أبو الفرج الأموى الكاتب المعروف بالأصبهانى [٣] .) ونشعر نحن من كلمة المعروف . بأن الخطيب لم يكن ليعتقد بأن أبا الفرج قد ولد بأصبهان . ويتأكد لدينا هذا الشعور من حرص الخطيب على هذه الكلمة كلما عنت المناسبات ، وسمحت الظروف بالحديث عن أبى الفرج . ومن ذلك أنه عند ترجمته للحسن بن محمد عم أبى الفرج يقولها أيضاً « عم أبو الفرج المعروف بالأصبهانى [٤] . »

لم يصح عند الخطيب فيما نعتقد . أن أبا الفرج قد ولد بأصبهان . أو لم يشأ هو أن يعبر عن ذلك فى صراحة . وهو أمر يجعلنا فى حرج إن اعتمدنا على قوله فى تحقيق مولد أبى الفرج . وأنه كان بأصبهان .

أما صاحب وفيات الأعيان فقد كرر علينا عبارة صاحب اليتيمة . وسكت ياقوت فى معجم الأدباء عن هذه المسألة . كما سكت ابن النديم من

---

(١) ١٣/١٨ أغانى . ساسى .
(٢) ١٣/٧٠ المصدر السابق .
(٣) ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد .
(٤) ٧/٤١٢ تاريخ بغداد .

قبل . ووقف الذهبي عند قوله واستوطن بغداد من صباه[١] . ولم يشأ أن يزيد عليها شيئا . ومن هنا لم نعرف رأيه فى مولد أبى الفرج وأين كان . وكذلك كان موقف ابن شاكر[٢] .

إن أول من ذكر هذه المسألة فيما نعتقد هو طاشكبرى زاده . فى كتابه مفتاح السعادة كما سبق أن أشرنا . وهو رجل قد تأخر عن أبى الفرج بأكثر من خمسة قرون .

ونعتقد نحن أن الرجل لم يعتمد على نص صريح واضح وصله من الأقدمين . وإنما اعتمد على هذه التفسيرات اللغوية التى نحاول دائما أن نعلل بها بعض المسائل . وهى تفسيرات لا تقطع فى المسائل برأى . خاصة فى مسائل النسبة هذه . فنحن نعلم أن النسبة إلى البلدة لا تكون للشخص الذى ولد فيها فحسب . فقد تكون لمن مر بها ، أو أقام فيها فترة . ومن هنا قد يكون للشخص أكثر من نسبة . أو يكون له انتساب لأكثر من بلدة . الأمر الذى وقف عنده أصحاب علوم الحديث[٣] . كما قد تكون موروثة الأمر الذى رأيناه فى شأن أبى الفرج . بل قد تكون لغير ذلك . تكون لأن فى الشخص من الخلق والعادة ، أو من الشكل واللون ، ما يؤذن بهذه النسبة . جاء فى الأغانى بصدد ترجمته للعمانى ما يلى « اسمه محمد بن ذؤيب . . . وقيل له العمانى وهو بصرى لأنه كان شديد الصفرة وليس هو ولا أبوه من أهل عمان[٤] . »

---

(١) ٢٧٥ ب ٩١٧٦ تاريخ الاسلام الكبير للذهبى . مصور . دار الكتب .
(٢) ٤٧٥ عيون التواريخ لابن شاكر . مخطوط . دار الكتب .
(٣) ٤١٧ مقدمة ابن الصلاح .
(٤) ١٧/٧٨ أغانى . ساسى .

لم يتحقق لدينا أن أبا الفرج قد ولد بأصبهان . وإنما الذى تحقق أن الأسر التى ينتسب إليها كانت تقيم بسر من رأى . وتحقق لدينا أن حركات انتقالها كانت بين سر من رأى وبغداد . كما سنشرح فى الفصل التالى وفى الفصل الأول من الباب الثانى إن شاء الله . وهذا التحقيق التاريخى يجعلنا فى مأمن إن جنحنا إلى القول بأن الرحل قد ولد بسر من رأى حيث كان يقيم الآباء والأجداد .

لا نستطيع بعد كل ما تقدم أن نعد أصبهان من الحدود المكانية لحياة أبى الفرج . لا من حيث أنه لم يثبت لنا أنه قد ولد بها فحسب . بل لأنه لم يثبت لنا أيضاً أنه ذهب إليها حتى وهو كبير . أو أخذ عن شيوخها وهو صغير . أو صورها صورة فنية وهو أديب . ومن هنا جاز لنا أن نتركها ، وأن ننتقل إلى غيرها مما نعتبرها من هذه الحدود .

لأبى الفرج ميزة قد تيسر علينا هذه المهمة . هى أنه كان يذكر فى بعض مروياته الأمكنة التى تلقى فيها الخبر ، أو حمل فيها المرويات . وذلك إذا كان المكان غير بغداد فى الغالب . كان يذكر هذه الأمكنة مرة ويتركها أخرى . ولعله يفعل ذلك اعتماداً منه على أن القارىء قد فطن إلى المراد .

لا أستطيع فى هذا الموقف أن أدعى بأن هذا كان حال أبى الفرج فى جميع مروياته . وإنما أستطيع القول بأنه كان يجرى على ذلك فى بعض المرويات ، وأن هذا يكفى فى تحديد بعض الأمكنة التى زارها أبو الفرج والتى ستنفعنا قطعا فى تصوير حياته وتصوير ما كان يتفاعل معه من تيارات .

وأظهر الأمكنة التى زارها أبو الفرج فيما سجله هو فى مقاتل الطالبيين . أو فى كتاب الأغانى هى الكوفة . فقد التقى فيها أبو الفرج بالكثير من

الشيوخ وروى عنهم الكثير من المرويات . من هؤلاء محمد بن عبد الله ابن سليمان الحضرمى [١] . ومحمد بن جعفر القتات [٢] . وعلى بن العباس المقانعى(٣) . والحسين بن أبى الأحوص [٤] . وكثير غيرهم نستطيع أن نعرضهم فى عبارات لأبى الفرج نفسه تدلنا على مقامه بهذا المكان .

جاء فى الأغانى . حدثنى أحمد بن عيسى أبو موسى العجلى العطار بالكوفة [١] . وجاء حدثنى الحسين بن الطيب الشجاعى البلخى بالكوفة [٦] .

وجاء فى كتاب مقاتل الطالبيين حدثنى محمد بن على بن مهدى بالكوفة على سبيل المذاكرة . ونبأنى أحمد بن محمد أستاذه [٧] .

ويكرر أبو الفرج هذه الأسماء وغيرها فى أكثر من موطن ، ولأكثر من مناسبة . وإذا كان لأثر الثقافة الكوفية فى حياة أبى الفرج موطنه الخاص من البحث . وإذا كان المقصود من هذا الموقف هو التحقيق التاريخى للأمكنة التى ألم بها ، أو أقام فيها . فإن علينا أن نترك هذا الموطن إلى غيره .

نترك الكوفة إلى أنطاكية . وأنطاكية من البلدان التى سجل أبو الفرج زيارته لها فقد جاء فى كتابه الأغانى . أخبرنى عبد الملك بن مسلمه القرشى بأنطاكية قال أخبرنى أبى عن أهلنا أن أرطأة بن سهيه [٨] .

---

(١) ١٤/١٥٧ أغانى ساسى ، ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد

(٢) ، (٣) ، (٤) لوحة ٢٧٥ ب تاريخ الاسلام الكبير للذهبى « مصور »

(٥) ١٧/٦٨ ، ١٨/١٦٢ ، ١٣/٣٤ . أغانى ساسى .

(٦) ١٣/٦٩ المصدر السابق .

(٧) مقاتل الطالبيين . مصر سنة ١٩٤٩

(٨) ١١/١٣٥ أغانى ساسى

وجاء . أخبرنى أبو المعتصم عاصم بن محمد الشاعر بأنطاكية وبها أنشدنى قصيدة البحترى ... وأنشدنى لديك الجن يعزى جعفر بن على الهاشمى [١] .

ونجد لأبى الفرج زيارات لبعض البلدان الأخرى كالقادسية مثلا . وهى زيارات نلمسها من حديثه عن الشيوخ الرواة . والصفات التى يصفها بهم . وإن كنا لا نستطيع القطع بها . ذلك لأن أبا الفرج لا يحد المسألة هذا التحديد الذى رأيناه فى حديثه عن كل من أنطاكية والكوفة .

يقول أبو الفرج أخبرنى محمد بن الحسين الكندى خطيب مسجد القادسية [٢] . ويقول أخبرنى هاشم بن محمد الخزاعى ومحمد بن الحسين الكندى خطيب المسجد الجامع بالقادسية [٣] . وهى أقوال كما ترى تشير ولا تقطع برأى .

وكنا نود أن نحدد الأزمنة التى زار فيها أبو الفرج هذه البلدان . ولكن ذلك لم يتيسر فى دقة . لأن أبا الفرج نفسه لم يحدده . ولأن غيره لم يشر إليه . وكنا نود الاعتماد على تاريخ الرجال الذين أخذ عنهم أبو الفرج فى هذه البلدان . ولكن هذا التاريخ أهمل فى أحاديث المؤرخين عن بعضهم كالحديث الذى يخص أبا المعتصم عاصم بن محمد الأنطاكى [٤] . أو ذكر فيه وقت الوفاة فقط فى الحديث عن بعضهم الآخر . وهو وقت إن اعتمد عليه يدل على أن أبا الفرج قد زار الكوفة وهو صغير ـ الأمر الواضح من إخراجه كتاب مقاتل الطالبيين وهو ثقافة كوفية ، ولم يكن قد تجاوز الثلاثين من العمر .

---

(١) ١٢/١٤١ المصدر السابق
(٢) ١٤/٨٥ المصدر السابق
(٣) ٣٧٣ ، ٣٧٤ معجم الشعراء للمرزبانى « ط » القدس سنة ١٩٥٤
(٤) ٢١/٣٩ المصدر السابق

وأخيراً تجيء البصرة . ويظهر أن زيارة أبى الفرج لها لم تكن إلا آخر حياته . ذلك لأنه قص خبر هذه الزيارة فى كتابه أدب الغرباء . ولعله أن يكون من الخير أن نذكر هذا النص الذى يصور فيه أبو الفرج هذه الزيارة . لما فيه من تعبير صادق عن ذوق أبى الفرج وحسه .

« وكنت انحدرت إلى البصرة منذ سنيات . فلما وردتها . أصعدت من الفيض إلى سكة قريش . أطلب منزلا أسكنه . لأنى كنت غريبا . لا أعرف أحداً من أهلها إلا من كنت أسمع بذكره . فدلنى رجل على خان فصرت إليه . واستأجرت فيه بيتا . وأقمت بالبصرة أياما . ثم خرجت عنها طالبا حصن مهدى . وكتبت هذه الأبيات على حائط البيت الذى أسكنه .

الحمد لله على ما أرى	من صنعتى من بين هذا الورى
أصارنى الدهر إلى حالة	يعدم فيها الضيف عندى القرى
بدلت من بعد الغنى حاجة	إلى كلاب يلبسون الفرا
أصبح أدم السوق لى مأكلا	وصار خبز البيت خبز الشرا
وبعد ملكى منزلا مبهجا	سكنت بيتا من بيوت الكرا
فكيف ألقى لاهيا ضاحكا	وكيف أحظى بلذيذ الكرا
سبحان من يعلم ما خلفنا	وبين أيدينا وتحت الثرى
والحمد لله على ما أرى	وانقطع الخطب وزال المرا[1]

وهو نص يشعر كما ترى بالحالة السيئة التى كان أبو الفرج قد انتهى إليها. كما يشعر بأن الرجل لم يكن يعرف أحداً من أهلها ـ اللهم إلا أولئك الذين سمع بذكرهم . وهذا هو الوضع الذى يفسره ويؤيده أخذ أبى الفرج عن

---

(١) ١٥ ـ ١١/١١٧ معجم الأدباء لياقوت « ط » رفاعى

البصريين فقد كان يأخذ عنهم مكاتبة ، وإجازة . الأمر الذى يصوره هو نفسه فى حديثه عن طرق تحمله عن هؤلاء الشيوخ - وبخاصة الفضل بن الحباب . جاء فى الأغانى . كتب إلى أبو خليفة . يذكر أن محمد بن سلام حدثه[١] ... وجاء أخبرنى أبو خليفة الفضل بن الحباب فى كتاب إلى قال . حدثنا محمد بن سلام[٢] ... وجاء أخبرنى أبو خليفة فى كتابه إلى عن محمد بن سلام عن أبى زيد الأنصارى[٣] .

ولعلنا لم ننس بعد حديثه عن الإجازة التى جاءته ، وجاءت إلى أبيه عن أبى الفياض سوار بن أبى شراعه . وكيف أنه كتب إليهما أخباراً . ومنها أخبار أبى شراعه البصرى[٤] .

إن المواطن التى زارها أبو الفرج والتى استطعنا أن نحقق أمر زيارته لها . أو إقامته فيها ، تحقيقاً تاريخيا لا يشوبه الشك . هى بغداد . والكوفة . وأنطاكية . والبصرة . وحصن مهدى .

وأن المواطن التى نتوقع زيارته لهـا من حديثه أو من قرائن الأحوال . هى . القادسية ، وسر من رأى . أما غير ذلك فلا نقطع فيه برأى . لانستطيع أن ندعى مثلا أنه زار حلب لأن قصة إهداء الأغانى لسيف الدولة ليست ثابتة عندنا ، ولم يصرح هو أو غيره بزيارته لحلب . وكذلك الحال فيما يخص أصبهان . كما سبق أن ذكرنا .

لا نستطيع أن نقطع فى شىء - غير المواطن السابقة - برأى ، وإن كنا نستطيع أن نختم هذا الفصل بهذه الجملة التى يصور فيها كاتب مادة أبى الفرج من دائرة المعارف صاحبنا من أنه كان يعيش عيشة الأديب الجوال .

---

(١) ١١٠/١١ أغانى بولاق

(٢) ١١/١٢ المصدر السابق

(٣) ١٤/١٨ المصدر السابق

(٤) ٣٥/٣٠ أغانى ساسى

الفصل الثانى

الأسرة وما لها من أثر

من خطتنا فى البحث أن نعمد أولا إلى الظواهر فنقف عليها ونحصيها ثم ننتقل بعد ذلك إلى التفسير والإيضاح . والظواهر المحصاة من حياة أبى الفرج والتى لابد لنا فى شرحها وتفسيرها من دراسة ذلك الجو الذى كان يعيش فيه ثلاث . ظاهرة سياسية ، وأخرى اعتقادية ، والثالثة ثقافية وتتعلق بذلك الميل الخاص نحو رواية الأخبار .

هذه الظواهر اشترك فى تكوينها أو اشترك فى العمل على تنميتها وإبرازها فى حياة أبى الفرج كل من أسرة أبيه وأسرة أمه . ومن هنا كان من الواجب علينا أن ندرس كل واحدة من الأسرتين ، وأن نبين ما لها من أثر فى حياة أبى الفرج فى حديث خاص .

(ا) ينتسب أبو الفرج من جهة أبيه إلى الأسرة الأموية . هذا هو الرأى المجمع عليه بين المؤرخين والأدباء . فأبوه هو الحسين بن محمد بن أحمد ابن الهيثم بن عبد الرحمن بن مهران بن عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان ابن الحكم بن أبى العاص[1] .

والأسرة الأموية إحدى الأسر العربية العريقة التى يبدأ تاريخها منذ العصر الجاهلى ، ويبدأ على أنها الأسرة التى كانت تنازع الأسرة الهاشمية السيادة والسلطان .

---

(١) ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد

ليس من حقنا فيما نعتقد أن نمضى مع هذه الأسرة العريقة منذ أقدم العصور فندرس مكانتها فى العصر الجاهلى ، والدور الذى لعبته فى عصر النبوة ، ومشاركتها فى الحكم والسياسة فى عصر الخلفاء الراشدين ، وانفرادها بالحكم حين دالت دولة على وانفرد بالخلافة معاوية بن أبى سفيان .

ليس من حقنا أن نقف لندرس شيئاً من هذا لسببين :

الأول منهما أن هذه الأحداث لها محلها الخاص من كتب التاريخ الإسلامى وبخاصة السياسى . وإنا لنعرف أنها شغلت بالفعل كثيراً من المؤرخين الذين قصروا أنفسهم على هذه الدراسة وأخرجوا فى ذلك كتبا قد تشبع نهم القراء[1] .

الثانى : أن الذى يهمنا فى هذا الموطن ليس إلا الجوانب التى تشرح وتفسر الظواهر المحصاة من حياة أبى الفرج ، وهذه الجوانب الشارحة المفسرة إنما تبدأ بزوال الخلافة الأموية ومقتل مروان بن محمد جد أبى الفرج وآخر الخلفاء .

ونحن حين نبدأ من هذه الفترة إنما نبدأ فنذكر تلك الصور الحمراء التى سجلتها كتب التاريخ الإسلامى حين صورت مافعله العباسيون بالأمويين لاسيما الخلفاء وأبناء الخلفاء .

جاء فى ابن الأثير . (وأمر عبد الله بن على بنبش قبور بنى أمية بدمشق ، فنبش قبر معاوية بن أبى سفيان فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد ، ونبش قبر

---

(١) راجع (أ) تاريخ الشعوب لبروكلمان . ترجمة دار العلم للملايين ببيروت .

(ب) تاريخ الاسلام السياسى للدكتور حسن ابراهيم رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب .

عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته . وكان لا يوجد فى القبر إلا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فإنه وجد صحيحاً لم يبل منه إلا أرنبة أنفه ، فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه فى الريح . وتتبع بنى أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم فأخذهم ولم يفلت منهم إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس[١]) .

وجاء فيه أيضا (وقتل سليمان بن على بن عبد الله بن عباس بالبصرة أيضا جماعة من بنى أمية . . . فلما رأى بنو أمية ذلك اشتد خوفهم وتشتت شملهم واختفى من قدر على الاختفاء[٢]) .

وروى أبو الفرج نفسه صوراً من هذه الصور الحمراء أو الصور البشعة المنكرة . روى قتل السفاح لوجوه بنى أمية[٣]. وروى تمثيل سليمان بن على بهم بالبصرة « أخبرنى أحمد بن عبيد الله بن عمار قال حدثنى على بن محمد ابن سليمان النوفلى عن أبيه عن عمومته أنهم حضروا سليمان بن على بالبصرة وقد حضره جماعة من بنى أمية عليهم الثياب الموشية المونقة ، فكأنى أنظر إلى أحدهم وقد اسود شيب فى عارضيه من الغالية ، فأمر بهم فقتلوا وجروا بأرجلهم فألقوا على الطريق وإن عليهم لسراويلات الوشى والكلاب تجر بأرجلهم[٤] .

هذه الصور من الاضطهاد لم تقف عند حد تأسيس الدولة وإنما مضت طوال حكم بنى العباس حتى لنجد المعتضد الخليفة العباسى يصدر عام أربع وثمانين ومائتين وهو العام الذى ولد فيه أبو الفرج منشوراً يصور لنا ذلك

---

(١) ٥/١٧٤ الكامل «ط» المطبعة الكبرى سنة ١٢٩٠ هـ
(٢) ٥/١٧٥ المصدر السابق
(٣) ٩١ – ٤/٩٣ الأغانى ساسى .
(٤) المصدر السابق ٤/٩٤

العداء التقليدى بين أمية وهاشم أو بين الأسرة الأموية وخلفاء بنى العباس . وهو المنشور الذى حفظ لنا الطبرى صورته [١] . والذى جاء فيه (... اللهم العن أبا سفيان بن حرب ومعاوية ابنه ويزيد بن معاوية ومروان ابن الحكم وولده . اللهم العن أئمة الكفر وقادة الضلالة وأعداء الدين ومجاهدى الرسول ومغيرى الأحكام ومبدلى الكتاب وسفاكى الدم الحرام . اللهم إنا نتبرأ إليك من موالاة أعدائك ومن الأغماض لأهل معصيتك كما قلت « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله . أيها الناس أعرفوا الحق تعرفوا أهله وتأملوا سبل الضلالة تعرفوا سابلها فإنه إنما يبين عن الناس أعمالهم ويلحقهم بالضلال والصلاح آباؤهم فلا يأخذكم فى الله لومة لائم [٢] .

هذه الحالة المزعجة التى تقوم على أمثال ما قام به العباسيون من قتل وفتك ومصادرة للأموال والأرزاق لا توجد أبداً بين قوى قاهر وضعيف عاجز إلا ووجد معها دائماً بعض هذه الحالات .

الأولى : الهجرة وترك البلاد التى يفعل فيها الأقوياء ما يشاءون . وتكون هذه الهجرة أوجب وألزم حين يكون الأقوياء من أصحاب النفوذ والسلطان كالخلفاء والولاة والوزراء .

الثانية : البقاء مع القدرة على التنكر والاختفاء عن أعين السلطان والبعد عن كل ما يلفت الذهن أو يبعث الشك والريبة . ومن هنا يحاول الضعفاء دائما فى أمثال هذه البيئات البعد عن المشاركة فى أى نشاط سياسى ظاهرى حتى لا يكون العسف والعنت والاضطهاد .

---

(١) ٢١٦٦ — ٤/٢١٧٧ الطبرى • المجلد الثالث «ط» أوروبا •
(٢) ٤/٢١٧٦ المصدر السابق •

الثالثة : وهى حالة أهم من الحالات السابقة . حالة النشاط الذى يدور فى خفاء . فإن الضعفاء يعمدون إليه لإحساسهم بأنه الوسيلة الوحيدة التى تمكنهم من القصاص . ومن هنا نراهم يصادقون كل عدو للنظام ويعطفون على الخارج عليه فيكيدون للدولة سراً ماداموا قد عجزوا عن هذا الكيد فى وضح النهار . وهم بذلك يشفون أنفسهم مما تجد ، ويرضون غرائزهم تلك التى تدفعهم إلى الانتقام من الأعداء .

هذه الحالات وجدت فيما نرى فى حياة الأسرة الأموية بعد هزيمتها واضطهادها والفتك بأفرادها .

فالهجرة إلى الأندلس حقيقة تاريخية مقررة وواقع تاريخى ملموس . وإن آثارهم لتدل عليهم . وليس منا من يستطيع أن ينكر وجود هذه الآثار .

والاختفاء عن أعين السلطان أمر تشهد به هذه البينات .

(ا) ذلك التنكر الذى يظهر فى اتخاذ ألقاب غير مشيرة إلى الصلة العائلية بالأسرة الأموية كلقب الأصبهانى ذلك الذى اشتهر به أبو الفرج واشتهر به غيره من أفراد أسرته كجده وعمه وابن عمه الأمر الذى أثبتناه فى الفصل الأول من هذا الباب .

(ب) ذلك التنكر الذى يشتهر فى اتخاذ حرف وألقاب مهنية كذلك الذى يثبته النص التالى . (محمد بن الوليد الأموى الخياط المدينى روى عن أبى عبينه وهشام بن سليمان . حكى ابنه عنه أنه قال أنا من ولد سليمان بن عبد الملك بن مروان ولا تخبر به أحداً فإنى رجل خياط وإياك أن يسمع منك أحد[1] .

---

(١) ٢/١٨٢ أخبار أصبهان لأبى نعيم .

(ج) ابتعاد الأمويين عن المشاركة فى السياسة ومن هنا تخلو كتب التاريخ من الحديث عن الأمويين على أنهم من العمال أو من رجال الدولة الذين يقومون ببعض الأعمال للسلطان، ولعل ذلك هو الذى يفسر لنا لماذا لم يكن أبو الفرج نديما أو مؤدبا للخلفاء وأبناء الخلفاء.

أما الحالة الثالثة التى يدور فيها النشاط فى خفاء فتثبتها النصوص الكثيرة التى توضح ما كان بين الطالبين والأمويين من جمال الصلة وحسن الجوار. وهما أمران يظهران منذ التحضير والإعداد لقيام الخلافة العباسية.

جاء فى مقاتل الطالبين (... وحدثنى الحرث بن إسحاق أن مروان لما بعث عبد الملك بن عطية السعدى لقتال الحرورية لقيه أهل المدينة سوى عبد الله بن الحسن وابنيه محمد وابراهيم فكتب بذلك إلى مروان وكتب إليه أنى هممت بضرب أعناقهم. فكتب إليه مروان ألا تعرض لعبد الله ولا لابنيه فليسوا بأصحابنا الذين يقاتلونا أو يظهرون علينا.

قال أبو زيد وحدثنى عيسى بن عبد الله عن أبيه قال. أرسل مروان ابن محمد إلى عبد الله بن الحسن بعشرة آلاف دينار وقال له أكفف عنى إبنيك، وكتب إلى عامله بالمدينة إن استتر بثوب منك فلا تكشف عنه، وإن كان جالسا على جدار فلا ترفع رأسك إليه.

أخبرنى عيسى بن الحسين قال حدثنا أحمد بن الحرث عن المدائنى قال بلغنى أن عبد الملك بن عقبة اجتاز بحاج مشرف على الطريق ومحمد بن عبدالله ابن الحسن مطلع من خوخة فقال رجل لابن عطيه ارفع رأسك فانظر إلى محمد بن عبدالله بن الحسن فطاطأ رأسه وقال للرجل إن أمير المؤمنين — يعنى مروان بن محمد — قال لى إن أستتر منك بثوب فلا تكشف عنه، وإن كان

جالسا على جــدار فلا ترفع رأسك إليه ومضى[١]).

وجاء فيه أيضاً (حدثنى حكيم بن يحيى قال كان الحسين بن الحسين بن يزيد شيخ بنى هاشم وذا قعددهم وكانت الأموال تحمل إليه من الآفاق. قال فاجتمعنا يوما عند جدك أبى الحسن محمد بن أحمد الأصفهانى وجماعة من الطالبين فيهم الحسين بن الحسين بن يزيد بن على، ومحمد بن على بن حمزه العلوى العباسى، وأبو هاشم داوود بن القاسم الجعفرى. فقال جدك للحسين يا أبا عبد الله أنت أقعد ولد رسول الله صلى الله عليه وآله كلهم، وأبو هاشم أقعد ولد جعفر، وأنتما شيخا آل رسول الله صلى الله عليه وآله وجعل يدعو لهما بالبقاء. قال فنفس محمد بن على بن حمزة ذلك عليهما. فقال له يا أبا الحسن وما ينفعهما من القعدد فى هذا الزمان ولو طلبا عليه من أهل العصر باقة بقل ما أعطياها. قال فغضب الحسين بن الحسين من ذلك ثم قال لى. تقول هـذا. فو الله ما أحب أن نسبى أبعد مما هو بأب واحد يبعدنى من رسول الله صلى الله عليه وآله وأن الدنيا بحذافيرها لى[٢]).

وجاء فى المستجاد (حدث القاضى أبو القاسم على بن الحسين بن على التنوخى فى كتاب الفرج بعد الشدة. حدثنى أبو الفرج على بن الحسين الأصبهانى قال كان محمد بن زيد العلوى الداعى بطبرستان إذا افتتح الخراج نظر مافى بيت المال من خراج السنة التى قبلها وفرقه فى قبائل قريش على دعوتهم وفى الأنصار وفى الفقهاء وأهل القرآن وسائر طبقات الناس إلى أن يفرق جميع مابقى. فجلس سنة من السنين يفرق مثل ذلك على عادته فلما بدأ ببنى عبد مناف وقد فرغ من بنى هاشم دعا سائر بنى عبد مناف فقام إليه رجل

---

(١) ٢٥٨، ٢٥٩ • مقاتل الطالبيين « مصر » سنة ١٩٤٩ •
(٢) ١٤٩ — ١٥٢ المستجاد للتنوخى • دمشق سنة ١٩٤٦ •

فقال . من أى بنى عبد مناف أنت ؟ قال من بنى أمية . قال من أيهم أنت ؟ فسكت . قال لعلك من ولد يزيد ؟ قال . نعم . قال بئس الاختيار اخترت لنفسك من قصدك بلداً ولاية آل أبى طالب وعندك ثأرهم فى سيدهم ، وقد كانت لك مندوحة عنهم بالشام والعراق عند من يتولى جدك ويحب برك فإن كنت جئت عن جهل منك بهذا فما يكون بعد جهلك جهل . وإن كنت جئت مستهزئا بهم فقد خاطرت بنفسك . فنظر إليه العلويون نظراً شديداً فصاح بهم محمد وقال . كفوا عافاكم الله كأنكم تظنون أن فى قتل هذا دركا أو ثأراً للحسين بن على . وأى جرم لهذا . إن الله تعالى قد حرم أن تطالب نفس بغير ما اكتسبت ، والله لا يعرض له أحد إلا أقدته به ، واسمعوا حديثا أحدثكم به يكون لكم قدوة فيما تستأنفون . حدثنى أبى عن أبيه قال[1]) .

ويمضى فى سرد قصة أخرى هى التى جعلها دستوره فى هذه القصة الماضية وهى قصة تثبت حقاً هذه الصلة التى كان ينشدها الأمويون والعلويون فى هذه الأيام .

وواضح أن النصين الأولين يثبتان رأى الأمويين فى العلويين وما كان بينهم وبينهم من حسن الصلة والجوار .

وواضح أن النص الأخير ما ذكر منه وما لم يذكر يثبت ما كان يعد له الطالبيون أنفسهم من العفو عن بنى أمية ونسيان ما كان .

هذه الحالات فعلت فعلها فى نفس أبى الفرج فكان منه تشيع وكان منه تأليف فى مقاتل الطالبيين الأمر الذى سنراه واضحاً فى الباب الثانى إن شاء الله .

---

(١) ١٤٩ — ١٥٢ المستجاد للتنوخى . دمشق سنة ١٩٤٦ .

أعتقد أنا وضعنا أيدينا على البذور الأولى التى كانت منها ظواهر سياسية معينة من حياة أبى الفرج ، وأنا نستطيع أن نترك ذلك الجو السياسى لأسرة الأب وننتقل إلى مافى الأسرة من ظواهر ثقافية أثرت هى الأخرى بدورها فى حياة أبى الفرج حيث أوجدت فيه ميلا خاصاً نحو رواية التاريخ والأخبار .

والأشخاص الذين يمكن أن نعتمد عليهم فى الكشف عن هذا الميل ، وفى بيانه وكيف وجد فى أبى الفرج هم . محمد بن أحمد الأصبهانى جده ، عبد العزيز بن أحمد عم أبيه ، الحسن بن محمد الأصبهانى عمه ، أبو عبد الله أحمد بن الحسن الأصبهانى ابن عمه ، الحسين بن محمد الأصبهانى أبوه .

نعم نحن نعلم أن هناك أحمد بن الهيثم جد أبيه ونعلم أنه كان من المقيمين بسر من رأى وكان من المعاصرين لإسحاق بن إبراهيم الموصلى ، لكنه لن يفيدنا فى هذا الموطن لأنه ليس من رواة الأخبار[١] .

وكتب التراجم التى استطعنا الوقوف عليها تهمل أمر هؤلاء جميعاً - اللهم إلا الحسن بن محمد فقد ورد له ذكر فى كتاب تاريخ بغداد إذ قال عنه الخطيب « الحسن بن محمد بن أحمد بن الهيثم الأموى عم أبى الفرج على بن الحسين المعروف بالأصبهانى حدث عن عمر بن شبه وعبد الله بن أبى سعد الوراق روى عنه ابن أخيه أبو الفرج[٢] » .

كما نجد له ولعمه عبد العزيز بن أحمد ذكرا فى كتاب الجمهرة حيث يذكر ابن حزم أنهما كانا من كبار الكتاب بسر من رأى أيام المتوكل(٣) .

---

(١) ٢ ، ٢١/٣ أغانى ساسى .
(٢) ٧/٤١٧ تاريخ بغداد .
(٣) ٩٩/٩٨ جمهرة النسب لابن حزم .

غير أن هذا كله لا يكشف عن شي من حقيقة هاتين الشخصيتين وما لهما من ميول ثقافية واتجاهات فنية وأدبية .

إن سبيلنا إلى كل هؤلاء ليست إلا ما رواه أبو الفرج نفسه من أخبار .

وأوضح هذه الشخصيات من حيث الأخبار التى تدور حولها لا التى تؤخذ عنها شخصية أبى الحسن محمد بن أحمد الأصبهانى جد أبى الفرج فهو رجل كان يعيش حتما فى الربعين الثانى والثالث من القرن الثالث الهجرى وذلك لأن أبا الفرج يروى لنا عن طريق عمه لجده أحداثا وقعت له مع محمد بن عبد الملك الزيات وإبراهيم بن العباس الصولى ، كما يروى لنا أحداثا وقعت له مع الوزير عبيد الله بن سليمان فى خلافة المعتضد .

جاء فى الأغانى «أخبرنى عمى قال حدثنى أبى قال سمعت محمد بن عبد الملك الزيات يقول أشعر الناس طرا الذى يقول :

وما أبالى وخير القول أصدقه
حقنت لى ماء وجهى أو حقنت دمى

فأحببت أن استثبت إبراهيم بن العباس ، وكان فى نفسى أعلم من محمد وآدب ، فجلست إليه وكنت أجرى عنده مجرى الولد فقلت له من أشعر أهل زماننا هذا فقال الذى يقول :

مطر أبوك أبو أهلة وائل ملأ البسيطة عدة وعديدا
نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عمودا
ورثوا الأبوة والحظوظ فأصبحوا جمعوا جدوداً فى العلى وجدودا

فاتفقا على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه[1] .

---

(١) ١٥/٩٧ ، ٩٦ أغانى (ساسى) .

وجاء فيه « حدثنى عمى عن جدى رحمهما الله قال . قال عبيد الله بن سليمان وكان يأنس بى أنسا شديداً لقديم الصحبة وائتلاف المنشأ . دعانى المعتضد يوماً فقال ألا تعاتب بدرا على ما لا يزال يستعمله من التخرق فى النفقات والإنابات والزيادات والصلات وجعل يؤكد القول على فى ذلك فلم أخرج عن حضرته حتى دخل إليه بدر فجعل يستأمره فى إطلاقات مسرفة ونفقات واسعة وصلات سيئة وهو يأذن له فى ذلك كله فلما خرج رأى فى وجهى إنكاراً لما فعله بعد ما جرى بينى وبينه فقال لى يا عبيد الله قد عرفت ما فى نفسك وأنا وإياه كما قال الشاعر :

فى وجهه شافع يمحو إساءته … من القلوب مطاع حيثما شفعا
مستقبل بالذى يهوى وإن كثرت … منه الإساءة مغفور لما صنعا[١]

ونحن نعلم أن محمد بن عبد الملك الزيات قد توفى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول[٢] . وأن عبيد الله بن سليمان ولى الوزارة فى أيام المعتضد للمرة الثانية وكان ذلك سنة تسع وسبعين ومائتين[٣] . وليس من شك فى أن محمد بن أحمد الأصبهانى قد سمع هذا الشعر من محمد بن عبد الملك الزيات وهو بحيث يسمع ويعى ويحفظ ويوازن بين الرجال ـ ولن يكون ذلك إلا إذا كان قد جاوز العاشرة على أقل تقدير .

ولقد ولد محمد بن أحمد الأصبهانى فيما نعتقد حوالى سنة عشرين ومائتين .

---

(١) ٣٢ ، ٩/٣٣ أغانى ٠ ساسى
(٢) ٧/١٤ ابن الأثير ، ٢/٧٨ شذرات الذهب
(٣) ٧/١٦٣ ابن الأثير ٠ ط سنة ١٢٩٠ هـ

وجد أبي الفرج كان يعيش بسر من رأى موطن إقامة محمد بن عبدالملك وإبراهيم ابن العباس وعبيد الله بن سليمان ووالده أحمد بن الهيثم .

وهو رجل له مقامه فى المجتمع فيقوم من إبراهيم بن العباس وهو من هو مقام الولد . ويأنس به أنساً شديداً وزير المعتضد عبيد الله بن سليمان . ويجتمع فى منزله علية القوم من الطالبيين والعلويين والعباسيين من أمثال الحسين بن الحسين بن زيد بن على وأبى هاشم داوود بن القاسم الجعفرى ومحمد بن على بن حمزة العلوى العباسى [١] .

ثم هذا الجد لا يروى عن غيره وإنما يروى ما شاهده بنفسه وهو من هذه الناحية راو أصيل ومروياته لها قيمتها الإخبارية ودلالتها التاريخية على ما يشاهده من أحداث .

ومحمد بن أحمد الأصبهانى له ميله الأدبى فهو رجل يسمع الشعر فيحفظه ويسمع الحكم الأدبى فيحرص عليه ويحاول أن يستوثق فيه ممن يعتقد أنه من كبار النقاد . وهو إلى ذلك رجل له رأيه الخاص فى النقاد فيفاضل بين كبيرين من كتاب الدولة ويرى أن إبراهيم بن العباس أعلم وآدب من محمد بن عبد الملك الزيات .

هذه هى الجوانب التى نلمحها من بين ثنايا السطور . وهى جوانب لا تكشف عن صورة هذه الشخصية ويكفى أنها توضح بعض المعالم وتهدى إلى أول الطريق .

وإذا ما تركنا شخصية الجد إلى شخصية الأب خيل إلينا انا نعمل فى ظلام ذلك لأنها شخصية غامضة مبهمة لا تكشف عنها النصوص فى شىء .

---

(١) ٩٦٨ مقاتل الطالبيين « مصر سنة ١٩٤٩ »

ولا تثبت لنا أنها شخصية راو من رواة الأخبار ، وراو لا نعلم عنه أكثر من اسمه ولا أكثر من الخبر بأنه من رواة الأخبار .

ورواية أبى الفرج لأبيه نادرة جداً حتى لتكاد أن تكون فى حكم العدم ويكفى أن تعلم أنا لم نقف فى ذلك إلا على خبر واحد وأن هذا الخبر قد شاركه فى روايته شخص آخر هو الحسن بن على[1] .

غير أن هذه الندرة التى تعتبر من حيث العدد فى حكم العدم لا تنفى أثر ذلك الآب فى وجود الميل التاريخى عند أبى الفرج بحال من الأحوال ، ذلك لأنه لا ارتباط مطلقا بين الكثرة والقلة والتأثير وعدم التأثير .

إن قلة المروبات تعلل بأكثر من سبب فقد تكون لأن الحسين بن محمد قد مات مبكراً ومات بعد أن أوجد الميل التاريخى فى نفس ابنه وعمل على تنميته إذ كان الرجل لا يزال حيا حينما بلغ ابنه من العمر ست عشرة سنة ولم يكن بعد قد فارق الحياة .

وقد تكون لأن أبا الفرج يحب العلو فى السند وأنه من هنا كان يأخذ عن الشيوخ الذين كان يأخذ عنهم والده وتلك هى الحالة التى يثبتها أخذهما سوياً عن أبى الفياض سوار بن أبى شراعة[2] .

وقد تكون غير هذين لكنها على كل حال لا تنفى التأثير لأنه يكفى أن يهتم الرجل بالتاريخ وبرواية الأخبار حتى يكون له أثره فى نفس ابنه الذى يعيش معه ويجعل منه مثله الأعلى فى بعض الأحيان .

لقد كان الحسين بن محمد من رواة الأخبار وكان ابنه عليا من رواة الأخبار وهذا وحده كاف فى إثبات الأثر وفى إيجاد الميل وليس من اللازم أن يأخذ عنه لنجعل هذا الأخذ هو الدليل الوحيد على ما ورث الرجل ابنه من ميول نحو التاريخ والأخبار .

---

(١) ١٢/٥ أغانى ساسى . (٢) ٢٠/٣٥ أغانى . ساسى .

ويأتى مع هذا فى الغموض والخفاء وفى قلة المرويات أبو عبد الله أحمد ابن الحسن بن محمد الأصبهانى ابن عم أبى الفرج . فشخصيته غامضة والمرويات التى أخذت عنه لا تتجاوز الخبرين فيما نعلم[١] . ولا نستطيع أن نتمسك فى هذا المقام بالقول بأن أحمد هذا كان واحداً من الذين أوجدوا الميل التاريخى فى نفس أبى الفرج لأنه كان فيما نعتقد أحد الأقران . ولعل هذا هو السر فى قلة المرويات التى يأخذها أبو الفرج عنه . والشىء الوحيد الذى نحرص عليه هنا أن أحمد بن الحسن الأصفهانى واحد من الأدلة التى تثبت أن الميل إلى رواية التاريخ والأخبار صفة يتوارثها فى هذه العائلة الأبناء عن الآباء .

ويبقى من هذه العائلة رجلان . أحدهما عبد العزيز بن أحمد والثانى الحسن بن محمد بن أحمد . وهما بحق من فضلاء الرواة الذين اعتمد عليهم أبو الفرج فى مروياته . ولا يذكر أبو الفرج الأول منهما إلا ويذكر معه نوع القرابة وهى أنه عم أبيه .

وعبد العزيز بن أحمد طريق أبى الفرج إلى شيوخ لهم خطرهم فى ميدان الرواية التاريخية ورواية الأخبار فهو طريقه إلى الرياشى[٢] وأحمد بن يحي ثعلب[٣] وأحمد بن الحرث الخراز[٤] . والزبير بن بكار[٥].

وأبو الفرج يروى عنه أحياناً بعض مشاهداته التى رآها بعينه أو سمعها بأذنه وذلك من أمثال ما شاهده من أحوال أبى العبر[٦] . وما سمعه من الحامض[٧] .

---

(١) ١٥/١٠٢ ، ١٦/١٥١ . أغانى ساسى .
(٢) ٧/٣٧ ، ١٩/٤ المصدر السابق .
(٣) ٣/١٨٤ المصدر السابق (٤) ٨/١٤٩ المصدر السابق
(٥) ٨/٩٠ ، ١٥/٣٢ المصدر السابق
(٦) ٢٠/٩٠١ المصدر السابق (٧) ٢٠/٢٠ المصدر السابق

وعبد العزيز بن أحمد كان يقيم بسر من رأى مع والده أحمد بن الهيثم أو مع أخيه محمد بن أحمد . وهذا هو الذى يدل عايه ما ذكره ابن حزم من أنه كان من كبار الكتاب بسر من رأى أيام المتوكل . ويدل عليه أيضاً ما ذكره من حالات أبى العبر ، وما رواه مما سمعه من الحامض .

ومرويات أبى الفرج عن عم أبيه قليلة إذا قيست بتلك التى رواها عن عمه . والأخبار التى رواها عن عم أبيه لا تتجاوز العشرة فيما نعلم ، ويظهر أن هذه القلة إنما ترجع إلى أن المدة التى اشتغل فيها أبو الفرج برواية الأخبار ـ وكان عم أبيه هذا لايزال حياً ـ لم تكن طويلة بالقدر الذى يمكنه من الأخذ الكثير عنه ، أو إلى أن أبا الفرج كان يأخذ أيضا عن أقران عم أبيه من أمثال محمد بن جرير الطبرى ، ومحمد بن الحسين الكندى ، وهاشم بن محمد الخزاعى ، ومحمد بن العباس اليزيدى ، والطوسى ، وغيرهم ممن كان الرجل يأخذ معهم عن الشيوخ السابق ذكرهم من أمثال الرياشى والزبير بن بكار[1] ومن هنا كان يكتفى بالأخذ عن هؤلاء ويهمل الأخذ عن عم أبيه — لا سيما وقد كان عبد العزيز بسر من رأى وأبو الفرج ببغداد .

ولا يظهر لنا من ميول هذا الرجل الأدبية أو صفاته الخلقية أو الخلقية شىء . ومن هنا نتركه إلى شيخ أبى الفرج من هذه العائلة وهو الحسن بن محمد الأصبهانى .

والحسن بن محمد أكبر أبناء محمد بن أحمد الأصبهانى فيما يظهر فقد كان الرجل يكنى بأبى الحسن[2] . وقد ولد الحسن حوالى سنة أربعين ومائتين وذلك هو الواضح من تلك الأخبار التى يرويها أبو الفرج عن عمه والتى

---

(١) راجع ٩٠/٨ ، ٩١/٤ أغانى ٠ ساسى

(٢) ٦٩٨ مقاتل الطالبيين ٠ مصر

يقص فيها ما شاهده من أحوال أبي العبر فقد توفى أبو العبر سنة خمسين ومائتين[١] . وقد كان الحسن بن محمد فى سن تأذن له بالتحمل .

وولد الحسن بسر من رأى حيث كان منزل الأسرة وحيث كان يقيم أبوه محمد بن أحمد الأصبهانى وعمه عبد العزيز بن أحمد . ثم هذا هو الواضح من حديثه عن مشاهداته التى رواها لنا عنه أبو الفرج وهى المشاهدات التى شاهدها وهو صغير[٢] . وقد عمر الحسن إلى ما بعد الثلاثمائة حيث التقى به ابن أخيه أبو الفرج وروى عنه الكثير من الأخبار . وحدود الثلاثمائة هى السن التى بدأ فيها أبو الفرج يطلب العلم ويسجل الأخبار[٣] .

والحسن بن محمد الأصفهانى أكثر أفراد هذه العائلة عدد مرويات . فالأخبار التى رواها عنه أبو الفرج كثيرة إلى الحد الذى يسمح لنا بالقول بأنه كان واحداً من شيوخ أبى الفرج . ولعل الحسن هذا يفوق الكثيرين ممن عدهم المؤرخون من شيوخ أبى الفرج من أمثال ابن دريد وأبى خليفه وابراهيم بن عرفه وأبى بكر الأنبارى وعلى بن سليمان الأخفش[٤] من حيث عدد المرويات .

وأثر الحسن فى كتاب الأغانى لا سيما فى الفقرات التى تروى فيها أخبار الشعر والشعراء من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى أن نقف لنثبتها . فاسمه يرد فى كل ترجمة تقريبا لكثير من الشعراء ، كما يرد فى مواطن كثيرة من ترجمة أبى الفرج للمغنين وبخاصة أولئك الذين اتصلوا بالقصور فى سر من رأى .

---

(١) ١١٧ الفهرست لابن النديم

(٢) ٢٠/٩١ أغانى . ساسى

(٣) ٤/٢٢١ لسان الميزان ، ٢/٢٣٣ ميزان الاعتدال

(٤) ١٣/٩٥ معجم الأدباء رفاعى .

ومن المقطوع به عندنا أن هناك صفحات كثيرة من كتاب الأغانى قد رويت بجملتها عن الحسن بن محمد الأصبهانى عم أبي الفرج[١] وأن هناك شعراء قد رويت أكثر أخبارهم عن الحسن والقليل الباقى عن غيره من شيوخ الرواة[٢].

وللحسن بصر بالشعر لاسيما من حيث المعانى أو من حيث أخذ الشعراء بعضهم عن بعض . يقول أبو الفرج أنشدت عمى رحمه الله أبياتا لأبن دريد يمدح رجلا من أهل البصرة :

يا من يقبل كف كل مخرق … هذا ابن يحيي ليس بالمخراق

قبل أنامله فلسن أناملا … لكنهن مفاتح الأرزاق

فقال يا بنى هذا سرقه وابن الرومى جميعاً من ابراهيم بن العباس . قال ابراهيم بن العباس يمدح الفضل بن سهل :

لفضل بن سهل يد … تقاصر عنها الأمل

فباطنها للندى … وظاهرها للقبل

وبسطتها للغنى … وسطوتها للاجل

وسرقه ابن الرومى فقال :

أصبحت بين خصاصة ومذلة … والحد بينهما يموت هزيلا

فأمدد إلى يدا تعود بطنها … بذل الندى وظهورها التقبيلا[٢]

وللحسن هوى مع ابراهيم بن العباس ، ولعل مبعثه تلك العاطفة التى كان

---

(١) ١٠٦ ـ ٩/١١٢ ، ١٧ ـ ١٢/٢٤ أغانى .

(٢) راجع أخبار الصمة القشيرى ، عبد الله بن العباس الربيص ، محمد بن بشير ، وعلى ابن الجهم ، ، ومنصور النمرى .

(٣) ٩/٢٨ أغانى . ساسى .

يكنها محمد بن أحمد الأصبهانى والد الحسن وجد أبى الفرج لابراهيم ، فقد كان يراه كما سبق أن ذكرنا آدب وأعلم من محمد بن عبد الملك الزيات . وهذه العاطفة أو هذا الهوى يظهر من النص السابق كما يظهر من هذا الخبر الذى يقص فيه الحسن قصة هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات وابن برد الخيار .
وهو « اخبرنى عمى قال اجتمعت أنا وهارون بن محمد بن عبد الملك وابن برد الخيار فى مجلس عبيدالله بن سليمان قبل وفاته فجعل هارون ينشد من أشعار أبيه محاسنها ويفضلها ويقدمها، فقال له ابن برد الخيار إن كان لأبيك مثل قول ابراهيم بن العباس :

أسد ضار إذا هيجته وأب بر إذا ماقـــدرا
يعرف الأبعد إن أثرى ولا يعرف الأدنى إذا ما افتقرا

أو مثل قوله :

تلج السنون بيوتهم وترى لهم عن جار بيتهم أزورار مناكب
وتراهم بسيوفهم وشفارهم مستشرفين لراغب أو راهب
حامين أو قارين حيث لقيتهم نهب العفاة ونهزة للراغب

فاذكروا فخر به وإلا فاقلل من الافتخار والتطاول بما لاطائل فيه فخجل هارون[1] .

فاهتمام الحسن بشعر ابراهيم وروايته لما فيه من مزايا ولما له من . فضل لا تفسر إلا بذلك الهوى الذى عرف للأب قبل الابن .

والحسن من أبناء سر من رأى الذين زاروا بغداد طلبا للعلم ، وترجم له الخطيب فيمن ترجم لهم من علمائها وزائريها[2] . وهى ترجمة قصيرة كما سبق

---

(١) ٩/٣١ المصدر السابق .
(٢) ٧/٤١٧ تاريخ بغداد .

أن ذكرنا أول هذا الفصل . ثم هو من الكتاب ومن كبار الكتاب كما يذكر ابن حزم فى جمهرة النسب وكما سبق أن ذكرنا أيضا .

والشيوخ الذين يأخذ عنهم الحسن كثيرون - وإن يكن الكثير من مروياته عن شيوخ لا نعرف من أمرهم شيئا أو لا نعرف عنهم إلا جملة قد تكون غامضة مبهمة من أمثال محمد بن سعد الكرانى . وعبد الله بن أبى سعد الوراق . ومحمد بن القاسم بن مهرويه .

ويأخذ الحسن عن شيوخ بغداد وشيوخ سر من رأى وإن كان أثر الأخيرة أوضح وأبين من أثر الأولى ، لا بالنسبة إلى عدد المرويات فحسب ، بل بالنسبة إلى الشيوخ وإلى الأحداث ، فهو يروى عن هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات ويروى عن أبى العيناء وعن ابن برد الخيار وعن محمد ابن داود الجراح وعن عمر بن شبه وكل هؤلاء أقاموا بسر من رأى ، وتوفى الكثيرون منهم فيها ، ومعظم الأحداث التى يرويها عنهم — إن كانوا من مشاهديها — قد وقعت بسر من رأى . ولعله لم يلق الثلاثة الأولين فى غيرها من المدن .

هؤلاء هم النفر الذين وقفنا على شىء من أخبارهم وكان لهم أثر فى حياة أبى الفرج من تلك الأسرة التى ينتسب إليها من جهة أبيه . ولعلنا أن نكون ، بعرض ما وصلنا من تاريخهم ، قد وفقنا إلى بيان شىء من الجو الذى كانت تعيش فيه هذه الأسرة — ولا سيما الجو السياسى والجو الثقافى . واعتقد أنا قد وصلنا من ذلك إلى ما يمكن الوصول إليه — ومن هنا نستبيح لأنفسنا الانتقال إلى الأسرة الثانية التى أثرت فى أبى الفرج وهى أسرة أمه ، فلعل هذا الانتقال أن يوضح بعض الأمور ويفسر بعض الظاهرات .

(ب) وينتسب أبو الفرج من جهة أمه إلى آل ثوابه . فجده لأمه هو يحيي بن ثوابه[1] . وينفرد أبو الفرج بذكر هذه الحقيقة فلم نقع عليها فى غير كتاب الأغانى — حتى لقد خيل إلينا أنه لم يلتفت أحد من قبل إلى هذه المسألة .

ولولا أن أبا الفرج نفسه هو الذى يذكرها ، ولولا أنه كررها فى كثير من المواطن حتى أنه لم يذكر يحيي بن محمد بن ثوابه حين يذكر لنا أنه ينسخ من كتابه إلا وينص على أنه جده لأمه[2] . لولا كل هذا لكان لنا من هذه الحقيقه موقف آخر ولعله أن يكون موقف الإنكار .

والحديث عن آل ثوابه يتطلب شيئاً غير قليل من الدقة والحذر — ذلك لأن الصلة بين يحيي بن محمد بن ثوابه وبين شخصين آخرين باسمه هما أحمد بن محمد بن ثوابه وجعفر بن محمد بن ثوابه غير قائمة فى الكتب أو غير منصوص عليها من الأدباء والمؤرخين ، ولن نستثنى من ذلك أبا الفرج نفسه ، فهو أيضا لم يذكر لنا شيئا عن هذه الصلة التى كان من الممكن أن توضح لنا المسألة فيما يخص أسرة أمه حتى تربط بين يحيي وبين الأخوين أحمد وجعفر .

على أن هذا الحذر وتلك الدقة قد يهونان لولا تلك المسألة التى تعقد الأمور وتزيدها غموضا وإبهاما ، وهى أن إسم يحيي بن محمد بن ثوابه لم يرد فيما نعلم فى غير كتاب الأغانى ، فلم يذكره ذاكر ممن قرأنا كتبهم ورجعنا إلى أخبارهم ممن تناول آل ثوابه بالتاريخ .

إن هؤلاء الثلاثة يحيي بن محمد بن ثوايه وأحمد بن محمد بن ثوابه وجعفر بن محمد بن ثوايه كانوا من الكتاب ، وكانوا فى عصر واحد وفى زمن واحد ،

---

(١) ١٠/١٤٩ ، ١٣/٣٢ ، ١٥/١٠٦ . أغانى . ساسى

(٢) راجع الى جانب ما تقدم ٨/٧٢ ، ١٣/٨ ، ١٧/١٢١ . المصدر السابق .

وتوفوا جميعا فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى .

كان أحمد من كتاب الديوان فى أيام المهتدى وله مع الخليفة ومع وزيره سليمان بن وهب أحداث يروى أخبارها أبو الفرج فى كتاب الأغانى [١] . ثم إنه كان واحدا من أولئك النفر الذين أباح المهتدى دماءهم : الحسن بن مخلد وسليمان بن وهب وأحمد بن ثوابه . وذلك سنة ست وخمسين ومائتين [٢] . وقد توفى أحمد هذا سنة سبع وسبعين ومائتين [٣] . أو سنة ثلاث وسبعين ومائتين [٤] على خلاف فى ذلك بين الصولى وابن النديم .

وكان جعفر متوليا لديوان الرسائل فى أيام عبيد الله بن سليمان [٥] وله إلى عبيد الله هذا رقعة هى السبب فى جعله واحداً من كتاب الديوان ، وهى رقعة روى أكثرها التنوخى فى كتاب نشوار المحاضرة [٦] . وقد توفى جعفر ابن محمد بن ثوابه بالرى سنة أربع وثمانين ومائتين [٧] .

أما يحيى بن محمد بن ثوابه فقد كان جد أبى الفرج لأمه وإذا كان أبو الفرج قد ولد سنة أربع وثمانين ومائتين فليس من يعارض فى أنه كان من رجال القرن الثالث الهجرى . ثم كان من الكتاب ذلك هو الأمر الذى يدل عليه ذلك الخبر الذى يرويه عنه ابن مهرويه ويرويه عن ابن مهرويه لأبى الفرج شيخه الحسن بن على . وهذا هو الخبر . « أخبرنى الحسن بن على قال حدثنا

---

(١) ٦٩/٢٠ أغانى ساسى
(٢) ص ١٨٣٢ المجلد الثالث — ٣ الطبرى ٠ ط أوربا
(٣) ١٨٨ الفهرست لابن النديم ٠ مصر
(٤) ١٤٤/٤ معجم لأدباء لياقوت ٠ ط رفاعى
(٥) ١٤٦/٤ المصدر السابق
(٦) ٨٣ ، ٨٤/٨ نشوار المحاضرة ٠ دمشق
(٧) لوحة ٦٨ الوافى بالوفيات ٠ مصورة رقم ١٢١٩ تاريخ ٠ دار الكتب

ابن مهرويه قال أبو على يحيي بن محمد بن ثوابه الكاتب قال حدثنى دعبل قال كان لى صديق ... [١] » .

ولسنا ندرى متى وأين توفى يحيي بن محمد بن ثوابه على التحقيق . ولكننا نستطيع أن نطمئن إلى أنه قد توفى قبل أن يبلغ أبو الفرج سناً تؤذن له بالتحمل وإلا لأخذ عنه مباشرة ولم ينسخ عن كتابه . ثم إنا نعلم أن أبا الفرج قد أخذ عن معاصرى جده لأمه مباشرة ، وروى عن نديمه أبى القاسم الشيربابكى بعض الأخبار [٢] .

وقد كان يحيي يقيم بسر من رأى فى الغالب — هذا هو الأمر الذى يشعر به إصهاره لأسرة محمد بن أحمد الأصبهانى المقيمة بسر من رأى فى القرن الثالث . كما يشعر به حديثه إلى بن مهرويه . وقد كان ابن مهرويه من الرواة الذين روى عنهم كثيراً الحسن بن محمد عم أبى الفرج والمقيم بسر من رأى أيضا .

هذه الملابسات تدفعنا إلى الإحساس بأن يحيي بن محمد بن ثوابه كان أخا لأحمد بن محمد بن ثوابه - وإن يكن الإحساس الذى لم يستقر بعد فى فكرة أو فى رأى .

هناك شىء آخر قد يقوى هذا الإحساس ويدفع به خطوة إلى الأمام هو تلك العاطفة التى نلمحها من بين ثنايا السطور . وهى العاطفة التى يكنها أبو الفرج لأحمد بن محمد بن ثوابه ولابنه العباس . فأبو الفرج يروى من أخبار آل ثوابه مايزين ويسكت عما يشين ، مع أن مما يسكت عنه ماكان من

---

(١) ١٨/٤٣ . أغانى . ساسى

(٢) ١٧/٢١ المصدر السابق

جنس ما يعنى به لأنها الأقاصيص المرحة والنصوص الشعرية العذبة التى تصدر عن قوم لهم فى الفن قدم ثابتة يعرفها لهم أبو الفرج نفسه .

يروى أبو الفرج عن طريق العباس بن أحمد بن ثوابه أخبار البحترى . مع أحمد بن محمد بن ثوابه وكيف أن الشاعر قد بدأ بالهجاء ثم انتهى إلى المدح[1] . ولكنه لا يحاول أن يذكر لنا شيئا من شعر البحترى فى آل ثوابه لا عن طريق العباس ولا عن طريق غيره من الرواة ، وليس ذلك فيما نعتقد إلا لأن هذا الشعر يسىء إلى أبى الفرج كما يسىء إلى آل ثوابه فقد ذكرهم البحترى فى هجائه بتلك الصناعة التى كان يزاولها جدهم الأكبر وهى الحجامة[2] . وذكرهم بها فى شعر جميل رقيق[3] .

ولعل هذا الهجاء لآل ثوابه هو الذى دفع أبا الفرج إلى أن ينقد البحترى من حيث مذهبه فى الهجاء ويحكم عليه هذا الحكم القاسى وهو أنه لا يجيد هذا الفن فى كثير . جاء فى الأغانى بصدد حديثه عن البحترى ما يلى (. . . شاعر فاضل فصيح حسن المذهب نقى الكلام كان مشايخنا رحمة الله عليهم يختمون به الشعراء وله تصرف حسن فاضل نقى فى ضروب الشعر سوى الهجاء فإن بضاعته فيه نزرة وجيده منه قليل وإن كان ابنه أبو الغوث يزعم أن السبب فى قلة بضاعته فى هذا الفن أنه لما حضرته الوفاة دعا به وقال له أجمع كل شىء قلته فى الهجاء ففعل فأمره بإحراقه ثم قال له يابنى هذا شىء قلته فى وقت فشفيت به غيظى وكافأت به قبيحا فعل بى وقد انقضى إربى فى ذلك وإن بقى روى وللناس أعقاب يورثونهم العداوة والمودة وأخشى أن

---

(١) ١٢٧ ، ١٨/١٧١ المصدر السابق

(٢) ١٨٧ الفهرست لابن النديم

(٣) راجع ١١٨ ، ١١٩ ج ١ ، ١٠٨ ج ٢ ديوان البحترى . ط . الجوائب سنة ١٣٠٠ هـ .

يعود عليك من هذا شيء فى نفسك أو معاشك لا فائدة لك ولا لى فيه .
قال فعلمت أنه قد نصحنى وأشفق على فأحرقته . أخبرنى بذلك على بن سليمان الأخفش عن أبى الغوث . وهذا وإن كان كما قال أبو الغوث لا فائدة فيه لأن الذى وجدناه وبقى فى أيدى الناس من هجائه فأكثره ساقط مثل قوله فى ابن شيرزاد .

نفقت نفوق الحمار الذكر وبان ضراطك عنا فمر

ومثل قوله فى على بن الجهم :

ولو أعطاك ربك ما تمنى لزادك منه فى غلظ الأيور
علام طفقت تهجونى مليا بما لفقت من كذب وزور

وأشباه لهذه الأبيات ومثلها لا تشاكل طبعه ولا تليق بمذهبه ، وتنبيء بركاكتها وغثاثة ألفاظها عن قلة حظه فى الهجاء ...[1]) .

ولا يسكت أبو الفرج عن هجاء البحترى فقط لآل ثوابه وإنما يسكت أيضا عن كثير من الشعر الذى هجا به الشعراء آل ثوابه ، ويظهر أنهم كانوا هدفا حسنا للشعراء فى القرن الثالث ، فقد هجاهم أحمد بن على المادرائى وأبو سهل فى شعر فكه من أمثال الشعر الذى يعنى به أبو الفرج كما أطلق فيهم أبو العيناء لسانه[2] .

ولعله من الغريب أن يسكت أبو الفرج عن كل هذه الأشياء مع أن رواتها من الذين يأخذ عنهم فهى فى الغالب مروية عن أستاذه الصولى أو صديقه التنوخى أو كانت مما جاء به أستاذه جحظه فى أماليه .

---

(١) ١٦٧ ، ١٨/١٦٨ أغانى ساسى
(٢) ١٥٤ — ٤/١٦٠ معجم الأدباء « ط » رفاعى .

إن فى الأمر سراً وليس السر فيما نعتقد إلا هذه الصلة التى تربط بين أبى الفرج وآل ثوابه .

أما الصلة بين أبى الفرج والعباس بن ثوابه فيشهد بها ذلك اللقاء الذى كان يروى فيه أبو الفرج بعض الأخبار عن طريق العباس[١] . وتشهد به تلك الكتب التى كان يدفع بها العباس إلى أبى الفرج وبخاصة كتاب إسحاق الموصلى ذلك الذى يصور ما كان بين إسحاق وإبراهيم بن المهدى من نقاش[٢] .

أعتقد أن الأمر قد وضح بعض الشىء وأنا نستطيع أن ننتقل إلى الحديث عما ورث أبو الفرج عن هذه الأسرة من ميول ثقافية أو دينية .

لا نستطيع أن ندعى بأنه قد ورث عنها ميله إلى التاريخ وإلى رواية الأخبار وإن كنا نستطيع أن نقول إن أفراد هذه الأسرة يحيى بن محمد بن ثوابه وأبو الفضل العباس بن أحمد بن ثوابه قد نموا فيه ميله الموروث عن الأسرة الأولى أو أعانوه على الوقوف على بعض الأخبار . أعانه جده لأمه يحيى بن محمد بذلك الكتاب الذى ينسخ عنه أبو الفرج بعض الأخبار التى تدور حول إمرىء القيس والطرماح بن حكيم وابن قنبر وعبد الله بن الزبير ـ وهى الأخبار التى أشرنا إلى صفحاتها من كتاب الأغانى عند حديثنا عن انتساب أبى الفرج إلى آل ثوابه أول هذه الفقرة .

وأعانه أحمد بن محمد بن ثوابه بذلك الكتاب الذى ينسخ عنه بعض الأخبار الخاصة بعبد الله بن العباس الربيعى[٢] والخاصة بنويب ، ويذكر أبو الفرج فى صراحة أنه لم يقع له من أخبار هذا الشاعر اليمامى إلا ما وجده

---

(٢) ٩/٦٩ المصدر السابق .
(٣) ١٧/١٣٧ . أغانى ساسى

بخط أبى العباس بن ثوابه عن عبد الله بن شبيب فى أخبار رواها عنه[١] .

وأعانه أبو الفضل العباس بن أحمد بما سبق أن ذكرنا .

غير أن هـذا العون ليس بشىء إذا قيس إلى جانب ذلك الميل الذى نستطيع أن نعده بحق ميراث أبى الفرج عن هذه الأسرة ذلك هو ميله إلى التشيع وجريه على مذهب الزيدية الأمر الذى لم يقبله بعض المؤرخين فى يسر حتى لقد قال قائلهم ومن العجائب أن مروانيا يتشيع[٢] .

لقد كان آل ثوابه من النصارى[٣] . وحين أسلموا أصبحوا من غلاة الشيعة ومن الروافض[٤] . ولقد ترجم لهم صاحب أعيان الشيعة فيمن ترجم لهم من أعيان هذه الطائفة[٥] .

وهذا الميل الموروث عمل على تقويته وتنميته ، تلك الظروف السياسية التى كانت تحيط بأسرة الأب ، وهى الظروف التى دفعتها إلى مصادقة الطالبيين .

وتبقى بعد ذلك إشارة عابرة إلى أسرة يذكر لنا أبو الفرج أنه قد كان بينهم وبينه نسب ومصاهرة . جاء فى الأغانى « سمعت أبا على بن المرزبان يحدث أبى رحمه الله بهذا على سبيل المذاكرة وكانت بيننا وبين آل المرزبان مودة قديمة وصهر[٦] . وجاء أخبرنى عمى عن محمد بن المرزبان[٧] .

---

(١) ٢٠/٧٩ المصدر السابق
(٢) ٣/١٩ شذرات الذهب لابن العماد
(٣) ١٨٧ الفهرست لابن النديم
(٤) ٤/١٤٨ معجم الآدباء « ط » رفاعى
(٥) ٩/٣٣٠ أعياد الشيعة
(٦) ١٠/١٣٢ • أغانى • ساسى
(٧) ١٣/٢٣ المصدر السابق •

أعتقد أنا نستطيع الآن أن نترك هذا الجو إلى جو آخر له آثاره فى نفس أبى الفرج وفى حياته وهو الجو المدرسى . وقبل أن نقوم بهذا الترك أو بهذه النقلة نعود فنذكر القارىء مرة ثانية بتلك البذور التى ألقت بها الأسر فى حياة أبى الفرج . وهى :

١ — البذور السياسية : وهى تلك التى عملت على أن تباعد بين أبى الفرج وبين الاشتغال بالسياسة أو الاهتمام بها من قريب أو من بعيد ، كما عملت على الحيلولة بينه وبين أن يكون من المؤدبين أو الندماء فى قصور الخلفاء العباسيين . ثم هى التى دفعت به إلى مصادقة أعداء العباسيين من الطالبين أو العلويين .

٢ — البذور الثقافية : وهى التى أوجدت ثم نمت فى أبى الفرج ذلك الميل الشديد نحو رواية الأخبار أدبية وتاريخية ، ولعلها أن تكون هى التى دفعت به إلى الاشتغال بالكتابة .

٣ — البذور الدينية : وهى التى أوجدت فيه الميل نحو التشيع ولعلها التى دفعت به إلى أن يلج أبواب الثقافه الشيعية وهو صغير ، وإلى أن يؤلف أول عهده بإخراج الكتب فى مقاتل الطالبيين .

٤ — أمر أخير وهو شىء من الدعابة الخفيفة ومن الروح الفكهة المرحة التى نراها فى أبى العباس بن ثوابه والتى قد تشهد بها صلاته بالشاعر المرح سعيد بن حميد تلك الصلات التى يصورها هذا النص من نصوص الأغانى، أخبرنى على بن العباس بن أبى طلحة قال : حدثنى ابن أبى المدور قال : دخل سعيد بن حميد يوماً على أبى العباس بن ثوابه وكان أبو العباس

يعاتبه على الشغف بالغلمان المرد فرأى على رأسه غلاماً أمرد حسن الوجه عليه منطقه وثياب حسان . فقال له يا أبا العباس :

أزعمت أنك لا تلوط فقل لنا ... هذا المقرطق قائماً ما يصنع
شهدت ملاحته عليك بريبة ... وعلى المريب شواهد لا تدفع

فضحك أبو العباس وقال : خذه لا بورك لك فيه حتى نستريح من عتبك [1] .

---

(١) ٣/١٧ أغانى • ساسى

الفصل الثالث

الجو المدرسى

للأساتذة على الطلاب تأثيراتهم الخاصة التى لا يستطيع أن ينكرها منكر أو يجادل فيها مجادل ، وهى تأثيرات قد لا تقف عند حد تربية العادات الفكرية أو تنمية الملكات الذهنية وإنما تعدوه إلى ما هو أكثر عمقا وأبعد غوراً من حيث تكوين الشخصيات العلمية والفنية ، فتعدوه إلى خلق المثل ورسم الأهداف ، وإلى دفع الطلاب إلى الإيمان بها إيماناً ثابتا قويا لا تستطيع أن تزعزعه العواصف أو تأتى عليه الأعاصير ، وعند ذلك يصبح الأمر أمر العواطف الثابتة الصادقة التى تمكن أصحابها من السير إلى الأهداف بخطى ثابتة مستقرة وقلوب هادئة مطمئنة .

وأبو الفرج الأصبهانى طالب من أولئك الطلاب الذين استجابت أنفسهم لبعض الأساتذة فآمنوا بهم واطمأنوا إليهم ، ومضوا فى الحياة على هديهم وسننهم ، فهم يسلكون مسلكهم فى التأليف ، ويذهبون مذهبهم فى التدوين ، ويلجأون إليهم كلما همهم أمر ، أو أحاطت بهم أنواء وأعاصير .

وشيوخ أبى الفرج الذين روى عنهم أو جلس منهم مجلس الطالب من الشيوخ كثيرون ، وكثيرون إلى الحد الذى لا يسمح لنا بدرسهم على أنهم شيوخ قام بينهم وبين طلابهم نوع من التجاوب النفسى الذى يدفع إلى الاستهواء فالتقليد والمحاكاة إلا بضروب من المشقة وألوان من العنت والعناء . وليس ذلك إلا لأنا لن نستطيع الوقوف فى سهولة ويسر على أولئك الذين

نفثوا فى أبى الفرج من روحهم فضلا عن أن نقف على أسلوبهم فى التأثير ، وعلى مبلغ ما وصلوا إليه من نجاح .

إن هذه الكثرة الكاثرة من الشيوخ والرواة لم تؤثر ولا يمكن أن تؤثر فى أبى الفرج بمقدار واحد أو تصل من نفسه إلى نتائج واحدة ، وإنما تفاوتت شخصيات الشيوخ فتفاوتت تأثيراتهم من حيث القوة والضعف واستجابت نفس أبى الفرج إلى كل منهم بمقدار ، ولعل استجابتها إلى البعض كانت من قبيل النفور والفرار .

والوقوف على أولئك الذين طبعوا أبا الفرج بطابعهم الخاص وتركوا فى مؤلفاته آثارهم لا من حيث هم شيوخ يأخذ عنهم أو يروى ما يدور حولهم بل من حيث نفاذهم إلى نفسه ، واهتزاز عاطفته ذلك الإهتزاز الذى يدفع إلى الاستهواء ، فالتقليد والمحاكاة ، أمر يحتاج إلى شيء غير قليل من اليقظة . ذلك لأن الطريق إليه ملتوية وكثيرة المسارب بحيث يخشى الباحث على نفسه التيه والضلال . فنحن لا نستطيع مثلا أن نعتمد فى موقفنا هذا على تلك المرويات التى يحدد فيها المؤرخون شيوخ أبى الفرج ويذكرونهم لنا بأسمائهم ، لا لأن هذا التحديد ناقص فحسب ، ولا لأن هؤلاء لم يكونوا من جلة العلماء وكبار الشيوخ الذين يعقدون مجالس للإملاء يهرع إليها الطلاب وغير الطلاب ليسمعوا وليكتبوا فإنهم من ذلك يوفون بالغرض ، بل لأن هؤلاء المؤرخين كانوا يقيمون اختيارهم على وجهات نظر تختلف عن تلك التى يتطلبها الدرس الذى نريده ، فقد كان مؤرخو رجال الحديث يذكرون شيوخه المحدثين ، وذلك من أمثال هؤلاء الشيوخ الذين يذكرهم الخطيب البغدادى [1]

---

(١) ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد .

والذين يذكرهم الذهبي[١] . وقد كان مؤرخو رجال الأدب يذكرون شيوخه من اللغويين ورواة الأشعار والأخبار ، وذلك من أمثال هؤلاء الشيوخ الذين يذكرهم ياقوت فى معجم الأدباء[٢] . إذ لم يلحظ المؤرخون فى الاختيار لهؤلاء الأشخاص شروطا يقوم عليها الاستهواء وتتحقق بمقتضاها الدوافع التى يدفع إليها الاستهواء من تقليد ومحاكاة ، ولعل هذا هو الواضح البين لو تتبعنا ما قام بين بعضهم وبين أبى الفرج من صلات . فرجال الحديث مثلا أولئك الذين ذكرهم الذهبي والخطيب لم يؤثروا فيه آثاراً تذكر بدليل انصرافه عن رواية الحديث إلى رواية الأخبار . ثم إن بعضهم قد انتقل إلى رحمة ربه أول عهد أبى الفرج بطلب العلم ، وذلك من أمثال محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمى ومحمد بن جعفر القتات فقد توفى الأول فى ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين[٣] . وتوفى الثانى غرة جمادى الأولى سنة ثلاثمائة[٤] .

ورجال الأخبار واللغة أولئك الذين يذكرهم ياقوت لم يأخذ أبو الفرج عن بعضهم فى الغالب إلا عن طريق المكاتبات التى تدور بينهم ، وذلك هو ما حدث فيما بينه وبين أبى خليفة الفضل بن الحباب الجمحى فقد كان قاضيا بالبصرة وكان يجيز لأبى الفرج أن يروى عنه ما يكتب به إليه ، ولم يذهب أبو الفرج إلى البصرة إلا وهو كبير[٥] . وقد توفى الفضل وأبو الفرج فى

---

(١) لوحه ٢٧٥ ب تاريخ الاسلام الكبير للذهبى مصورة رقم ٤٢ تاريخ المجلد العشرون .

(٢) ١٣/٩٥ معجم الأدباء « ط » رفاعى .

(٣) ٢/٢٢٦ شذرات الذهب ، ٣/٩٧ ميزان الاعتدال .

(٤) ٢/١٢٩ تاريخ بغداد .

(٥) ٣٣/١١٥ معجم الأدباء رفاعى .

سن العشرين تقريبا إذ توفى سنة خمس وثلاثمائة [1] . ومن هنا لا نستطيع أن نقول إنه قد طبع أبا الفرج بطابعه الخاص . وقريب من هذا الموقف موقف أبى الفرج من ابن دريد فلم ينتقل ابن دريد إلى بغداد إلا بعد أن أسن وهرم ، ولم يلقه أبو الفرج إلا وقد بلغ من العمر مبلغا يجعله مستعصيا على التقليد ، فقد لقيه تقريبا بعد أن جاوز الثلاثين ، ومن هنا لا نجد له مرويات فى الكتاب الذى أخرجه أبو الفرج فى هـذه السن وهو مقاتل الطالبيين .

وعلى العموم فاختيار المؤرخين لهؤلاء الأشخاص من شيوخ أبى الفرج الذين روى عنهم لا يقدم لنا ما نريد فى هذا المقام .

ولا نستطيع أيضاً أن نجعل سبيلنا إلى هؤلاء الذين طبعوا أبا الفرج بطابعهم إحصاء عدد المرويات ، فيكون أولئك الذين روى عنهم أبو الفرج كثيراً هم أقوى الشيوخ تأثيراً وأكثرهم نفادا إلى عقله وقلبه ، فنحن نعلم أولا أن الإحصاء الدقيق لا سبيل إليه لأمر يسير هو أنا قد فقدنا معظم كتب أبى الفرج ، ونحن نعلم ثانيا أن الاحصاء العددى على فرض القدرة على تحقيقه لا يمكن أن يكون السبيل الصالحة لمثل هذا المطلب ، فكثرة المرويات وقلتها لا يجب أن ترتبط بقوة التأثير وضعفه ، ثم هى لا تتصل من قرب أو من بعد بتلك الأسس التى يقوم عليها التجاوب النفسى الذى يدفع إلى الاستهواء فالتقليد والمحاكاة ، فقد يأخذ الطالب عن الشيخ ويأخذ كثيرا ومع ذلك لا يترك الشيخ فى نفسه اى أثر فضلا عن أن يكون هذا الأثر موحيا — اللهم إلا إذا عددنا حشد المعلومات فى ذاكرة الطلاب من الآثار التى تقوم عليها أستاذية نفسية وتلمذه حقيقية .

---

(١) ١٦٥ الفهرست لابن النديم ، مصر .

ثم إن الأسلوب العلمى الذى يقوم على أساس النقل والرواية ليس بالأسلوب الصالح لتنمية الملكات وتكوين الشخصيات ، ولعل هذا هو الأمر الذى نراه كل يوم ، فأكثر الذين يعتمدون فى تربية الطلاب على النقل والإملاء والذين تقوم دروسهم على مجهودات يبذلها غيرهم لا تنمو ملكاتهم ولا تتكون شخصياتهم هم ، فضلا عن أن يبثوا هذه الأشياء أو يوجدوها فى أنفس الطلاب .

إن التجاوب النفسى إنما يقوم على أساس آخر هو الاحساس بقوة الشخصية ذلك الإحساس الذى يدفع الصغار إلى تقليد الكبار ، ويدفع الضعفاء إلى الأكبار للأقوياء ، ويدفع البشرية إلى الجرى خلف العباقرة والنابهين . ومن هنا قد يؤثر الأموات فى الأحياء . وقد يكون الأموات فى كثير من المواقف أقدر على قيادة الجماعة والأخذ بيدها من كثيرين من الأحياء . ولذا فإنا لن نعجب حين نرى أساتذة أبى الفرج الحقيقيين من بين الذاهبين لا من الأحياء الذين سعى إليهم للأخذ عنهم ولقيهم ذلك اللقاء المادى .

أعتقد أنا وصلنا إلى شعاع نستطيع أن نجعله الضوء الذى نسير خلفه فى هذه الطريق الملتوية طريق شيوخ أبى الفرج الذين طبعوه بطابعهم وحددوا مستقبله العلمى فى هذه الحياة . وهذا الضوء ليس إلا عاطفة الإعجاب أو ظاهرة الاستهواء تلك التى تدفع إلى التقليد والمحاكاة .

هذه الظاهرة لها علاماتها ، وهى فى هذا الموقف المشاركة فى الظواهر العقلية والوجدانية فنحكم بالتأثير والتأثر حيث نجد ظواهر مشتركة فى حياة الأستاذ والطالب علمية كانت أو فنية ، عقلية أو وجدانية .

وقبل أن نبدأ بالحديث عن هؤلاء الذين شاركهم أبو الفرج فى بعض

الظواهر والذين نميل نحن إلى أنهم كانوا أساتذته الحقيقيين أحب أن ألفت الذهن إلى أمر لا بد منه هو أن مجرد المشاركة لا يكفى فى الحكم على أخذ الطالب من أستاذه بعض الصفات العقلية ، فالواجب علينا أن نفرق بين نوعين من المشاركة . الأول منهما ذلك الذى يصدر عن إعجاب فاستهواء وهو مقصودنا فى هذا الدرس — والثانى بعض تلك الظواهر العملية التى لا يلزم أن يكون الباعث عليها هو الاستهواء والاقتداء مثل تلك القذارة التى يذكرونها فى كل من أبى الفرج ونفطويه فنحن لا نستطيع أن نقول إن هذه القذارة التى كانت تبدو على أبى الفرج[١] . لم تكن إلا أثراً من تلك التى كانت فى أستاذه نفطويه[٢] . وأعتقد أن ليس هناك من يشك فى أن بعض الظواهر تتكرر فى أفراد لأسباب مشتركة مهما تتباعد الأزمنة وتتناء الديار .

يجب أن نحذر التعميم وسرعة الأحكام ، وأن نجعل أساسنا فى الحكم بالتأثير والتأثر هو المشاركة التى يبعث عليها شىء من الإعجاب والاستهواء .

* * *

١ — والشخصية الأولى التى ملكت على أبى الفرج عقله وقلبه ودفعت به إلى لون معين من الفن هى شخصية إسحاق الموصلى . فإسحاق هو ذلك الشخص الذى نال الإعجاب كله من أبى الفرج ، وهو الذى مضى أبو الفرج على سنته وسار على هديه فيما ألف من كتب أو خلف من آثار .

كان اسحاق فى حس أبى الفرج من النابغين الذين تنوعت فنونهم وتعمقوا فى ثقافتهم ، بل كان من العباقرة الذين يصلون بمجهوداتهم الخاصة إلى ما أفنى فيه الأوائل — لا سيما الفلاسفة منهم — الأعمار .

---

(١) ١٠١ ، ١٣/١٠٢ معجم الأدباء ٠ رفاعى

(٢) ١/١٦٦ المصدر السابق

يقول أبو الفرج فى ترجمته لإسحاق (. . وموضعه من العلم ومكانه من الأدب ومحله من الرواية و تقدمه فى الشعر ومنزلته فى سائر المحاسن أشهر من أن يدل عليه فيها بوصف . وأما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى مايوسم به ، وإن كان الغالب عليه وعلى ماكان يحسنه فإنه كان له فى سائر أدواته نظراء وأكفاء ولم يكن له فى هذا نظير ، فإنه لحق بمن مضى فيه وسبق من بقى ، وألحب للناس جميعا طريقه وأوضحها ، وسهل عليهم سبيله وأنارها . فهو إمام أهل صناعته جميعاً ورأسهم ومعلمهم يعرف ذلك منه الخاص والعام ويشهد به الموافق والمفارق . . . وهو الذى صحح أجناس الغناء وطرائقه وميزه تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله ولا تعلق به أحد بعده ، ولم يكن قديما مميزاً على هذا الجنس إنما كان يقال الثقيل و ثقيل الثقيل . . . وهذا كله فعله إسحاق واستخرجه بتمييزه حتى أتى على كل ما رسمته الأوائل مثل اقليدس ومن قبله ومن بعده من أهل العلم بالموسيقى ، ووافقهم بطبعه وذهنه فيما قد أفنوا فيه الدهور من غير أن يقرأ لهم كتابا ، أو يعرفه[1]) .

وأعتقد أن ليس من حقك أن تعترض بأن بعض أجزاء هذه الصورة ليس من الصحة فى شىء وأنه ليس إلا من صنع الخيال ، فأنا وإن كنت أعلم هذا وأعلم إلى جانبه أنه ليس من اليسير أن يعيش إسحاق فى عصر الترجمة عصر الرشيد والمأمون وأن يكون على مثل ما يصفه به أبو الفرج من اتساع فى العلم والمعرفة ، وأن يصل إلى ما وصل إليه فى فن الغناء دون أن يتتلمذ فى ذلك على أحد ودون أن يقرأ هو ذلك فى كتاب . بل أنا أعلم أن من بين النصوص التى رواها أبو الفرج نفسه مايثبت أن الترجمة فى أمور الغناء كانت قائمة ، وأن أمور الغناء على الأصول اليونانية كانت محل جدل ومناظرة فى

---

(١) الأغانى ٥/٥٠ ، ٤٩ ساسى

عصر إسحاق ، وأن اسحاق نفسه كان فى بعض المواطن أحد طرفى الخصوم فى الجدل والمناظرة[١] .

أعلم كل هذا وأعلم أن الحقائق لا تجعل من السهل تصديق ما يذهب إليه أبو الفرج ، ولكنى فى هذا الموقف إنما أبحث عن اسحاق الذى ترك آثاره فى نفس أبى الفرج وعقله ، واسحاق التارك لهذه الآثار ليس إلا هذه الصورة الخيالية وليس هو اسحاق الذى كان فى هذه الحياة .

إن هذه الصورة التى يرسمها أبو الفرج بقوله « وإنما ذكرت هذا بتمام أخباره كلها ومحاسنه وفضائله لأنه من أعجب شىء يؤثر عنه أنه استخرج بطبعه علماً رسمته الأوائل لا يوصل إلى معرفته إلا بعد علم كتاب اقليدس الأول فى الهندسة ثم ما بعده من الكتب الموضوعة فى الموسيقى ثم تعلم ذلك وتوصل إليه واستنبطه بقريحته فوافق مارسمه أولئك ولم يشذ عنه شىء يحتاج إليه منه وهو لم يقرأه ولا له مدخل إليه ولا عرفه ثم يبين بعد هذا بما أذكره من أخباره ومعجزاته فى صناعته فضله على أهلها كلهم وتميزه عنهم وكونه سماءهم أرضها ، وبحراهم جداوله[٢] » هى التى كانت نوحى إلى أبى الفرج . ومن هنا يجب أن نقف عندها وأن نعنى بها إن أردنا حقا أن نبحث عن أثر الشيخ فى الغالب . وأعتقد أنك بعد ذلك قد رأيت أن لا محل للوقوف عند هذا الاعتراض .

وعواطف أبى الفرج نحو اسحاق تظهر كلما سنحت لها الفرصة بالظهور . فهى تظهر فى ترجمته لإسحاق . وتظهر بصورة واضحة جلية عند ترجمته لإبراهيم

---

(١) ٥٠/٥ المصدر السابق

(٢) ٥٠/٥ المصدر السابق

ابن المهدى وبخاصة عندما يتحدث أبو الفرج عما كان بينهما من كيد وما كان يجرى بينهما من مناظرات ، إذ ترى حرصه الشديد على ألا يسىء إلى اسحاق ومن هنا يحاول ألا يروى بعض الأخبار التى تسىء إلى تلك الشخصيه ويعلن أنها من الأخبار الكاذبة وأنه من أجل هذا لن يذكرها — مع أن مذهب أبى الفرج فى الرواية أن يروى الأكاذيب والمصنوعات كما سنرى فى الباب الثالث إن شاء الله .

إن دفاع أبى الفرج عن اسحاق وما فيه من صدق وحرارة لا يصدر إلا عن المعجبين الشديدى الإعجاب[1] .

وآثار اسحاق فى حياة أبى الفرج العلمية والفنية واضحة كل الوضوح ، ويتحدث عنها أبو الفرج نفسه ويذكرها فى صراحة لا ينقصها البيان فهو يقول فى مقدمة كتاب الأغانى أنه قد جرى فى تجنيسه للأغانى على مذهب إسحاق « كل ما ذكرنا فيه من نسب الأغانى إلى أجناسها فعلى مذهب اسحاق ابن ابراهيم المرصلى وإن كانت رواية النسبة عن غيره إذ كان مذهبه هو المأخوذ به اليوم دون من خالفه مثل ابراهيم بن المهدى ، . . . ، . .[2] »

وأبو الفرج يصرح أيضا بأن الذى بعثه على التأليف قول رئيس من الرؤساء الذين يميلون إلى هذا اللون من الفن والذين يرون أن كتاب الأغانى الذى بين أيدى الناس لا يمكن أن يسد الفراغ لأنه ليس لإسحاق ولأنه مع ذلك قليل الفائدة « والذى بعثنى على تأليفه أن رئيسا من رؤسائنا كلفنى جمعه وعرفنى أنه بلغه أن الكتاب المنسوب إلى اسحاق مدفوع أن يكون من

---

(١) ٧٢ ، ٩/٧٣ الأغانى ٠ ساسى

(٢) ١/٣ المصدر السابق

تأليفه ، وهو مع ذلك قليل الفائدة وأنه شاك فى نسبته ، لان أكثر أصحاب اسحاق ينكرونه ولان ابنه حماداً أغظم الناس إنكاراً لذلك ، وقد لعمرى صدق فيما ذكره وأصاب فيما أنكره »[١] .

ولعل هذا الاثر يزداد بيانا وقوة إذا تنبهنا إلى أن مرويات اسحاق فى أخبار الغناء والمغنين هى التى اعتمد عليها أبو الفرج فى كتابه ، لا سيما فى الاصوات المائة ، حيث كان يروى عن طريق الحسين بن يحيي ومحمد بن مزيد أخبار اسحاق عن طريق حماد ، ولعلنا لم ننس بعد أمر ذلك الكتاب الذى دفع به أبوالفضل العباس بن ثوابه إلى أبي الفرج ، فلقد كان كما علمنا كتاب إسحاق وبخطه الذى يعرفه أبو الفرج[٢] .

على أن أبا الفرج يحدثنا فى مرات أخرى عن كتب له أخرى لم يؤلفها إلا ليبين للناس أسرار الغناء ، وهو يذكرها دائماً فى معرض أحاديثه عن اسحاق ، حتى لكأن الباعث على تأليفها هو الدفاع عن اسحاق أو تثبيت مذهبه وبيان فضله . يقول أبو الفرج « .. وهذا عمرو بن بانه وهو من تلاميذه « اسحاق » يقول فى كتابه الرمل الأول والرمل الثانى ثم لا يزيد فى ذكر الأصابع على الوسطى والبنصر ، ولا يعرف المجارى التى ذكرها اسحاق فى كتابه مثل ماميز الأجناس فجعل الثقيل الأول أصنافا فبدأ فيه بإطلاق الوتر فى مجرى البنصر ثم تلاه بما كان منه بالبنصر فى مجراها ثم ما كان بالسبابة فى مجرى البنصر ثم فعل هذا بما كان منه بالوسطى على هذه المرتبة ثم جعل الثقيل الأول صنفين الصنف الأول منهما هذا الذى ذكرناه والصنف الثانى القدر الأوسط من الثقيل الأول وأجراه المجرى الذى تقدم من تمييز الأصابع

---

(١) ٣/ ١ المصدر السابق

(٢) ٩/٦٩ أغانى · ساسى · وراجع أيضا ٤٢/١١٣

والمجارى والحق جميع الطرائق والأجناس بذلك وأجراها على هذا الترتيب . ثم لم يتعلق بفهم ذلك أحد بعده فضلا عن أن يصنفه فى كتاب ، فقد ألف جماعة من المغنين كتبا منهم يحيى المكى وكان شيخ الجماعة وأستاذهم وكلهم كان يفتقر إليه يأخذ عنه غناء الحجاز وله صنعة كثيرة حسنة متقدمة ، وقد كان إبراهيم الموصلى وابن جامع يضطران إلى الأخذ عنه ألف كتابا جمع فيه الغناء القديم وألحق فيه ابنه الغناء المحدث إلى آخر أيامه فأتيا فيه فى أمر الأصابع بتخليط عظيم حتى جعلا أكثر ما جنساه من ذلك مختلطا فاسدا وجعلا بعضه فيما زعما تشترك الأصابع كلها فيه . وهذا محال ، ولو اشتركت الأصابع لما احتيج إلى تمييز الأغانى وتصييرها مقسومة على صنفين الوسطى والبنصر . والكلام فى هذا طويل ليس موضعه ههنا . وقد ذكرته فى رسالة عملتها لبعض اخوانى ممن سألنى شرح هذا فأثبته واستقصيته استقصاء يستغنى به عن غيره . وهذا كله فعله اسحاق واستخرجه بتمييزه . . »[1]

ويقول (. . . وقد ذكرت قطعة من هذه الأخبار فى أخبار إسحاق وأنا أذكر ههنا منها ما لم أذكر هناك . ومما خالف إبراهيم بن المهدى ومن قال بقوله على إسحاق فيه الثقيلان وخفيفهما ... وجرت بينهما فى ذلك مناظرات ومجادلات ومراسلة ومكاتبة ومشافهة وحضرهما الناس فلم يكن فيهم من يفى بفصل ما بينهما والحكم لأحدهما على صاحبه ... وعمل الناس على مذهب إسحاق لأنه كان أعلم الرجلين وأشهرهما . وأوضح إسحاق أيضاً لذلك وجوهاً فقال ... ولهما فى ذلك كلام كثير ومخاطبات قد ذكرتها فى أخبارهما وشرحت العلل مبسوطة فى كتاب ألفته فى النغم شرحا ليس هذا موضعه ولا يصلح فيه[2] ...) .

---

(١) ٤٩ ، ٥/٥٠ المصدر السابق (٢) ٤٩ ، ٥/٠٥ أغانى ٠ سابى
(٣) ٤٦ ، ٩/٤٧ المصدر السابق

إن إسحاق هو الأستاذ الأول لأبى الفرج ، وإنه الأستاذ الذى ظهرت آثاره واضحة فى حياة أبى الفرج العلمية والفنية ، لا من حيث ما أخذ أبو الفرج عنه من أخبار بأية طريقة من الطرق أو بأى إسناد من الأسانيد ، ولا من حيث تلك الأخبار الكثيرة التى كانت تدور حول إسحاق من حيث هى مادة من مواد كتاب الأغانى - فى هذين يستوى إسحاق وغيره ، بل من حيث أنه الشخصية التى استهوت أبا الفرج فامتلأ إعجاباً بها حتى دفعته إلى اختيار لون معين من العلوم والفنون ، ولم تقف المسألة عند حد الاختيار وإنما تعدته إلى التأليف والتصنيف ، وفى التأليف لم تقف المسألة عند حد المواد التى تجمع فتذكر وإنما تعدته إلى التصميم ، ونعتقد أن أمر أبى الفرج مع إسحاق لم يقف عند حد تحويل أجناس الغناء إلى مذهب إسحاق وإنما كان يجرى أبو الفرج على أسلوب إسحاق فى العرض ، ولعل هذا الخبر الذى يرويه الخطيب يصور لنا أسلوب إسحاق . جاء فى تاريخ بغداد (... وقال محمد أخبرنى الصولى قال حدثنى عبد الله بن المعتز حدثنى أبو عبد الله الشامى قال اعتبر أهلنا على إسحاق بأن دعوه ، ومدوا ستاره ، وأقعدوا كاتبين ضابطين بحيث لا يراهما إسحاق ، وقالوا كلما غنت الستارة صوتاً فتكلم عليه إسحاق فاكتبا الصوت واكتبا لفظه فيه . وجعل إسحاق كلما سمع صوتاً أخبر بالشعر لمن هو ، ونسب الصوت ، وذكر جميع من تغنى فيه ، وخبرا إن كان له خبر . كتب ذلك كله وحفظ ثم دعوا إسحاق بعد مدة طويلة وضربوا ستارة وأمروا من خلفها أن يغنين بمثل ما كن غنين به فى ذلك اليوم . ففعلن . وابتدأ إسحق يتكلم فى الغناء بمثل ما كان يتكلم به ما خرم حرفا . قال فعلموا وعلم الناس أنه لا يقول إلا صوابا وحقا وعجبوا منه[1]) .

---

(١) ٦/٣٤٠ تاريخ بغداد

إن طريقة إسحاق هذه هى الماثلة أمامنا فى كتاب الأغانى ، وإنها الدستور الذى جرى عليه أبو الفرج فى اختيار الأصوات والشعراء والمغنين . وإن الذى دفع أبا الفرج إلى أن يذكر الأجناس على مذهب إسحاق هو الذى جعله يجرى فى التأليف وأسلوب العرض على مذهب إسحاق أيضاً . وليس ذلك فيما نرى إلا الإعجاب بتلك الشخصية الفذة التى تعاون فى رسمها الواقع والخيال . إنها شخصية إسحاق .

أعتقد أنا نستطيع الآن أن نترك هذه الشخصية إلى شخصية أخرى لها آثارها أيضاً ، وتظهر عواطف أبى الفرج نحوها ظهوراً قوياً واضحاً . تلك هى شخصية عبد الله بن المعتز .

٢ — والشخصية الثانية التى أثرت فى أبى الفرج وحازت منه بعض الإعجاب شخصية عبد الله بن المعتز وهى شخصية تجىء خلف شخصية إسحاق وتالية لها ، فلم يكن ابن المعتز وإسحاق عند أبى الفرج بمنزله سواء . وإنما ذهب إسحاق بالإعجاب كله وظفر منه ابن المعتز بنصيب . ومن هنا كانت صورة إسحاق فى ذهن أبى الفرج بعيدة عن الوقع ، وكانت صورة ابن المعتز من الواقع وجارية على سننه .

وعبد الله بن المعتز أثر فى أبى الفرج بنفس الوسيلة التى أثر فيه بها إسحاق وهى الكتب ، فقد كان عبد الله من الأموات حين اتصل به أبو الفرج .

وصورة عبد الله عند أبى الفرج هى التالية (وممن صنع من أولاد الخلفاء فأجاد وأحسن وبرع وتقدم جميع أهل عصره فضلا وشرفا وأدباً وشعراً وظرفاً وتصرفاً فى سائر الآداب — أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله — وأمره مع قرب عهده بعصرنا هذا مشهور فى فضائله وآدابه شهرة

تشرك فى أكثر فضائله الخاص والعام . وشعره وإن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين ، وأشياء طريفة من أشعار الملوك فى جنس ما هم بسبيله ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية . . وكان عبد الله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها ، وله فى ذلك وفى غيره من الآداب كتب مشهورة ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وبين بنى حمدون ، وغيرهم تدل على فضله وغزارة علمه وأدبه[1] .)

وعواطف أبى الفرج نحو هذه الشخصية عواطف صادقة قوية ، ومن هنا كان دفاعه عنها حاراً وكان هجومه على خصوم عبد الله قويا عنيفاً . يقول أبو الفرج بصدد هذا الدفاع (ولكن أقواما أرادوا أن يرفعوا أنفسهم الوضيعة ويشيدوا بذكرهم الخامل وبعلو أقدارهم الساقطة بالطعن على أهل الفضل والقدح فيهم فلا يزدادون بذلك إلا ضعة ولا يزداد الآخر إلا ارتفاعا ، ألا ترى إلى ابن المعتز قتل أسوأ قتلة ودرج فلم يبق له خاف يقرظه ولا عقب يرفع منه وما يزداد بأدبه وشعره وفضله وحسن أخباره وتصرفه فى كل فن من العلوم إلا رفعة وعلواً ولا نظر إلى أضداده كلما ازدادوا فى طعنه وتقريظ أنفسهم وأسلافهم الذين كانوا مثلهم فى ثلبه والطعن عليه زادوها سقوطا وضعة ، وكلما وصفوا أشعارهم وقرظوا آدابهم زادوا بها ثقلا ومقتا . فإذا وقع عليهم المحصل الموافق عدلوا عن ثلبه فى الآداب إلى التشنيع عليه بأمر الدين وهجاء آل أبى طالب[2] . . .)

وتأثر أبى الفرج بابن المعتز سيظهر بوضوح عند حديثنا عن الفن

---

(١) ١٣٣ ، ٩/١٣٤ أغانى . ساسى

(٢) ١٣٤ المصدر السابق

الشعرى عند أبى الفرج وكيف كان يجرى على مذهب المحدثين ذلك المذهب الذى يصوره هو عند دفاعه عن ابن المعتز بقوله (فليس يمكن واصفاً لصبوح فى مجلس شكل ظريف بين ندامى وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والنرجس ومنضود من أمثال ذلك إلى غير ما ذكرته من جنس المجالس وفاخر الفرش ومختار الآلات ورقة الخدم أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام البسيط الرقيق الذى يفهمه كل من حضر إلى جعد الكلام ووحشيه وإلى وصف البيد والمهامه والظبى والظليم والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ، ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسىء ، ولا أن يغمط حقه كله إذا أحسن الكثير وتوسط فى البعض وقصر فى اليسير . . .)[١] .

ولعل أكبر ما يعيننا على الوقوف على ماكان بين أبى الفرج وبين ابن المعتز من صلات علمية وفنية ذلك النص الذى يقول فيه أبو الفرج « ... ولقد قرأت بخط عبيد الله بن عبد الله بن طاهر رقعة إليه بخطه وقد بعث إليه برسالة إلى ابن حمدون فى أنه يجوز ولا ينكر أن يغير الإنسان بعض نغم الغناء ويعدل بها إلى مايحسن فى حلقه ومذهبه ، وهى رسالة طويلة ويشاوره فيها . فكتب إليه عبيد الله قرأت أيدك الله الرسالة الفاضلة البارعة الموفقة فأنا والله أقرؤها إلى آخرها ثم أعود أولها مبتهجاً وأتأمل وأدعو مبتهلا وعين الله التى لا تنام عليك وعلى نعمه عندك فانها علم الله النعمة المعدومة المثل . . . ولا والله ما رأيت جداً فى هزل ولا هزلا فى جد يشبه هذا الكلام فى بلاغته وفصاحته وبيانه وإنارة برهانه وجزالة ألفاظه ... ولو أن

---

(١) ٩/١٣٤ أغانى (ساسى) .

هذه الرسالة جبهت الإبراهيمين ابراهيم بن المهدى وابراهيم بن الموصلى وابنه إسحاق وهم مجتمعون لبهت منهم الناظر وأخرس الناطق ولأقروا لك بالفضل فى السبق وظهور حجة الصدق ثم كان قولك لهم فرقا بين الحق والباطل والخطأ والصواب . ووالله ما تأخذ فى فن من الفنون إلا برزت فيه تبريز الجواد الرائع المغبر فى وجه كل حصان تابع . عضد الله الشرف ببقائك وأحيا الأدب بحياتك وجمل الدنيا وأهلها بطول عمرك(١) .

ففى هـذا النص نرى صورة ابن المعتز فى ذهن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وهى صورة قد رضى عنها أبو الفرج بدليل تعليقه عليها بقوله « هـذا كلام العقلاء وذوى الفضل فى مثله لا كلام الثقلاء وذوى الجهالة » .

هذا الرضى من أبى الفرج يشعرنا بما كان يكنه لابن المعتز من عواطف وهى عواطف جديرة بأن تجره إلى التقليد والمحاكاة .

على أننا نرى صورة أخرى أقدر من السابقة على دفع أبى الفرج إلى أن يتأثر بابن المعتز وهى معالجة ابن المعتز لمسائل النغم ، فنحن نعلم أن هذه المسائل كان يجرى عليها الحوار والجدل بين إسحاق الموصلى وابراهيم بن المهدى كما نعلم أن أبا الفرج قد ألف فى النغم وعللها وأنه كان يهتم إلى حد كبير بما كان يجرى بين ابراهيم وإسحاق . ومن هنا يصبح من غير المعقول ألا يهتم أبو الفرج وألا يتأثر بما ترك ابن المعـــتز من كتب ورسائل تعالج هذه المسائل بالذات .

فإذا أضفنا إلى كل ما تقدم أن أبا الفرج كان يجعل مرويات ابن المعتز وأقواله مصدراً مهما من مصادره فينقل من كتابه أخباراً(٢) . ويروى

---

(١) ١٣٤ ، ١/١٣٥ المصدر السابق

(٢) ١٨/١٧٧ أغانى ٠ ساسى

أحكامه النقدية فى الغناء والمغنين[١] . عرفنا أن ابن المعتز كان واحداً من أساتذة أبى الفرج الذى استجابت نفسه لهم فآمنت بهم واطمأنت إليهم ومضت فى الحياة على شىء من هديهم وسننهم .

نستطيع الآن أن ننتقل إلى الأحياء وأن ننتقل أولا وقبل كل شىء إلى جحظة البرمكى وأن تكون هذه النقلة بعد أن نلفت الذهن إلى شخصيتين أعجب بهما أبو الفرج من الأموات إعجاباً دفعه إلى تقليد أحداهما لكن لا إلى آخر الشوط ، وتلك هى شخصية أبى تمام فلقد بدأ أبو الفرج بتقليد أبى تمام والجرى على مذهبه فى البديع أو فى المجانس ، لكنه لم يمض فى التقليد إلى النهاية وإنما انصرف بعد أن بدأ الشوط وبعد أن جرى خلف صاحبه بضع جولات — الأمر الذى سنشرحه عنـــد حديثنا عن فن أبى الفرج الشعرى :

أما الثانية فقد كان حظ أبى الفرج منها الإعجاب ، لكن لا على أنها المثل الأعلى الذى يحتذيه وإنما على أنها الشخصية التى تمثل شخصية الإنسان المثقف كما يفهمه أبو الفرج وتلك هى شخصية عبيد الله بن عبد الله بن طاهر[٢] . ولن نستطيع أن ننكر أن أبا الفرج قد أعجب بكتابه الآداب الرفيعة الذى ألفه فى النغم وعلل الأغانى[٣] وأنه قد استفاد منه حين كتب فى هذه الأشياء .

٣ — الشخصية الثالثة كما قلنا هى شخصية جحظه البرمكى وهو أحمد ابن جعفر بن موسى بن يحي بن خالد بن برمك . وحظ جحظه من تنوع الثقافات وتعدد ألوان المعرفة ليس أقل من حظ إسحاق وابن المعتز فقد كان

---

(١) ٥/٩٢ المصدر السابق
(٢) ٨/٤٢ المصدر السابق .
(٣) ٤٣ المصدر السابق

جحظه أديباً شاعراً ، وإخباريا عالما ، وكان من حذاق المغنين من الطنبوريين[١] ويقول عنه الخطيب «كان حسن الأدب كثير الرواية للأخبار متصرفاً فى فنون جمة عارفاً من العلوم بصناعة النجوم حافظا لأطراف من النحو واللغة مليح الشعر مقبول الألفاظ حاضر النادرة وأما صناعته فى الغناء فلم يلحقه فيها أحد »[٢] .

وحظ جحظه من عناية أبى الفرج بتدوين أخباره وجمع أشعاره أكبر من حظ كل من إسحاق وابن المعتز فقد ترجم أبو الفرج لكل واحد منهما فى فصل يخصه من كتاب الأغانى وترجم لجحظه فى كتاب خاص هو كتاب أخبار جحظه البرمكى وهو واحد من الكتب التى يحكى الثعالبى أنه رآها من بين كتب أبى الفرج[٣] .

أما حظه من حيث الوسائل التى يعتمد عليها فى التأثر فقد كان كبيراً حقا ، ذلك لأن أبا الفرج قد لقى جحظه وجلس منه مجلس الطالب من الشيخ ، ولم يفارق جحظه الحيــاة حتى بلغ أبو الفرج من العمر أربعين سنة قامت بينهما فيهــا صداقة قوية متينة تصورها هـذه القصة . قال أبو الفرج بلغ أبا الحسن جحظه أن مدرك بن محمد الشيبانى الشاعر ذكره بسوء فى مجلس كنت حاضره وكتب .

أبا فرج أهجى لديك ويعتدى   على فلا تحمى لذاك وتغضب
لعمرك ما أنصفتنى فى مودتى   فكن معتبا إن الأكارم تعتب

---

(١) ٢٩٨ الفهرست لابن النديم
(٢) ٤/٦٥ تاريخ بغداد
(٣) ٢/٣٧٨ اليتيمة ٠ دمشق

قال أبو الفرج فكتبت إليه :

عجبت لما بلغت عنى باطلا	وظنك بى فيه لعمرك أعجب
ثكلت إذا نفسى وعزى أسرتى	بفقدى ولا أدركت ما كنت أطلب
فكيف بمن لاحظ لى فى لقائه	وسيان عندى وصله والتجنب
فثق بأخ أصفاك محض مودة	تشاكل منها ما بدا والتغيب[1]

كما كان أبو الفرج — على ما يبدو — يذهب إليه سائلا أو مستفسراً كلما أشكلت عليه مسائل العلم أو قضاياه ، فهو يقول (سألت أحمد بن جعفر جحظه عن نسبه قلت له إن الناس يقولون ابن أمية ابن أبى أمية فقال هو محمد ابن أمية ابن أبى أمية قال وكان محمد[2] . .) . وهو يقول « حدثنى جحظه وجعفر بن قدامه وخبر جعفر أتم إلا أنى قرأته على جحظه فعرفه وذكر لى أنه سمعه »[3] .

ومعنى كل ما تقدم أن جحظه كان يؤثر بشخصيته الحية المتحركة إلى جانب تأثيره بكتبه الأمر الذى يشترك فيه مع كل من ابن المعتز وإسحاق .

غير أن هذه الحظوظ التى يفوز منها جحظه بالنصيب الأكبر لم تكن لتجعل منه الشخص الذى يفوق صاحبيه من حيث القدرة على الإيحاء ، فلقد كان جحظه أقل حظا من صاحبيه فى هذه الناحية . ومن هنا لم نر أبا الفرج يحتفل بحكمه الفنى كما يحتفل بحكم إسحاق مثلا .

جاء فى الأغانى « كانت عبيدة من المحسنات المتقدمات فى الصنعة

---

(١) ١٢١ ، ١٣/١٢٢ معجم الأدباء . ط . رفاعى

(٢) ١١/٣٠ الأغانى . ساسى .

(٣) ١٩/١٣٦ الأغانى . ساسى

والآداب يشهد لها بذلك اسحاق وحسبها بشهادته . . . ذكرها جحظه فى كتاب الطنبوريين والطنبوريات وقرأت عليه خبرها فيه فقال كانت من المحسنات وكانت لا تخلو من عشق ولم يعرف فى الدنيا امرأة أعطر منها ، وكانت لها صنعة عجيبة [١] ... » .

ولعلنا نرى الأمر على العكس من هذا تماما فقد كان أبو الفرج يضيق أحيانا من جحظه ويظهر سخطه عليه وعلى مسلكه فى رواية الأخبار . جاء فى الأغانى : « النصيبى هو صاحب الأنصاب وأول من غنى بها وعنه أخذ النصب فى الغناء ، هو أحمد بن أسامة ... وذكره جحظه فى كتاب الطنبوريين فأتى من ذكره بشىء ليس من جنس أخباره ولا زمانه وثلبه فيما ذكره ، وكان مذهبه عفا الله عنا وعنه فى هذا الكتاب أن يثلب جميع من ذكره من أهل صناعته بأقبح ما قدر عليه وكان يجب عليه ضد هذا لأن من انتسب إلى صناعة ثم ذكر متقدمى أهلها كان الأجمل به أن يذكر محاسن أخبارهم وطريف قصصهم ومليح ما عرفه منهم لا أن يثلبهم بما لا يعلم وما يعلم فكان فيما قرأت عليه من هذا الكتاب أخبار أحمد النصيبى وبه صدر كتابه » [٢]

وجحظه مع كل هـــذا قد ترك آثاره فى نفس أبى الفرج وهى آثار لا نستطيع أن نثبتها بالنصوص القاطعة وإن كنا نستطيع أن ندلل عليها من شهادات الحال .

وأول الأمور التى نستطيع أن نقول إنها من آثار جحظه صناعة الموسيقى وفن الغناء ، فقد كان جحظه من الحذاق فيه كما سبق أن ذكرنا ، ويذكر لنا أبو الفرج أنه كان يعلم الجوارى الموسيقى والغناء [٣] . وليس من اليسير

---

(١) ١٩/١٣٥ ، ١٣٤ المصدر السابق .

(٢) ٥/١٥٣ المصدر السابق .

(٣) ٥/٣٠ المصدر السابق ، ٢/٢٦٠ معجم الأدباء . ط . رفاعى

ونحن نعلم ميل أبى الفرج إلى الموسيقى والغناء ، ذلك الميل الذى أنتج أكثر من كتاب ، أن نعتقد أن أبا الفرج لم يتأثر فى ذلك خطى جحظه مع أنه فيما نعلم الشيخ الوحيد من شيوخ أبى الفرج الذى يشهد له القدماء من أمثال ابن النديم والخطيب بالإجادة فى الموسيقى والإتقان فى الغناء .

ثانى هذه الأمور ذلك الفن الشعرى الذى يذهب فيه جحظه مذهب ابن المعتز . ولعل جحظه كان فى هذا السبيل التى سلكها أبو الفرج ليجرى فى فنه الشعرى على هذا المذهب لاسيما ونحن نعلم أن جحظه كان من المعجبين بابن المعتز وأن عبيد الله هو الذى سماه بهذا الاسم [١] .

أما أقوى الظواهر التى يشترك فيها الطالب والشيخ فتلك التى تتعلق بحياة اللهو فقد كان جحظه القدوة فى ذلك لأبى الفرج ، وهى قدوة لا نريد أن نقول أكانت حسنة أم سيئة ؟ ويكفينا أن نذكر بعض النصوص التى تشعرنا بهذا الجو الذى كان يعيش فيه الشيخ ويتربى فيه الطالب . وأن نترك الباقى منها إلى الفصل التالى وهو الخاص بالخلطاء أو الأصدقاء فلقد كان جحظه أحدهم .

١ — حدث أبو الفرج الأصبهانى قال : دعانى محمد بن الشار يوماً ودعا جحظه وأطال حبس الطعام جـــداً ، وجاع جحظه فأخذ دواة وبياضاً وكتب :

مالى وللشار وأولاده　　لا قدس الوالد والوالده
قد حفظوا القرآن واستعملوا ما فيه إلا سورة المائده

ورمى بها إلى فقرأتها ودفعتها إلى ابن الشار فقرأها ووثب مسرعاً فقدم

---

(١) ٢/٢٤٢ معجم الأدباء . ط . رفاعى

المائدة ، فقاطعه جحظه فكان يجهد جهده أن يجيئه فلا يفعل ، وإذا عاتبناه قال والله حتى يحفظ تلك السورة[١] .

٢ — وكتب إلى بعض الإخوان :

لنا يا أخى زلة وافرة — وقدر معجلة حاضرة
وراح تريك إذا صفقت — سنا البرق فى الليلة الماطرة
ومسمعة لم يخنها الصواب — وزامرة أيما زامرة
وما شئت من خبر نادر — ونادرة بعدها نادرة
فآت ولو كنت يا ابن الكرام — وحاشاك من ذاك فى الآخرة[٢]

٣ — وهى صوت كان يغنيه والصنعة له فيه كما يذكر غرس النعمة

إن بالحيرة قساً قد مجن — فتن الرهبان فيها وافتتن
ترك الانجيل حيناً للصبا — ورأى الدنيا مجوناً فركن[٣]

* * *

أما الشخصية الرابعة فشخصية محمد بن العباس اليزيدى وقد كان أبو الفرج حسن الرأى فى محمد وحمل عنه فيما يقول هو علماً جماً وهذا هو نص قوله فيه (وآخر من كان بقى من علماء أهل هذا البيت أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبى محمد وكان فاضلا عالما ثقة فيما يرويه منقطع القرين فى الصدق وشدة التوقى فيما ينقله وقد حملنا نحن عنه وكثير من طلبة العلم ورواته علماً كثيراً فسمعنا منه سماعاً جما . . .[٤]) .

---

(١) ٢٦٤ ، ٢٦٥ المصدر السابق .
(٢) ٢٥٣ معجم الأدباء . ط . رفاعى
(٣) ٢٥٧/المصدر السابق .
(٤) ١٨/٧٣ . أغانى ساسى .

ويبقى من أساتذة أبى الفرج كثيرون لم نتبين لهم آثاراً تذكر من حيث قوة الشخصية والقدرة على الإيحاء ، وإن كنا نعرف لهم آثارهم من حيث أخذ أبى الفرج عنهم وروايته لهم ، وهم من هذه الناحية ليسوا أكثر من شيوخ رواة ، وهؤلاء لهم مقامهم من هذا البحث فى الباب الثانى إن شاء الله .

على أن هناك قوما كان أبو الفرج يتحدث عنهم باحترام وذلك من أمثال محمد بن الحسين الكندى « فقد كان يقول عنه مرة أخبرنى محمد ابن الحسين الكندى مؤدبى[١] وكان يقول أخرى فسمعت بعض مشايخنا من الكوفيين يذكر وهو محمد بن الحسين الكندى[٢] . وكان يقول ثالثة أخبرنى محمد بن الحسين الكندى المؤدب[٣] . وكلها أقوال لا تفيد أكثر من أنه واحد من مشايخه الذين يكن لهم الاحترام والتقدير . أما النتائج التى تترتب على هذا من تفاعل عقلى أو تجاوب نفسى له آثاره من حيث الاشتراك فى بعض الظواهر العلمية أو الفنية القائمة على الاستهواء فالتقليد والمحاكاة فأمر لم نستطع الوقوف عليه فى واحدة من التراجم القصيرة التى يترجم له بها المؤرخون[٤] .

ولعل الشخص الذى يجدر بنا ذكره فى هذا المقام هو أحمد بن عبيد الله ابن عمار فقد كان الرجل من شيوخ أبى الفرج وله كتاب يتفق فى اسمه وموضوعه مع كتاب من كتب أبى الفرج وذلك هو مقاتل الطالبيين[٥] .

---

(١) ١٣/٩ المصدر السابق
(٢) ٦٤٥ مقاتل الطالبيين • مصر
(٣) ١٢/١٥٩ • أغانى ساسى
(٤) ٢/٢٣٤ تاريخ بغداد ، ٢/٢٧١ شذرات الذهب •
(٥) ٤/٢٥٢ تاريخ بغداد •

إذ ليس من المستبعد أن يكون أبو الفرج قد صنف كتابه هذا تقليداً لأستاذه وجرياً على هديه وسنته .

هذا هو الجو المدرسى بالمعنى الذى نفهمه من أستاذية وتلمذة . أما ذلك الجو المدرسى الذى يقوم على اللقاء المادى وعلى التلقين وعلى حشد الذهن بالمعلومات فله مكانه الخاص من الباب الثانى حيث نبدأ مع أبى الفرج وهو وليد وحيث نسير معه فى البيئتين الثقافيتين اللتين لعبتا الدور الأكبر فى تكوينه وهما البيئة الكوفية والبيئة البغدادية .

وهناك أيضاً نستطيع أن نعرف إلى أى حد كان التفاعل بين أبى الفرج وبين ما كان يحيط به من ثقافات مختلفة الأنواع وعديدة الألوان .

إنا هنا إنما نبحث فقط أمر هؤلاء الذين اتخذ منهم أبو الفرج مثله الأعلى ، وجعلهم القدوة الصالحة التى ينسج على منوالها فى الألوان الفنية والأدبية التى دفعت به إليها الظروف والضرورات . وأعتقد أنى قد وضحت ذلك وبينت منه ما يمكن الوقوف عليه أو الوصول إليه .

الفصل الرابع

الخلطـــاء

وهذا الجو جو الخلطاء الذين كان أبو الفرج يعيش بينهم حيث يألفهم ويألفونه يعيننا على فهم أمرين نفسيين يتعلقان بأسس اختيار الأخبار والأقاصيص والنوادر والأشعار وتفضيل بعضها دون بعض أو ترجيح رواية منها على أخرى .

وأول الأمرين أن هـذا الجو يلقى ضوءا يعيننا على الوقوف على نفسية أبى الفرج ويعرفنا بخلقه الشخصى ومزاجه الفنى ، وكل تلك مؤثرات لهـا خطرها فى عوامل الاختيار والتفضيل والترجيح .

وثانى الأمرين أن من هؤلاء الخلطاء من كان يكتب له أبو الفرج أدبه من شعر ونثر ، وكتبه من أقاصيص ونوادر وأخبار ، وفى كل ذلك كان أبوالفرج يراعى الخلق الشخصى والمزاج الفنى لهؤلاء الذين يكتب لهم ، ولعله كان فى بعض الأحيان يخالف ذوقه هو ومزاجه هو ليرضى أذواق هؤلاء وأمزجتهم ، وليدخل السرور على أنفسهم وعلى قلوبهم ، ومن هنا يصبح هذا الجو نافعا للدارس من حيث أنه يفسر لنا بعض أسس الاختيار وبعض عوامل الترجيح .

هذا القول الذى نقوله لا نصدر فيه عن فروض نظرية يفرضها الدارس وإنما عن تتبع للعادات الفكرية التى كان يجرى عليها أبو الفرج فى إنشائه للفن الأدبى وفى تأليفه للكتب تاريخية أو أدبية ، وهى عادات سنتناولها

بالشرح المفصل فى الباب الثانى إن شاء الله . ونستطيع أن نكتفى هنا بإجمال لهذه العادات حتى نصل إليها هناك .

لقد كان من عادات أبى الفرج الفكرية أن يقف فى مقدمات الكتب ليفسر لنا البواعث التى دفعته إلى التأليف ، وليبين لنا الأغراض العلمية أو الأدبية التى يريد تحقيقها ، بل لقد كان أحيانا يمضى إلى أبعد من هذا فيصور لنا السبل التى سلكها فى التأليف والعقبات التى صادفها فتخطاها أو دار حولها ليسلم له الطريق . وهذا واضح كل الوضوح من مقدمة كتابيه الأغانى ومقاتل الطالبيين .

وكان من عادات أبى الفرج أيضاً أن يقف فى الفترات المتفاوتة لينبه القارىء إلى أنه لم يخرج على ما رسم لنفسه من سبل ولبحثه من خطط ، فهو يختار مواد الكتب على أساس أنها المواد التى تفى بالأغراض أو تحقق المقاصد فهو حين يذكر خبرا أو قصة لا يذكرها إلا على هذا الأساس ، وليس يعنيه فيما نرى أن يكون هذا الخبر صحيحاً أو غير صحيح ، وأن تكون هذه القصة من واقع التاريخ والحياة أو من نسج الخيال ، إن القيم الذاتية لا تعنيه وإنما الذى يعنيه هو تحقيق المقاصد والوفاء بالأغراض .

نعم نحن لا نستطيع أن ننكر أن الظروف كانت تضطر الرجل أحيانا إلى الخروج عن هذه السبل ولكنا نشهد الله على أن الرجل كان يتمهل فى مثل هذه المواقف ليفسر الضرورات وليعتذر عن التقصير .

وإذا كانت مقدمة كتاب الأغانى تفصح عن بعض مقاصد أبى الفرج حين تنص على أنه قد راعى فى اختياره لغير الأصوات المختارة من قبل . هذه المسائل (. . . ثم بسائر الغناء الذى عرف له قصة تستفاد وحديثا يستحسن إذ ليس لكل الأغانى خبر ولا فى كل ما له خبر فائدة ولا لكل

ما فيه بعض الفائدة رونق يروق الناظر ويلهى السامع[1]) كان من الحتم علينا أن نقف عند هؤلاء الذين تصورهم أبو الفرج من الناظرين والسامعين لنعرف ما يروقهم وما يلهيهم ، وأعتقد أن ليس منا من يرى أن أصدقاء أبى الفرج ليسوا بالصورة المصغرة لهؤلاء إن لم يكونوا هم لاسيما ونحن نعلم أن أبا الفرج قد صرح فى مقدمة كتاب الأغانى أن الذى بعثه على تأليف هذا الكتاب رئيس من الرؤساء . فقد جاء فى هذه المقدمة (والذى بعثنى على تأليفه أن رئيساً من رؤسائنا كلفنى جمعه له وعرفنى أنه بلغه أن الكتاب المنسوب إلى اسحق مدفوع أن يكون من تأليفه ...[2]) .

وخلطاء أبى الفرج الذين نستطيع أن نجعلهم الصورة المصغرة لهذا المجتمع الذى يريد أبو الفرج أن يروقه وأن يلهيه هم أولئك الذين كانوا يجتمعون عند الوزير المهلبى فيقص عليهم أبو الفرج الأخبار والنوادر ، ويحكى لهم الأقاصيص ، وأشهر هؤلاء وأكثرهم صلة بأبى الفرج التنوخى ، والأيذجى ، فله معهم دعابات يصورها فنه ، ولهم فيه شهادات تصور كثرة حفظه وما كان يجتمع إليه أحيانا من قص الغرائب والمحالات انتقاما لنفسه أو لفنه من الدخلاء[3] .

وأعتقد أنه من المستحسن أن نبدأ بقطب الرحى أو بالرجل الذى كان أبو الفرج نديما له وهو الحسن بن محمد المهلبى وزير معز الدولة البويهى . فقد كان أبو الفرج فيما يحكى الثعالبى « منقطعا إلى المهلبى الوزير كثير المدح له مختصاً به[4] » .

---

(١) ص ١ . ج ١ . أغانى ساسى .
(٢) ص ٣ المصدر السابق .
(٣) ١٣/١٢٤ معجم الأدباء . ط . رفاعى
(٤) ١/١٧٨ يتيمة الدهر . ط . دمشق .

إن التاريخ السياسى لهذه الشخصية لن يفيدنا تسجيله أو تصويره فى هذا الموقف فلسنا بصدد الحديث عن أخلاق المهلبى السياسية وكيف كان يسوس ومدى ما بلغه من انتصار على الأعداء والمنافسين فى وقت الحروب والغزوات ، وفى غيرهما . الأمر الذى صوره آدم متز فأحسن وصفه وتصويره [١] . وإنما نحن بصدد تلك الأحاديث والأقاصيص التى تروق الناظر والتى يطرب لها السامع والتى عل أساس ذيوعها وانتشارها وإدخالها السرور على النفوس اختارها أبو الفرج وجعلها المواد التى أقام عليها كتبه الأدبية كالأغانى وغيره . والتاريخان الاجتماعى والأدبى هما اللذان يفيداننا فى هذا الموقف لأنهما اللذان أثرا فى عوامل الاختيار .

كان المهلبى فقيرا معدما قبل أن يتصل بالسلطان ، وكان من الرجال الذين يألمون من الفقر ومما يسببه الفقر من حرمان . ويقول الثعالبى رواية عن أشياخه ، وكانت حالة المهلبى الوزير قبل الاتصال بالسلطان حال ضعف وقلة وكان يقاسى منها قذى عينه وشجى صدره [٢] » .

وكان المهلبى من الأدباء الذين يقولون الشعر ويكتبون النثر . وكانت صوره الأدبية هى التعويض الوحيد الذى يمده به الفن ليخفف عنه أثقال هـــذه الحياة . ولعل الأبيات التالية تصور لنا نفسية المهلبى المعدم والمهلبى الأديب .

ألا موت يباع فأشـــتريه ‏ ‏ ‏ فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتى ‏ ‏ ‏ يخلصنى من العيش الـكريه

---

(١) ١٦٨ ـ ١/١٧١ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى . ترجمة أبو ريده . ط . لجنة التأليف .

(٢) ٢/٨ يتيمة الدهر . ط . دمشق .

إذا أبصرت قبرا من بعيد   وددت لو أننى ممـــا يليه
ألا رحم المهيمن نفس حر   تصدق بالوفاة على أخيه [١]

بل لعل القصة التالية التى يحكيها المهلبى نفسه أن تكون أدق فى الدلالة على هذه النفسية ، وحدث أبو محمد المهلبى قال . كنت أيام حداثتى وقصر حالى وصغر تصرفى أسكن دارا لطيفة ، ونفسى مع ذلك تنازع الأمور العظيمة ، إلا أن الجد قاعد ، والمقدور غير مساعد ، فأصبحت يوما وقد جاء المطر وازدادت الحجرة إظلاما وصدرى بها ضيقاً فقلت :

أنا فى حجرة تجل عن الوصـ   ـف ويعمى البصير فيها نهارا
هى فى الصبح كالظلام وفى الليـ   ـل يولى الأنام عنها فرارا
أنا منهـا كأننى جوف بئر   أتقى عقربا وأحـــذر فارا
وإذا ما الرياح هبت رخاء   خلت حيطانهـا تميد انهيارا
رب عجل خرابهـا وأرحنى   من حذارى فقد مللت الحذارا [٢]

هذه الحال لم تدم فقد أسعد المهلبى الحظ وواتته الأقدار فاتصل بالسلطان حتى وصل إلى رتبة الوزارة وأصبح من الأغنياء الموسرين الذين لا يصدهم عن طلب اللذائذ العجز عن حصول المـال . وأعتقد أن المهلبى لم يكد يصل إلى هذه الحـال حتى اندفع فى طلب اللذائذ ، واندفع إلى غير حد . ولعله قد طلب من الإيسار والغنى أن يكفرا عن الحال السابقة حالة العسر والأملاق . وهذه الصورة التى نضعها بين يديك تريك إلى أى حد بلغ الترف بهذا الرجل الذى لم يكن يجد مايتبلغ به فيما مضى حتى طلب لنفسه الموت ولداره الخراب .

---

(١) ٨ ، ٢/٩ يتيمة الدهر . ط . دمشق .
(٢) ١٣٥ ، ٩/١٣٦ معجم الأدباء . ط . رفاعى .

جاء فى معجم الأدباء نقلا عن كتاب أخبار الوزير المهلبى صورة لهذا الوزير وهو على مائدة الطعام هى « وكان من ظرفه فى فعله ونظافته فى مأكله أنه كان إذا أراد أكل شىء بملعقة كالأرز واللبن وأمثاله وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجا مجرودا وكان يستعمله كثيراً فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ثم يدفعها إلى غلام آخر قام من الجانب الأيسر ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى حتى ينال الكفاية لئلا يعيد الملعقة إلى فيه دفعة ثانية[1] » . وهى صورة إن دلت على شىء فإنما على حالة الاندفاع التى يصل إليها الكثيرون ممن أيسروا من بعد عسر .

وجاء فيه أيضاً « وحدث القاضى أبو على التنوخى قال شاهدت أبا محمد المهلبى قد ابتيع له فى ثلاثة أيام ورد بألف دينار ، فرش به مجالس وطرحه فى بركة عظيمة كانت فى داره ولها فوارات عجيبة يطرح الورد فى مائها وينفضه ، وبعد شربه عليه وبلوغه ما أراده منه أنهبه[2] .

وهى كالسابقة فى الدلالة على نفسية ذلك الرجل الذى يريد أن يصل من اللذائذ إلى آخرها بعد أن وصل من الحرمان إلى أبعد غاياته حتى تمنى لنفسه الموت ولداره الخراب .

ولعل أبيات المهلبى التالية — مع ما فى الأول منها من اضطراب لم نهتد ولم يهتد الناشر إلى صحته — تصور لنا ذلك المثل الذى يطلبه الرجل لنفسه . قال رحمه الله :

---

(١) ١٣/١٠٣ ، ١٠٢ معجم الأدباء . ط . رفاعى .

(٢) ٩/١٣٨ المصدر السابق .

إذا تكامل لى ما قد ظفرت به　　من طيب مسمعة وصوت رنان
وقهوة لو تراها خلت رقتها　　دينى ومن حاجز إن شئت أغنانى
فما أبالى بما لاقى الخليفة من　　بغى الخصى وعصيان ابن حمدان [١]

وهو مثل مما لا يحمد للرجال وبخاصة الوزراء منهم إذ كيف لا يبالى وزير بالحرب وبالثورة على الخلافة فى الوقت الذى ينصرف فيه إلى الخلاعة والمجون : ولكنها شخصية المهلبى التى يتحدث أبو الفرج نفسه عنها وعما كانت تصل إليه فى الخطاب من فحش فى القول وأدب عار مكشوف فيفصح عن هذه الشخصية ويبين [٢] .

إن الثراء الضخم الذى يجىء بعد العدم والفقر والإملاق هو السبب فى كل تلك الصور الزاهية التى نراها فى حياة المهلبى وليس هو التعقيد فى الحضارة كما يقال . وأن الأدب العارى المكشوف هو الذى يرضى هذه البيئة الصغيرة المسرفة فى اللذائذ لأنه الذى يصور واقعها اليوم بعد أن كان يصور خيالها فيما مضى من الأيام . والأخبار التى يسردها المهلبى نفسه والأشعار التى يستعين بها أصحابها على قضاء حوائجهم تحمل هى الأخرى طابع تلك الشخصية المستهترة أو الشخصية الماجنة العابثة شخصية المهلبى . ولقد كان من دأب الرجل أن يكثر من الحديث على الطعام وأن يكثر من المزح فى الخلوات .

حدث أبو على التنوخى قال : كان أبو محمد المهلبى يكثر الحديث على طعامه وكان طيب الحديث وأكثره مذاكرة بالأدب وضروب الحديث على المائدة لكثرة من يجمعهم عليها من العلماء والكتاب والندماء [٣] .

---

(١) ٩/١٤٢ المصدر السابق .　　(٢) ١٠٨ ، ١٣/١٠٩ المصدر السابق
(٣) ٩/١٤٣ معجم الأدباء (ط) رفاعى .

وحدث إبراهيم بن هلال قال : كان أبو محمد المهلبي يناصف العشرة أوقات خلوته ويبسطنا فى المزح إلى أبعد غاية[١] .

وهما حديثان يصوران دأب الرجل وعادته . أما ألوان القصص التى يحكيها أو تحكى له فنستطيع أن نضع بين يديك منها هذه الصور .

قال أبو على سمعت أبا محمد المهلبي يتحدث وهو وزير فى مجلس أنس أن رجلا كان ينادم بعض الكتاب الظراف وأحسبه قال ابن المدبر قال : كنت عنده ذات يوم فرجع غلام له أنفذه فى شيء لا أدرى ما هو فقال له رب الدار ما صنعت ؟ فقال ذهبت ولم يكن ، فقام يجيء ، فجاء ، فلم يجيء ، فجئت . قال فتبينت فى رب الدار تغيراً وهما ولم يقل للغلام شيئاً فعجبت من ذلك . ثم أخذ بيدى وقال قد ضيق صدرى ما جاء به هذا الغلام فقم حتى ندور فى البستان الذى فى دارنا ونتفرج فلعله يخفف مابى ، فقلت والله لقد توهمت أن صدرك قد ضاق بانقلاب كلام الغلام عليك وقد فهمته وهو ظريف . فقال إن هذا الغلام من أحصف وأظرف غلام يكون ، وذاك أنى ممتحن بعشق غلام أمرد وهو ابن نجار فى جيراننا ، والغلام يساعدنى عليه ، وأبوه يغار عليه ويمنعه منى ، فوجهت هذا الغلام وقلت إن لم يكن أبوه هناك فقل له يصير إلينا ، فرجع فلما رآك عندى قدر أنى لم أطلعك على الأمر فرد هذا الجواب الظريف الذى سمعته ، فقلت أعده أنت لأفهمه ، فقال إنه يقول ذهبت إلى الغلام ولم يكن أبوه هناك فقام الغلام يجيء فجاء أبوه فلم يجيء الغلام فجئت أنا . فقلت له هذا الغلام يجب أن يكون أخاً وصديقاً لا غلاما[٢] .

---

(١) ١٣٣ المصدر السابق

(٢) ١/١٢٩ معجم الأدباء ٠ ط ٠ رفاعى

وقال هلال ابن المحسن وحدثنى أبو إسحاق جدى قال حضر الصاحب أبو القاسم بن عباد دار الوزير المهلبى عند وروده إلى بغداد مع مؤيد الدولة فحجب عنه لشغل كان فيه ، وجلس طويلا ، فلما تأخر الإذن كتب إلى رقعة لطيفة فيها :

وأترك محجوبا على الباب كالخصى ويدخل غيرى كالأيور ويخرج

فأقرأتها الوزير المهلبى فأمر بإدخاله .[1]

وحكى أبو إسحاق الصابى فى الكتاب الناجى فقال : كان لمعز الدولة أبى الحسين غلام تركى يدعى تكين الجامدار أمرد ، وضىء الوجه ، منهمك فى الشراب لا يعرف الصحو ولا يفارق اللعب واللهو ، ولفرط ميل معز الدولة إليه وشدة إعجابه به جعله رئيس سرية جردها لحرب بعض بنى حمدان ، وكان المهلبى يستظرفه ويستحسن صورته ويرى أنه من عدد الهوى لا من عدد الوغى فمن قوله فيه :

ظبى يرق الماء فى وجناته ويرق عوده
ويكاد من شبه العذا رى فيه أن تبدو نهوده
ناطوا بمعقد خصره سيفا ومنطقة تؤوده
جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومن يقوده[2]

ولعل من الإنصاف لأنفسنا وللمهلبى أن نقول إن ذلك العبث كان يأخذ مكانه بين جدران أربعة حيث يسكن الرجل وحيث يتخذ من الليل ستاراً . أما المهلبى فى حياته الظاهرة التى تجرى فى وضح النهار فقد كان

---

(١) ٦/٣٠٦ المصدر السابق
(٢) ٩ ، ١/١٠ يتيمة الدهر ط ٠ دمشق ٠

الوزير القدير والرجل الخطير الذى يأخذه الجد وتبدو عليه سمات الوقار فتغمره من قمة الرأس إلى أخمص القدم . يصفه ابراهيم بن هلال فيقول : « . . . فإذا جلس للعمل كان امرءاً وقوراً ومهيباً محذوراً آخذاً فى الجد الذى لا يتخوفه نقص ولا يتداخله ضعف . . . »[1]

ولسنا بحاجة إلى تعليل أو تفسير لهذه الظاهرة التى تأخذ مكانها فى كل مجتمع ، والتى سنراها عند شخصيتين أخريين هما التنوخى والأيذجى ، وهما كما قلنا من أصدقاء أبى الفرج ، كما أنهما من ندماء الوزير المهلبى ، وذلك لأن النفاق الاجتماعى هو الضريبة التى تتحملها أنفس البارزين الظاهرين حينما يريدون التوفيق بين ما يرضى المجتمع وما يرضى الأهواء والغرائز وحاجات الحس والشعور . إنهم يحيون حياتين إحداهما لأنفسهم والثانية للناس . والأولى تجرى على أساس الانطلاق من القيود والانفلات من العادات والتقاليد والثانية تجرى على قواعد العرف وما يفرضه الدين .

هذه صورة المهلبى وقفنا منها عند الملامح التى نحتاجها فى دراسة أبى الفرج فلنتركها إلى ما نحتاجه من صور الخلطاء الآخرين .

* * *

والتنوخى واحد من أولئك الآخرين . وهو أبو القاسم على بن محمد بن داوود بن فهم ويقول عنه الثعالبى إنه من أعيان أهل العلم ، وأن المهلبى الوزير وغيره من وزراء العراق كانوا يميلون إليه جداً ويتعصبون له ويعدونه ريحانة الندماء ونارنج الظرفاء ، ولعل الحكاية التالية أو الصورة التى تصور بها الثعالبى هذا الرجل تغنينا عن غيرها فى الدلالة على خلق الرجل ومزاجه ، وأنه ليس إلا صورة أخرى من صور المهلبى فى هذه النواحى

---

(١) ٩/١٣٣ معجم الأدباء رفاعى .

جاء فى اليتيمة « ويحكى أنه كان فى جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبى ويجتمعون عنده فى الأسبوع ليلتين على إطراح الحشمة والتبسط فى القصف والخلاعة ، وهم ابن فريعة وابن معروف والقاضى الأيذجى وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها وكذلك كان الوزير المهلبى ، فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعقار ، وتقلبوا فى أعطاف العيش بين الخفة والطيش ، ووضع فى يد كل واحد منهم طاس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها مملوء شرابا قطر بليا أو عكبرياً فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ويرش بها بعضهم على بعض ، ويرقصون أجمعهم وعليهم المصبغات ومخانق البرم والمنثور ، ويقولون كلما يكثر شربهم هرهر — وإياهم عنى السرى بقوله :

مجالس ترقص القضـــاة بها   إذا انتشوا فى مخانق البرم
وصاحب يخلط المجون لنـا   بشيمة حـلوة من الشيم
تخضب بالراح شيبه عبثا   أنامل مثل حمـــرة العنم
حتى تخال العيون شيبته   شيبة قد مزجتها بدم

فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم فى التزمت والتوقر والتحفظ بأبهة القضاة وحشمة المشايخ الكبراء [1] .

إنه النفاق الاجتماعى ، وأنه اللهو والعبث إرضاء للنفس البشرية وماركبت عليه من عواطف أولية وغرائز حيوانية ، وإنه التزمت والتوقر إرضاء للمجتمع وحفظا للتقاليد .

* * *

والإيذجى صديق ثالث . وهو أيضا من القضاة ، وهو مثل السابقين فى

---

(١) ١٠٥ – ٢/١٠٧ يتيمة الدهر . ط . دمشق

الخلق والمزاج ، ومن هنا كان يألفهم وكانوا يألفونه ويعجبه من الأقاصيص والنوادر ما يعجبهم وليس يعجبهم إلا ما هو داعر فاجر . جاء فى معجم الأدباء : « حدث أبو على التنوخى حدثنى أبو على الحسين بن سهل بن عبد الله الايذجى وكان يخلف أبا على على القضاء بأيذج ورامهرمز ثم لم يزل على الحكم ونادم أبا محمد المهلبى فى وزارته فغلب عليه وعلا محله عنده وتخالع وتهتك فيما لا يجوز للقضاة . . . »[1]

والقاضى الإيذجى هو الذى يهجوه أبو الفرج ويرميه بأقبح القبائح حين يقول فيه :

اسمع حديثى تسمع قصة عجباً لاشىء أظرف منها تبهر القصصا
طلبت عكازة للوحل تحملنى ورمتها عند من يخبا العصا فعصا
وكنت أحسبه يهوى عصا عصب ولم أكن خلته صبا بكل عصا[2]

تلك هى الصورة التى كان يطالعها أبو الفرج كل يوم تقريبا . وتلك هى الشخصيات التى كان يجلس إليها أبو الفرج مسامراً ونديماً ، والتى كان يعجبها من القصص ما يثير الانفعال ويرضى الغرائز والعواطف ولو بواسطة الخيال .

وأعتقد أنا لم ننس بعد تلك الصداقة التى قامت بين أبى الفرج وبين أستاذه جحظه والتى كان لها فضل السبق فى توجيه مزاج أبى الفرج نحو الفن اللاهى العابث ـ إن كان السبق فى مثل هذا الموقف أو فى مثل هذا التوجيه يعد فضلا . ولعل صورة جحظة السابقة تكفى فى الدلالة على المراد من

---

(١) ٢١٠ ، ١٦/٢١١ معجم الأدباء « ط » رفاعى .
(٢) ١٣/١٣٤ المصدر السابق

حيث التوجـــيه الذى قام به الشيخ واستجاب له الطالب وأعانت عايه ظروف الحياة .

هـذه صورة المجتمع القريب الذى كان يعيش فيـه أبو الفرج . وهى صورة سنرى مثيلاتها فى أبى الفرج فى البـاب الثانى إن شاء الله . سنرى أن روحه من روحهم ومزاجه من مزاجهم وخلقه الشخصى من أخلاقهم وعاداتهم فلننتظر حتى نلتقى هناك إن شاء الله .

الفصل الخامس

رجال السياسة

ورجال السياسة الذين يعقد بعض المؤرخين بينهم وبين أبى الفرج ألوانا من الصلات هم فيما عدا المهلبي سيف الدولة الحمدانى والصاحب بن عباد ثم ابن العميد وركن الدولة ثم الراضى وابن البريدى . هذا فى بيئة المشرق أما فى الأندلس فيعقدون هذه الصلة بينه وبين المستنصر .

(١) ونستطيع أن نبدأ من كل هؤلاء بسيف الدولة الحمدانى ذلك لأن الصلات التى يعقدها بعض المؤرخين فيما بينه وبين أبى الفرج إنما تقوم على إهداء أبى الفرج له كتاب الأغانى . ولسنا بحاجة إلى أن ندل على قيمة هذا الكتاب وأثره فى الحياة الأدبية لا سيما ونحن نعلم أن بحثنا هذا إنما هو عن أبى الفرج الراوية .

ومسألة إهداء الأغانى لسيف الدولة مسألة يجب أن نقف عندها طويلا ، ذلك لأنها كانت مثار تعليقات من القدماء من أمثال المهلبي وابن عباد ، ولأنها تكاد تكون المحور الذى تدور حوله أحاديثنا عن الرجل الذى ألف له كتاب الأغانى ، وعن السياسيين ، ثم لأنها أخيراً لا تثبت أمام البحث التاريخى الدقيق .

وتتلخص مسألة الكتاب فى أن أبا الفرج قد حمل كتابه إلى سيف الدولة ابن حمدان وأن سيف الدولة أعطاه ألف دينار واعتذر إليه [١] وأن

---

(١) ٤٦٣ وفيات الأعيان ط . باريس سنة ١٨٣٨

الصاحب بن عباد حينما بلغه هذا الصنيع علق عليه بما يؤذن بلوم سيف الدولة لأنه قصر فى حق أبى الفرج لأن الكتاب يستأهل أضعافها[١]. وينقل ياقوت عن أبى القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة أنه قال: وقال أبو محمد المهلبى سألت أبا الفرج فى كم جمعت هذا الكتاب؟ فقال فى خمسين سنة. قال وأنه كتبه مرة واحدة فى عمره وهى النسخة التى أهداها إلى سيف الدولة[٢].

ولن نستطيع نحن المضى وراء هذه الأقوال دون تثبت ذلك لأنا نعلم أن أبا الفرج قد كتب فى مقدمة الأغانى أن الذى بعثه على تأليفه رئيس من الرؤساء[٣] ونحن نعلم أن سيف الدولة الحمدانى لم يكن رئيسا لأبى الفرج فى يوم ما حتى يكلفه جمع كتاب فى الأغانى.

على أن طباع سيف الدولة لم تكن فيما نعتقد لتألف هذا النوع من القصص والأخبار. فقد كان الرجل رب قلم ورب سيف، وقد شغل الرجل نفسه بالحروب مدة من الزمن، والذى يعجبه فيما نرى شعر الفخر والحماسة وقصص الأبطال والبطولة وأخبار المعارك والحروب. وهذه الجوانب جميعها هى التى نراها مائلة فى شعر الشعراء الذين كانوا يعيشون فى ظله ويحيون فى بلاطه من أمثال المتنبى وأبى فراس. أما مافى الأغانى من قصص يدور حول المغنين والغناء، ومن حكايات تدور حول الشعر والشعراء من كل ما هو داعر فاجر، فأولى به أن يرضى مزاج رجل من أمثال الوزير

---

(١) ٤٧٦ عيون التواريخ لابن شاكر. مخطوطة رقم ١٤٩٧ تاريخ. دار الكتب

(٢) ١٣/٩٨ معجم الأدباء. ط رفاعى.

(٣) ١/٣ أغانى. ساسى

المهلبى أو الصاحب بن عباد — وخاصة الأول ، وقد رأينا فيما مضى خلقه ومزاجه ثم هو الذى ينطبق عليه وصف أبى الفرج له بالرياسة .

نعم نحن نعلم أن ما يذكره الأغانى فى المقدمة لا يتعارض وهذا الرأى ، فمن الجائز أن يكون أبو الفرج قد أهدى كتابه لغير الشخص الذى بعثه على تأليفه وكلفه جمعه وعند ذلك يكون من الجائز وقوع مثل هذه المسألة وأن يكون أبو الفرج قد أهدى حقاً وأن يكون سيف الدولة قد أجاز وقد اعتذر .

نعم يجوز كل هذا ولكنا نعلم أن هناك أموراً أخرى تضعف هذا الجائز وترجح منه جانب عدم الوقوع .

هناك مثلا ذلك القول الذى يقوله محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد ابن زاكور عند شرحه لقلائد العقيان فإنا نراه يقول « والصاحب لقب اسماعيل بن عباد الوزير البليغ الذى ألف له أبو الفرج الأصبهانى كتاب الأغانى[1] » وهو قول قد يكون أكثر انسجاما من القول السابق مع ما كتبه أبو الفرج فى المقدمة من أن الذى بعثه على التأليف رئيس من الروساء ، ثم لأن مزاج الصاحب وخلقه يتلاءمان مع ما فى الأغانى من قصص وأخبار .

ثم إن هذا القول من ابن زاكور يجعلنا نفكر فى هذه الأقوال التى رواها ياقوت من أن الصاحب قد قال حين بلغه أن سيف الدولة قد أعطى أبا الفرج ألف دينار فقط « لقد قصر سيف الدولة وأنه يستأهل أضعافها[2] » ومن أن عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة قد قال

---

(١) تزيين قلائد العقبان بفرائد البيان . مخطوط ٣١٣ تاريخ تيموريه .
(٢) ١٣/٩٧ معجم الأدباء . ط . رفاعى

عن أبى الفـــرج والـكتاب » وأنه كتبه مرة واحدة فى عمره وهى النسخة التى أهداها إلى سيف الدولة[١] » ذلك لأن مضمون هذه الفقرة الأخيرة أن أبا الفرج كتب الأغانى مرة واحدة هى النسخة التى أهداها إلى سيف الدولة وأن سيف الدولة أجازه وأن ابن عباد أحس بتقصير سيف الدولة وعبر عن ذلك بجملته تلك . ومضمون قول ابن زاكور أن الـكتاب إنما كتب للصاحب بن عباد . وبينهما من الاختلاف ما لست فى حاجة إلى أن ندلك عليه .

ثم هناك هـذه العداوة بين الحمدانيين فى حلب والبويهيين فى بغداد وهى العداوة التى أشار إليها مسكويه فى حديثه عن حوادث سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وماتلاها ، كما أشار إليها المهلبى نفسه فى شعر له ذكرناه فى الفصل السابق عند حديثنا عن الخلطاء . وليس يخفى أن التنافس العلمى بين حلب وبغداد فى ذلك الوقت كان عظيما ، وأن إهداء أبى الفرج كتابه إلى عدو المهلبى وعدو معز الدولة يعتبر بعيداً عن المألوف — لاسيما ونحن نعلم أن أبا الفرج كان مختصا بالمهلبى يعيش فى كنفة ويستظل بحمايته وأن هذا الإهداء قد يعرضه لشر مستطير .

ولعل هـذه المسألة تزداد وضوحا وبياناً لو تأملنا فيما صنعه المتنبى حين قدومه بغداد من إعراضه عن مدح المهلبى ومن وقوف الحاتمى منه ومن تصوير الحاتمى لمسألة التنافس بين البلاطين بقوله : « وتخيل أبو محمد المهلبى أن أحداً لا يقدر على مساجلته (المتنبى) ومجاراته ولا يقوم لتتبعه بشىء من مطاعنه ، وساء معز الدولة أن يرد عن حضرة عدوه رجل فلا يكون

---

(١) ٩٨ المصدر السابق

فى مملكته أحد يماثله فى صناعته ويساويه فى منزلته، نهدت حينئذ متتبعاً عواره . . . إلى أن يقول : وتشاغلت بقية يومى بشغل عن لى تأخرت معه عن حضرة المهلبى ، وانتهى إليه الخبر ، وأتتنى رسله ليلا فأتيته فأخبرته بالقصة على الحال فكان من سروره وابتهاجه بماجرى مابعثه على مباكرة معز الدولة قائلا له أعلمت ماكان من فلان والمتنبى قال نعم قد شفا منه صدورنا[1] .

إذ كل هذه أمور تدفع بالقارىء إلى أن يتريث وأن يقف موقف الحذر فلا يندفع إلى الايمان بأن أبا الفرج قد أهدى الأغانى إلى سيف الدولة حقاً — لا سيما ومن المؤرخين من يذكر أن أبا الفرج كان بحضرة المهلبى حين قدم المتنبى إلى بغداد وأنه قد كان بينه وبينه لون من الجدل والنقاش .[2]

المسألة كما ترى غير واضحة . ومن هنا كان لابد لنا من الرجوع إلى قاعدتنا تلك القائلة بأن تاريخ المسألة جزء مهم من حلها ، فلعل هذا التاريخ أن يوضح المبهم ويظهر الخفى ويزيح الشك عن أنفسنا .

ليس لهذه المسألة وجود فى كتاب الفهرست لابن النديم ـ وابن النديم معاصر لأبى الفرج وتوفى بعده بزمن قصير ، ولا نريد فى هذا الموطن أن نستنتج من ذلك أن إهداء أبى الفرج كتابه لسيف الدولة لم يكن لأنا نعلم أن من عادة ابن النديم أن يستغنى فى كثير عن الشائعات أو المشهور المتداول ، ثم إن الرجل لم يكن يهتم كثيراً بمسألة المنح والجوائز فلقد كان الذى يعنيه مسألة الكتب وموضوعاتها لأنه من الوراقين .

وليس لهذه المسألة وجود فى يتيمة الدهر للثعالبى لا فى حديثه عن أبى الفرج ولا فى حديثه عن سيف الدولة ، ولن نستطيع أن نقول هنا ما قلناه

---

(١) ١٦٠ – ١٨/١٧٩ معجم الأدباء . ط . رفاعى

(٢) ١/٣٨٥ خزانة الأدب . ط . الأولى ببولاق

فى ابن النديم فنحن نعرف أن صاحب اليتيمة كان معجباً بسيف الدولة معنياً بأمره ، وأنه قد عقد فصلا خاصا لهذه المنح التى تعطى للشعراء عنوانه « فصل فى انفجار ينابيع جوده على الشعراء » وأنه قد ذكر فى هذا الفصل أن سيف الدولة كان قد أمر بضرب دنانير للصلات فى كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته[١] ومن هنا يكون من الحتم أن نحاول تعليل هذا السكوت من الثعالبي — لاسيما ونحن نعلم أن الثعالبى قد ذكر من الشعراء من هو أقل من أبى الفرج قدرة فى الميدان الأدبى ، بل نعلم أنه ذكر فى هذا الفصل أسماء الوافدين من الأعراب .

لقد ولد الثعالبى فى حياة كل من سيف الدولة وأبى الفرج وعاصر بعض من يعرف عن الرجلين أخبارهما ، واهتم بالتاريخ لهما ، وذكر عن كل منهما ماهو من جنس هذه المسألة ، فإن تكن قد حدثت وسكت فلابد من التعليل ، وإلا كان الوضع لهذه النصوص القائلة بأن أبا الفرج قد أهدى كتابه لسيف الدولة هو الأمر الماثل للأذهان .

كذلك يسكت كل من الخطيب البغدادى[٢] والذهبى[٣] . وسكوتهما يضاعف من قيمة شكنا وارتيابنا فى تلك الأقوال الذاهبة إلى إقامة الصلة بين كل من سيف الدولة وأبى الفرج .

على أنا لو رجعنا إلى تلك الكتب التى جمعت من أخبار سيف الدولة الأدبية والتاريخية الأمور الكثيرة فإنا لن نجد لهذه المسألة ظلا فى النصوص

---

(١) ١١ — ١٣ جـ١ يتيمة الدهر . ط . دمشق .
(٢) ٣٩٨ — ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد
(٣) لوحات ١٧٥ ب ، ١٧٦ ا تاريخ الاسلام الكبير للذهبى مصورة رقم ٤١ تاريخ دار الكتب .

المنقولة عن كتب الأقدمين مع عناية أصحاب هذه الكتب بما هو من جنس هذه المسألة[١].

المسألة كما قلت فى حاجة إلى وقفة طويلة ومن هنا يحسن بنا أن نترك هذه الكتب الصامتة إلى الكتب الناطقة فلعلها أن تكون هى الهادية المرشدة.

إن أقدم كتاب وقفنا على هذه المسألة فيه هو معجم الأدباء لياقوت.
وذكر ياقوت لها لا يدل عليها فى صراحة ذلك لأن الرجل لم يعبر عن رأيه وإنما ذكر لنا نصوصا وجدها فى مقدمة كتاب ، وهى نصوص لابد من ذكرها فى هذا الموطن لنتدبر الأمر سوياً ، ولنعرف كيف نشأت هذه المسألة — مسألة إهداء أبى الفرج كتاب الأغانى لسيف الدولة ، وكيف مضت فى الكتب حتى عصرنا الحاضر.

جاء فى معجم الأدباء (وقال الوزير أبو القاسم « الحسين بن على بن الحسين » المغربى فى مقدمة ما انتخبه من كتاب الأغانى إلى سيف الدوله بن حمدان فأعطاه ألف دينار وبلغ ذلك الصاحب أبا القاسم بن عباد فقال لقد قصر سيف الدولة وأنه يستأهل أضعافها ووصف الكتاب فأطنب ثم قال ولقد اشتملت خزائنى على مائتين وستة آلاف مجلد منها ما هو سميرى غيره ولا راقنى منها سواه.

قال وقال أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة لم يكن كتاب الأغانى يفارق عضد الدولة فى سفره ولا حضره وأنه كان جليسه الذى يأنس إليه وخدينه الذى يرتاح نحوه.

---

(١) راجع (ا) نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار سيف الدولة الحمدانى لماريوس كنار الأستاذ بكلية الآداب بالجزائر . ط . الجزائر سنة ١٩٣٤
(ب) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء . ط . العلمية بحلب سنة ١٩٢٣ .

قال وقال أبو محمد المهلبي سألت أبا الفرج فى كم جمعت هذا الكتاب فقال فى خمسين سنة .

قال وأنه كتبه مرة واحدة فى عمره وهى النسخة التى أهداها إلى سيف الدولة .

قال المؤلف لعمرى أن هذا الكتاب ...[١]

إن المعنى الحرفى لهذا النص هو فيما نرى أن الحسين بن على بن الحسين المغربى قد انتخب من كتاب الأغانى وأنه انتخب ذلك لسيف الدولة وأن سيف الدولة أعطاه ألف دينار وأنه كتب ذلك وكتب تعليقات مشاهير الأدباء فى ذلك العصر من أمثال المهلبى والصاحب بن عباد وعبد العزيز بن يوسف فى المقدمة .

نعم إن النص مضطرب وغير مستقيم ولا يدل على هذا الأمر بوضوح وجلاء . ثم نعم أن الوزير المغربى لم يدرك سيف الدولة فقد توفى سيف الدولة سنة ست وخمسين وثلاثمائة[٢] . وولد الوزير المغربى سنة سبعين وثلاثمائة(٣) ولكن هذا النص على ما فيه من عدم الصحة وعدم الدقة كان الباعث لياقوت على أن يذهب إلى ما ذهب إليه من أن أبا الفرج قد أهدى كتابه الأغانى لسيف الدولة . ومما ساعده على هذا الفهم هذه التعليقات التى ذكرت آنفا عن كل من المهلبى والصاحب وعبد العزيز بن يوسف ، فإن ذكرها باعد بين ياقوت وبين الفهم الدقيق والتحرى الصادق لهذا النص .

---

(١) ٩٧ ، ١٣/٩٨ معجم الأدباء ٠ ط ٠ رفاعى ٠

(٢) ٦/٢٣٩ تجارب الأمم ط التمدن سنة ١٩١٥

(٣) ١٠/٨٠ معجم الأدباء ٠ ط ٠ رفاعى

على أن من جاء بعد ياقوت قد أخرج من النص شيئين : الأول أن أبا الفرج قد أهدى كتابه لسيف الدولة وأن سيف الدولة أعطاه جائزة قدرها ألف دينار . والثانى أن الوزير المغربى قد اختصر كتاب الأغانى . ومن الواضح أن من ذهب إلى هذا قد فطن إلى أن الوزير المغربى لم يدرك سيف الدولة وأن النص لا يستقيم على هذا التفسير(١) .

إن فى المسألة سراً لابد من إدراكه والكشف عنه ، ولعل هذا السر أن يكون فى تلك المقدمة التى نقل عنها ياقوت هذا النص . فأين هو هذا الكتاب ، ؟ ولمن يكون ؟ أيكون للحسين بن على بن الحسين الوزير المغربى أم يكون لغيره ؟ وإذا كان لغيره فمن هو هذا الغير ؟ .

هذا هو السؤال الذى لابد من الإجابة عنه لنفهم هذه المسألة ونبين الرأى الصحيح .

إن الذين ترجموا للوزير المغربى من القدماء وبخاصة أولئك الذين يعدونه شيخاً لهم من أمثال أبى العباس أحمد بن على بن أحمد بن العباس النجاشى لم يذكروا لنا انتخاب الوزير لكتاب الأغانى وإنما ذكروا لنا من المختارات الأدبية اختيار شعر أبى تمام واختيار شعر البحترى واختيار شعر المتنبى والطعن عليه ، وذلك كله إلى جانب كتب له أخرى يذكرها النجاشى تلميذ الوزير المغربى(٢) . وحتى ياقوت نفسه لم يذكر هذا الكتاب للوزير المغربى(٣) . وليس وراء ذلك كله إلا الشك والاتهام فى هذه الأقوال السابقة

---

(١) راجع مقدمة الأغانى . ط . دار الكتب وهى المقدمة التى كتبها الناشرون .

(٢) ٥١ رجال النجاشى . ط . الهند سنة ١٣١٧ هـ .

(٣) ٧٩ — ١٠/٩٠ معجم الأدباء . ط . رفاعى .

التى نقلها ياقوت عن مقدمة كتاب يرى أنه للحسين بن على بن الحسين الوزير المغربى وأنه كان منتخباً لسيف الدولة الحمدانى .

لنقرأ سوياً هذا النص عن ابن الخازن البغدادى المتوفى سنة اثنتين وخمسمائة فلعله أن ينير أمامنا السبيل .

والحسين بن على بن الحسين أبو الفوارس الكاتب صاحب الخط المشهور المعروف بالجودة والحسن وكان فريد عصره فى الكتابة . قال ابن خلكان وغيره كتب فيما كتب خمسمائة نسخة من كتاب الله عز وجل ما بين جامع وربعه . وقال غير ابن خلكان وكتب من الأغانى الكبير ثلاث نسخ وجعل إحداها لسيف الدولة ونهبت من خزانته فجمع ببغداد منها ستة عشر مجلداً [١] .

أعتقد أن هذا النص هو الخيط الذى يجب أن نمسك به لنهتدى إلى الطريق ، ذلك لأن اسم المغربى واسم ابن الخازن يتفقان أو يتشابهان إلى حد كبير ، فهذا الحسين بن على بن الحسين وذاك أيضاً الحسين بن على بن الحسين . وكل منهما كان حسن الخط ولقد قال ياقوت عن الوزير المغربى فى ترجمته له . وكان حسن الخط سريع البديهة [٢] وقد كتب اسم ابن الخازن فيما نتوقع وكما هى العادة على نسخة الأغانى التى انتهبت من خزائن سيف الدولة ، كما كتب اسم سيف الدولة . وهنا يصح لنا أن نذهب إلى أن هذه النسخة هى التى وقعت فى يد ياقوت ، ويرجح ذلك أن صاحب معجم الأدباء يشعرنا من حديثه عن كتاب الأغانى بأن النسخة التى وقعت له كانت مضطربة

---

(١) لوحة ٣٢ ج ١ ابن الفرات — تاريخ الدول والملوك — مصور رقم ٣١٩٧ . تاريخ دار الكتب .

(٢) ١٠/٨٠ معجم الأدباء . ط . رفاعى

وأنه ينقصها شيء[١] . وأنه لتشابه الأسماء المغربى وابن الخازن وسيف الدولة وسيف الدولة ، وأنه لجودة خط كل من ابن الخازن والمغربى ، وأنه لصلة والد الوزير المغربى وأهله بسيف الدولة الحمدانى[٢] . ذهب ياقوت إلى ما ذهب إليه ، وجاء من بعده فجروا خلفه ، حتى تجىء دائرة المعارف الإسلامية فتعبر عن أبى الفرج بهذه العبارة « ونال رعاية سيف الدولة الحمدانى » ويجىء من بعدها من المحدثين فينقلون العبارة فى كتبهم أو مقالاتهم من أمثال الأستاذ أحمد أمين فى كتابه ظهر الإسلام ، والأستاذ سيد صقر فى مقدمة كتاب مقاتل الطالبيين ، والأستاذ محمد بك كرد على فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، ولجنة دار الكتب فى مقدمة كتاب الأغانى .

أعتقد أن الأمر ما شرحت ، وأن اللبس أو التفسير الذى قام به ياقوت هو أساس المسألة كما جاءت فى كتب الأدباء والمؤرخين .

ويبقى بعد ذلك أن نعرف من هو سيف الدولة هذا الذى كتب له ابن الخازن نسخة من كتاب الأغانى فلعل هذه المعرفة أن تزيدك اقتناعا أو تزيد المسألة فى ذهنك وضوحاً وبيانا .

سيف الدولة هذا هو أبو الحسن صدقه الذى يقول عنه ابن خلكان « كان يقال له ملك العرب وكان ذا بأس وسطوة وهيبة[٣] » وهو أبو الحسن صدقه الملقب فخر الدين بن بهاء الدولة أبى كامل منصور بن دبيس بن مزيد الأسدى صاحب الحلة السيفية . وله نظم الشريف أبو يعلى محمد بن الهبارية كتاب الصادح والباغم[٤] . ويقول عنه ابن الأثير (وكان له من الكتب

---

(١) ٩٨ ، ١٣/٩٩ معجم الأدباء . ط . رفاعى .
(٢) ج٣ ص ١٥٥ وما بعدها خطط المقريزى .
(٣) ، (٤) ٣٢٤ ، ١/٣٢٥ ابن خلكان . ط . الأميرية .

المنسوبة الخط شيء كثير ألوف مجلدات ، وكان يحسن يقرأ ولا يكتب ، وكان جواداً حليما صدوقا كثير البر والإحسان ، ما برح ملجأ لكل ملهوف ، يلقى من يقصده بالبر والتفضل يبسط قاصد به ويزورهم ، وكان عادلا والرعايا معه فى أمن ودعة ، وكان عفيفا لم يتزوج على امرأته ولا تسرى عليها فما ظنك بغير هذا . ولم يصادر أحداً من نوابه ولا أخذهم بإساءة قديمة ، وكان أصحابه يودعون أموالهم فى خزانته ويدلون عليه إدلال الولد على الوالد ، ولم يسمع برعية أحبت أميرها كحب رعيته له ، وكان متواضعا محتملا يحفظ الأشعار ويبادر إلى النادرة ، رحمه الله لقد كان من محاسن الدنيا[1]) .

وتوفى سيف الدولة هذا سنة إحدى وخمسماية .

الصلة التى يعقدها بعض المؤرخين بين سيف الدولة الحمدانى وأبى الفرج على أساس إهداء الكتاب وإجازة أبى الفرج عليه غير ثابتة ولا تقوم من هذه المقدمة التى ذكر ياقوت ما فيها من أقوال . كما لم نر قيامها من نصوص أخرى أو من فن أبى الفرج نفسه ، وهذا هو المعقول لو وضعنا نصب أعيننا ما ذكرناه سابقاً من أمور تلك العداوة وذلك التنافس بين الحمدانيين والبويهيين ، ولسنا فى حاجة إلى أن ندل على مركز أبى الفرج من تلك العداوة التى كانت تستتبع حروباً وذلك التنافس الذى دعا إلى الكيد للمتنبي ببغداد ، فلقد يكفى أن نذكر القارىء بأن أبا الفرج كان مختصاً بالمهلبي الوزير البويهى ومنقطعا له ، وأنه كان من الذين يكيدون للمتنبي بحضرة هذا الوزير .

أما تلك النصوص أو هذه التعليقات التى جمعها الجامع فى المقدمة فلم تكن إلا لتعلى من قدر الكتاب حتى يكثر الطلب فيكثر النسخ ، وأعتقد أنها

---

(١) ١٠/١٥٨ الكامل لابن الأثير — حوادث سنة احدى وخمسمائة .

نصوص موضوعه وليست بمجموعة وأن الذى وضعها هو ابن الخازن نفسه ، ذلك لأن هذه النصوص لم تكن فيما يبدو على فرض جمعها إلا بعد وفاة أبى الفرج ، ولقد توفى أبو الفرج بعد سيف الدولة الحمدانى وبعد الوزير المهلبي .

إن ابن الخازن هو صاحب المصلحة فى هذا وهو الذى وضع هذه النصوص فيما أعتقد ، ومن هنا نراه يوزعها على ألسنة كبار الكتاب فى ذلك العصر : المهلبي والصاحب وعبد العزيز بن يوسف . وينص على أن أبا الفرج لم يترك إلا نسخة واحدة هى تلك التى أهداها لسيف الدولة ، وكأنه يريد أن يقول إنه يملك هذه النسخة فليسرع إلى الحصول على صورة منها من يريد .

هذا هو الرأى الذى أميل إليه فى هذه المسألة وهو رأى لا أستطيع القطع به وإنما أقول بترجيحه لما قدمت من قرائن .

* * *

(٢) والصاحب بن عباد هو الشخصية التى تجيء بعد شخصية سيف الدولة وليس ذلك إلا لأنه يشترك وإياه فى مسألة كتاب الأغانى فكل منهما هو الشخص الذى ألف من أجله أبو الفرج هذا الكتاب عند بعض الإخباريين أو بعض الرواة .

والنصوص التى يرد فيها اسم الصاحب مرتبطا بأبى الفرج هى النصوص التى أشرنا إليها قبلا من تعليق الصاحب عند سماعه بخبر جائزة سيف الدولة لأبى الفرج حين أهداه الكتاب ومن وصفه للكتاب وإطنابه فى هذا الوصف وقوله « ولقد اشتملت خزائنى على مائتين وستة آلاف مجلد ما منها ما هو سميرى غيره ولا راقنى منها سواه »[1] ومن قول ابن زاكور فى

---

(١) ١٣/٩٧ معجم الأدباء ٠ ط ٠ رفاعى

شرح قلائد العقيان من أن الصاحب بن عباد هو الذى عمل له أبو الفرج كتاب الأغانى .

وحديث الصاحب عن الجائزة وعن كتاب الأغانى مستبعد من هذا الميدان ، وليس ذلك اعتماداً منا على ما سبق أن رجحناه من أن مسألة إهداء كتاب الأغانى لسيف الدولة الحمدانى غير ثابتة ، وأنها نتجت من التباس بين الأسماء وخطأ فى تفسيرها ، وإنما لسبب آخر هو أن هذا الحديث لا يثبت صلة ما بين أبى الفرج وبين الوزير الأديب الصاحب بن عباد ، فلقد يكون هذا القول مع صحة ثبوته ممن لم يتصل بأبى الفرج فهو لا يعدو أن يكون تعليقاً من رجل يهتم بالعلم والأدب على حادثة سمع بها ، وليس من اللازم أن يكون صاحب هذه التعليقة ممن يعرفون المهدى والمجيز .

أما قول ابن زاكور فهو الذى يجب أن نقف عنده ذلك لأنه يثير أمامنا مسائل جديرة بالبحث فيما يخص هذا الكتاب .

وأول هذه المسائل أنا لو نظرنا إلى خلق الصاحب ومزاجه وإلى مكانته العلمية والاجتماعية فى هذا الوقت لما استبعدنا أن يكون أبو الفرج قد ألف له هذا الكتاب ؛ فلقد كان الصاحب من الذين يحبون العلم والأدب ومن الذين يعطفون على الشعراء والعلماء . ولقد كانت مجالسه منتدى الكثيرين منهم ، وكان يعطيهم عن سعة حتى ليقال إنه أنفق أمواله على الشعراء والأدباء والزوار والقصاد وأنه مدح بمائة ألف قصيدة ما بين عربية وفارسية[1] . ولقد كان أبو الفرج يقول الشعر ويؤلف الكتب سعياً وراء المال .

ولو نظرنا إلى الصلات القائمة بين الصاحب وبين الوزارة والإمارة فى

---

(١) ٦/٢٦٣ معجم الادباء . ط . رفاعى

بغداد لما وجدنا هذه الخصومات التى كانت تشوب الموقف فيما بين بغداد وحلب . ولعل الأمر أن يكون على العكس فإنها الدعابات الحلوة التى تكون بين الأصدقاء والخلان ، ولعلنا لم ننس بعد أمر تلك الرقعة التى دفع بها الصاحب إلى أبى إسحاق الصابى ليوصلها إلى المهلبى والتى كان فيها :

وأترك محجوباً على الباب كالخصى ويدخل غيرى كالأيور ويخرج[1]

فإنها رقعة تدل على حسن الصلات ، وتدل من جانب آخر على عدم الحرج فى أن يعمل أبو الفرج كتاب الأغانى للصاحب الأمر الذى لا نشعر به فى مسألة إهداء الكتاب لسيف الدولة الحمدانى .

لا تستبعد المسألة من حيث هذه النواحى وإنما نقيم استبعادنا لها على أمور أخرى هى :

أولا : أنها لم تظهر إلا متأخرة وذلك وإن لم يكن سبباً كافياً للاستبعاد إلا أنه سبب قوى لبدء الاتهام .

ثانياً : إن تصوير التواريخ للمسألة يدفع إلى استبعادها ، ذلك لأنا نعلم أن أبا الفرج قد نص فى مقدمة كتاب الأغانى على أن الذى بعثه على تأليف هذا الكتاب رئيس من الرؤساء ولن نستطيع أن نتصور أن ابن عباد كان رئيساً قبل أن يبلغ الثلاثين من العمر فلقد كان فى بدء أمره كما يقول ياقوت من صغار الكتاب وكان يخدم أبا الفضل ابن العميد ثم ترقت به الحال فكتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة[2] وهو أمير ، وظل هكذا حتى مات ركن الدولة وولى مؤيد الدولة بلاده بالرى وأصفهان وتلك النواحى فأبق

---

(١) ٣٠٦ المصدر السابق

(٢) ١٧٢ ، ١٧٣ المصدر السابق

على ابن العميد حتى قتل وعند ذلك استوزر الصاحب وذلك فى سنة ستين وثلاثمائة[١] ويقال أنه قد اشتغل فى بدء أمره معلما فى قرية[١] . وإذا كان هذا هو المسطور من أمر الصاحب فإن مضمونه أن يكون الصاحب قد طلب ذلك وهو رئيس أى فى سنة ستين وثلاثمائة وأن يكون أبو الفرج قد بدأ يجمع كتاب الأغانى فى هذه السنة وليس يخفى أن أبا الفرج قد توفى بحسب الرواية الشائعة التى صححها الخطيب البغدادى سنة ست وخمسين وثلاثمائة

وإذا ما وضعنا إلى جانب التصوير السابق ما يشير إليه ياقوت من أن هذا الكتاب قد أخرج والمهلبى على قيد الحياة تبين لنا إلى أى حد تصبح هذه الروايات متضاربه وبعيدة عن الواقع لأن المهلبى قد توفى فى سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة(٣) .

ثالثاً — أن أمر إخفاء اسم هذا الرئيس فى المقدمة يجعله غير الصاحب فلقد توفى أبو الفرج والصاحب فى عز مجده وسلطانه ، وكان يسعد أبا الفرج فيما نعتقد أن يهدى الكتاب للصاحب وأن يذكره فى مقدمة الكتاب باسمه لا بصفته تلك التى يفسرها بالرياسة .

إنا نرى أن أبا الفرج لم يخف اسم هذا الرئيس إلا اتقاء لغضب أو خوفا من مكروه ، وأن هذا الرئيس كان من المغضوب عليهم يوم أن أخرج أبو الفرج هذا الكتاب للناس . ذلك هو ما نميل إليه فى أمر هذا الرئيس وهو ما سنتناوله بالشرح بعد لحظات .

---

(١) ٦/٢٧٤ تجارب الأمم . ط . التمدن سنة ١٩١٥ .

(٢) ١/١٧١ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز . ط . لجنة التأليف .

(٣) ٦/١٩٧ تجارب الأمم . ط . التمدن سنة ١٩١٥ .

أعتقد أنا نستطيع أن نقول إنه ليس لدينا من النصوص ما نقيم به صلة بين أبى الفرج وبين الصاحب وإن كنا لا نستطيع أن نستبعد قيام هذه الصلة من حيث مكانة الصاحب الاجتماعية والأدبية وأنه كان موئل العلماء ومقصد الشعراء أو الأدباء.

كما أنه ليس لدينا مما بقى من فن أبى الفرج نفسه ما يثبت هذه الصلة الأدبية وهو الأمر الذى يدعونا إلى التوقف ويدفعنا إلى الحذر والحيطة من تصديق كل ما يقال.

* * *

(٣) والشخصية الثالثة أو الشخصيتان الثالثة والرابعة هما شخصيتا ابن العميد ومخدومه ركن الدولة بن بويه. وياقوت هو الذى يذكر هذه المسألة حين يقول «قرأت بخط هلال بن المظفر الكاتب الزنجانى. حدثنى الأستاذ أبو المظفر عبد الغفار بن غنيمة قال كان أبو الفرج الكاتب الأصبهانى صاحب كتاب الأغانى كاتبا لركن الدولة حظيا عنده محتشما لديه وكان يتوقع من الرئيس أبى الفضل بن العميد أن يكرمه ويبجله ويتوقر عليه فى دخوله وخروجه وعدم ذلك منه فقال:

مالك موفور فما باله	أكسبك التيه على المعدم
ولم إذا جئت نهضنا وإن	جئنا تطاولت ولم تتمم
وإن خرجنا لم تقل مثل ما	نقول قدم طرفه قدم
وإن كنت ذا علم فمن ذا الذ	ى مثل الذى تعلم لم يعلم
ولست فى الغارب من دولة	ونحن من دونك فى المنسم
وقد ولينا وعزلنا كما	أنت فلم نصغر ولم تعظم
تكافأت أحوالنا كلها	فصل على الأنصاف أو فاصرم[1]

(١) ١١٠، ١٣/١١١ معجم الأدباء. ط. رفاعى.

وقد روى أبو حيان فى كتاب الوزيرين من تصنيفه من خبر هذه الأبيات غير هذا . والشخصية التى يشير إليها أبو حيان هى شخصية رجل آخر له مثل الاسم والكنية . وهى شخصية على بن الحسين بن هندو . وكنيته أبو الفرج ولعل هذا التشابه فى الأسماء هو الذى أوقع الكاتب الزنجانى فى الخطأ [١] .

على أن مسألة الارتياب فى صلة هذه الأبيات بصاحب الأغانى لا تقف عند ذلك الحد بل تعدوه إلى ما أورده ابن خلكان من أن هذه الحادثة وهذا الشعر إنما كان من أبى الفرج أحمد بن محمد الكاتب [٢] .

ولعلنا لو فكرنا فى المسألة من حيث دلالة الأبيات نفسها وما فيها من عزل وتولية ـ ومن حيث المدة التى كان فيها أبو الفضل بن العميد وزيراً وأنها هى عينها تلك التى كان فيها المهلبى وزيراً ببغداد ، وأن أبا الفرج كان فى ذلك الوقت منقطعاً إليه ومختصاً به ، لوقفنا من هذه الأبيات ومن هذه الحادثة موقف من لا يرى فيها خيراً من حيث دلالتها على صلة صاحب الأغانى برجال السياسة والسلطان .

نتوقف هنا كما توقفنا فيما مضى ونقول هنا ما قلناه آنفا من أنه لم يثبت لدينا ما يقيم الصلات بين كل من سيف الدولة الحمدانى وأبى الفضل بن العميد والصاحب بن عباد وبين أبى الفرج صاحب الأغانى . ونحترس هنا أيضاً فنقول إنا لا نستبعد قيام هذه الصلات وإنما نستبعد فقط أن تكون هذه النصوص التى تروى صحيحة وأن تكون هى الدالة على هذه الصلات .

* * *

(٤) ويبقى بعد ذلك من الشخصيات السياسية بالمشرق شخصيات يثبت

---

(١) راجع ٦/٢٧٩ مسكويه ١٣/١٣٦ معجم الأدباء .

(٢) ٢/٨٥ وفيات الأعيان . ط . الأميرية .

فن أبى الفرج نفسه قيام الصلة بينه وبينها وهذه الشخصيات هى شخصيات أبى عبد الله البريدى وأبى محمد الوزير المهلبى .

أما البريدى فقد كان من رجال السياسة الذين أقلقوا بال الخلفاء وثاروا عليهم أكثر من مرة وجمعوا الجموع وتغلبوا على جند الخلافة فى بعض المواقع ، وكان الخلفاء يخشون بأسه ويريدون مصالحته إتقاء لشره ودفعا لخطره ، وكانت هذه المصالحة تقليد البريدى الوزارة وكان ذلك فيما يحكى مسكويه سنة سبع وعشرين وثلاثمائة [١] . وهنا قال أبو الفرج قصيدة يهجو فيها البريدى الوزير . ويشير إلى أن مصالحته بتقليده الوزارة ليست من الأمور التى تحمد للخليفة ، وأنها لن ترد عن الخلافة كيد هذا الوزير . ويذكر ياقوت أن أبيات هذه القصيدة قد بلغت المائة [٢] .

وقبل أن نضع بين يدى القارىء ما تبقى من أبيات هذه القصيدة نحب أن نثير فى ذهنه مسألة قد تعيننا على الوقوف على اللون الفنى الذى يسود هذه القصيدة وهل هى من الشعر السياسى أو من شعر الهجاء ؟ وهذه المسألة هى : لماذا اهتم أبو الفرج بهذه الحادثة دون غيرها من الأحداث ؟

لقد وقعت فى أيام أبى الفرج أحداث أحالت الدولة إلى دويلات ووقع فيها من العسف والظلم والاضطهاد ما ينطق الصم البكم فضلا عن الأدباء فلماذا لاذ بالصمت ولماذا لم يصور غير هذه الحادثة من الأحداث ؟

لا نستطيع الذهاب إلى أنه قد فعل وأن هذا الشعر قد ضاع فليست حادثة البريدى أعز على الرواة والإخباريين من غيرها من الأحداث حتى يحفظوا ما قيل فيها من شعر ويتركوا ما قيل فى غيرها من الأحداث . إن

---

(١) ٦/٤٠٩ تجارب الأمم التمدن .
(٢) ١٣/١٢٧ معجم الأدباء . رفاعى .

اللون الفنى فى هذه القصيدة هو فيما نعتقد الذى سيشرح لنا موقف أبى الفرج ومقصده وهل قصد إلى السياسة أو إلى الهجاء ؟

هذه هى الأبيات التى وردت فى كل من الفخرى ومعجم الأدباء .

يا سماء اسقطى ويا أرض ميدى   قد تولى الوزارة ابن البريدى
جل خطب وحل أمر عضال   وبلاء أشاب رأس الوليد
هد ركن الإسلام وانهتك الملك   ومحيت آثاره فهو مودى

ويقول :

وتوهمت أن سيخدعه ذا   ك فيغتاله اصطياد الصيود
هو أزنى مما تقدر أما   ليس ممن يصاد بالتقليد[1]

كما جاء فيها :

يالقومى لحر صدرى وعولى   وغليلى وقلبى المعمود
حين سار الخميس يوم خميس   بالبريدى فى ثياب سود
قد حباه بها الإمام اصطفاء   واعتماداً منه لغير عميد
خلع تخلع العلا ولواء   عقده حل عقدة المعقود[2]

وهى أبيات وإن تكن قليلة إلا أنها تصور لنا رأى أبى الفرج فى الموقف وفى ابن البريدى بصفة خاصة . فأبو الفرج يرى أن هذا التقليد شر على الإسلام والمسلمين ، وهو يرى أن الخليفة قد جرى على غير الطريق المستقيم ، وأنه لا يعرف خلق البريدى وطبعه ، وهو يدلنا على أن هذا التقليد قد آلمه هو

---

(١) ١٢٧ ، ١٢٨ معجم الأدباء . ط . رفاعى .

(٢) ٢٥١ ، ٢٥٢ الفخرى فى الآداب السلطانية الطبعة الثانية المعارف .

بصفة خاصة . لماذا ؟ ذلك هو السر الذى نريد أن نعرفه وهو السر الذى سيفسر لنا اهتمام أبى الفرج بهذه الحادثة خاصة .

إن أبا الفرج يرى أن طبع البريدى من الطباع السيئة ويعبر عن ذلك بعبارة مؤلمة قاسية فالبريدى فى طباعه الأم وأخبث مما يقدر الخليفة هو ابن زناء ولن يفيد فيه معروف ولن يكسب منه الخليفة خيراً . ولكن هل هذا هو الذى دفع أبا الفرج إلى هذه القصيدة ؟ أو أن أبا الفرج كما أشار هو أراد أن يشفى نفسه مما تجد ؟

أعتقد أن هناك شيئا آخر هو الذى ملأ نفس أبى الفرج بعواطف السخط على البريدى ، وأنه انتهز هذه الفرصة فرصة التقليد ليشفى نفسه من هذه العواطف . وأعتقد أن هذا الشىء لم يكن إلا الجوار فلقد كان أبو الفرج جارا للبريدى يسكن وهذه العائلة فى درب واحد من دروب بغداد وكانت داره ملاصقة لدار البريدى[1] . فهل كان هذا الجوار هو السبب فى كل هذا ؟ وأنه الذى ملأ قلب أبى الفرج موجده على هذه العائلة ؟ وأنه وجد المتنفس فى هذه الحادثة ؟ أعتقد هذا ويزيدنى إيمانا بهذا الاعتقاد حرص أبى الفرج على الابتعاد عن خضم السياسة وما تثيره من مشكلات ، وهو حرص أشرنا إلى بعض أسبابه عند حديثنا عن الأسرة - وسنزيده إيضاحا فى الباب الثانى إن شاء الله .

صلة أبى الفرج بالبريدى صلة عداء ، وفنه هو فن الهجاء . ولعله أن يكون من المستحسن أن نذكر هنا ما قاله البريدى حين انتهت إليه هذه القصيدة وما فعله حين سمع هذا البيت .

---

(١) ١٣/١٠٤ معجم الأدباء ٠ ط ٠ رفاعى ٠

هو أزنى مما تقدر أما ليس ممن يصاد بالتقايد

فيقال إنه حين سمع هذا البيت ضحك وضرب بيديه ورجايه وقال . لو عرف أبو الفرج ما فى نفسى وأزال الوحشة وصار إلى لبالغت فى صلته والأفضال عايه من أجل هذا البيت[١] .

* * *

وأما المهلبى فقد قدمنا فى الفصل السابق عن صلة أبى الفرج به الشىء الكثير وقد يكفى فى هذا الموقف أن نشير إلى أنا نعتقد أنه الشخصية التى ألف أبو الفرج لها كتاب الأغانى ، وأنه الرئيس الذى أشار إليه فى مقدمة الكتاب فقد كان أبو الفرج منقطعا للمهلبى مختصا به[٢] . وكان المهلبى يختاره فى كل شىء مريح ، وكانت صحبته له قبل الوزارة وبعدها وظل هكذا إلى أن فرق بينهما الموت[٣] . وكان أبو الفرج يؤلف له الكتب ومن ذلك مناجيب الخصيان[٤] . وإن كان أبو الفرج لم يذكر إسم المهلبى واكتفى بصفة الرياسة ذلك لأن الرجل قد مات مغضوبا عايه من معز الدولة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة واعله من أجل هذا الغضب نفسه سكت أبو الفرج عن أن يقول فى المهلبى شيئا من الرثاء .

ذلك فهم أفهمه وهو ينتهى بى إلى فرض إلا أنى أطمئن إليه وأشعر أنه أقرب الفروض فى هذه المسألة إلى الصواب .

وقبل أن نختم هذا الفصل نشير إلى علاقة أبى الفرج برجال السياسة من خلفاء الأندلس وأنه كان يهدى إليهم كتبه ويجيئه الأنعام عليها سرا[٥] .

---

(١) ١٢٨ معجم الأدباء . ط . رفاعى .
(٢) ٢/٢٧٨ اليتيمة . ط . دمشق .
(٣) ١٣/١٠٥ معجم الأدباء . ط . رفاعى .
(٤) ١٠٠ المصدر السابق .
(٥) ١١/٣٩٨ الخطيب ، ١٣/١٠٠ معجم الأدباء .

ويذكر ابن خلدون كما يذكر صاحب نفح الطيب عن المستنصر ما يلى (وكان يبعث فى شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه وبعث فى كتاب الأغانى إلى مصنفه أبى الفرج الأصفهانى، وكان نسبه فى بنى أمية، وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق[1].

لقد اتصل أبو الفرج بالمهلبى وخلفاء بنى أمية بالأندلس ولكنه الاتصال الأدبى الذى يقوم على تأليف الكتب ونيل الجوائز عليها . أما ماعدا ذلك من أمور السياسة والسلطان فليس لدينا من النصوص ما يثبته . وقد يكفى ما قدمنا من أحاديث لبيان موقف أبى الفرج من رجال السياسة الذين يربط فيما بينه وبينهم أقوال بعض المؤرخين من القدماء .

---

(١) ٤/١٤٦ تاريخ ابن خلدون ، ١/١٨٠ نفح الطيب .

الباب الثانى

حياة أبى الفرج

الفصل الأول

أصبهان وسر من رأى

نستطيع الآن بعد أن شرحنا بعض العوامل المؤثرة فى حياة أبى الفرج من حيث هو إنسان ، وحققنا بعض المسائل المتعلقة بتاريخه ، أن نعمد إلى هذه الحياة فنرسم لها صورة وأن نضع هذه الصورة فى إطارات من الحدود الزمانية والمكانية ـ تلك التى تحدثنا عنها فى الفصل الأول من الباب الأول ـ نضعها فى هـذه الإطارات حتى نتبين شخصية أبى الفرج ونقف على الجوانب المهمة من حياته ، وعند ذلك نستطيع الوقوف عند هـذه الجوانب لنتعرف عليها واحداً واحدا ونصوره الصورة التى تجعله من الأسس الصالحه لبيان ماكان يجرى عليه أبو الفرج فى مروياته من خصائص أو تقاليد .

وأول الإطارات فيما نرى إطار أصبهان ثم إطار سر من رأى ، وحديثنا عن هذين أو عن هاتين المدينتين يتطلب منا الوقوف فى حذر واحتياط — إن لم يكن فى دقة واتقان — على ما لعبته كل من المدينتين من دور فى حياة أبى الفرج ، وذلك لأن المواد التى سنعتمد عليها فى بيان هذا الدور ليست إلا القرائن التى لم تصل بعد إلى مرتبة الأدلة التى تدفع إلى الإقناع واليقين .

(ا) والدور الذى لعبته أصبهان فى حياة أبى الفرج إنما يرجع فى الغالب إلى حياة الأسرة ، وأرجو ألا نكون قد نسينا ما قلناه فى الفصلين الأول والثانى من الباب الأول من أن كثيرين من أسرة أبى الفرج لأبيه كانوا ينتسبون إلى هذه البلدة ، وأن منهم جده وعمه وعم أبيه وابن عمه ، وأن نسبة

أبى الفرج إليها إنما كانت عن طريق الوراثة حيث لم يثبت لدينا أنها كانت عن طريق المولد .

ويرجع هذا الدور من حياة الأسرة إلى عهد قديم ، إلى ما قبل سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ، كما سنرى بعد لحظات قصار ، أى إلى ما قبل مولد أبى الفرج بأكثر من خمسين سنة ، الأمر الذى يدفعنا إلى أن نسقط من حسابنا أثرها فى حياة أبى الفرج ، وأن نقف من هذا الأثر عند حياة أسرته لأبيه .

هذا الدور الذى لعبته أصبهان فى حياة أسرة الأب غير واضح الحدود أو بين المعالم ، ولن نستطيع أن نقول أكثر من أن هذه البلدة كانت من المواطن التى استقر فيها بعض الأمويين من نسل الخلفاء عند اضمحلال هذه الدولة وبعد انحلالها ، وأنها أيضاً كانت من المواطن التى لأهلها تعلق بالأمويين ومحبة لهم .

جاء فى الأغانى عند حديث أبى الفرج عن عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر بن أبى طالب وخروجه بالكوفة فى آخر أيام الدولة الأموية وانتقاله إلى نواحى الجبل ومقامه بأصبهان قبل انتقاله إلى خراسان ما يلى (وقال ابن أبى خيثمة عن مصعب . وقصده وجوه قريش من بنى أمية وغيرهم فممن قصده من بنى أمية سليمان بن هشام بن عبد الملك وعمر بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان فمن أراد منهم عملا قلده ومن أراد منهم صلة وصله ، فلم يزل مقيما فى هذه النواحى حتى ولى مروان بن محمد الذى يقال له مروان الحمار ، فوجه إليه عامر بن صبارة فى عسكر كثيف فسار إليه حتى إذا قرب من أصبهان ندب له ابن معاوية أصحابه وحضهم على الخروج إليه ، فلم يفعلوا ولا أجابوه ، فخرج على دهش هو وأخوته قاصدين لخراسان وقد ظهر

أبو مسلم فيها . . .)[١] وهو نص يثبت فيما نرى أمرين : الأول . . ذهاب بعض الأمويين إلى أصبهان عند اضطراب الأمور وانحلال الخلافة . والثانى شيء من الولاء بين الطالبيين والأمويين .

وفى صفحة من صفحات أخبار أصبهان لأبى نعيم نجد هذا النص (محمد ابن الوليد الأموى الخياط المدينى روى عن ابن أبى عيينة وهشام بن سليمان . حكى ابنه عنه أنه قال أنا من ولد سليمان بن عبد الملك بن مروان ولا تخبر به أحداً فإنى رجل خياط وإياك أن يسمع منك أحد[٢]) . وهو نص يثبت أيضا أمرين : الأول . إقامة بعض الأمويين من سلالة الخلفاء فى أصبهان فى عصر أبى الفرج وفى عصر قريب منه حيث يروى هذا عن ابن أبى عيينة المعاصر لدعبل واسحاق بن ابراهيم وغيرهم ممن عاشوا فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى[٣] . والثانى . أن هؤلاء الأفراد كانوا من الصناع وممن يشتغلون بالعلم وأنهم كانوا يكتمون أمورهم مخافة أن يعرف عنهم أنهم من نسل خلفاء بنى أمية فينالهم الاذى من أعوان السلطان .

أما المقدسى فيذهب بنا إلى أبعد من هذا حيث يذكر لنا أن فى أهل أصفهان بلها وغلوا فى حب معاوية[٤] .

هذا كل ما نستطيع قوله فى هذه المسألة ، وهو قول يأذن لنا فى أن نقول إنه من الجائز أن يكون أحد أجداد أبى الفرج قد أقام بهذه البلدة ، وأنه هاجر منها إلى غيرها من مدن العراق ، وأن هذه الهجرة هى التى جاءت

---

(١) ١١/٧٠ أغانى . ساسى .
(٢) ٢/١٨٢ أخبار أصبهان لأبى نعيم .
(٣) ٨ — ١٨/٢٩ أغانى . ساسى .
(٤) ٣٩٩ أحسن التقاسيم للمقدسى .

بالنسبة إلى الأسرة فكان محمد بن أحمد الأصبهانى جد أبى الفرج وعبد العزيز ابن أحمد الأصبهانى عم أبيه والحسن بن محمد الأصبهانى عمه وأبو عبد الله أحمد بن الحسن بن محمد الأصبهانى ابن عمه .

أما من هو هذا الجد ؟ وما هى تلك المدينة ؟ فهى الأمور التى نرجو أن تستبين ولو بعض الشىء عند حديثنا عن المدينة الثانية مدينة سر من رأى .

* * *

(ب) والدور الذى لعبته سر من رأى أوضح وأبين من ذلك الذى لعبته أصبهان ، ويجيئه الوضوح والبيان من أمرين : الأول . أن النصوص التى تثبت لنا هذا المقام وتوضح لنا أشياء من حياة الأسرة ومنزلتها الاجتماعية كثيرة ودالة . الثانى . أن هذه المدينة لم تكن مقام أسرة أبيه فحسب وإنما كانت مقام أسرة أمه أيضا . بل كانت مقام كثيرين من الذين ينتسبون إلى الوزارة والكتابة ولهم أثر فى حياة أبى الفرج أو فى حياة الأسرتين .

والأشخاص الذين نلتقى بهم من أسرة الأب فى سر من رأى هم الحسن ابن محمد الأصبهانى عم أبى الفرج وعبد العزيز بن أحمد عم أبيه وأحمد بن الهيثم جد أبيه ومحمد بن أحمد الأصبهانى جده .

أما الحسن فنراه مع ابن برد الخيار وهارون بن محمد بن عبد الملك الزيات فى مجلس عبيد الله بن سليمان [١] . كما نراه يرقب حركات أبى العبر الهاشمى [٢] . ثم نراه واحدا من الكتاب فى أيام المتوكل .

أما عبد العزيز بن أحمد فنراه حيث نرى ابن أخيه الحسن بن محمد الأصبهانى نراه مع أبى العبر فى سر من رأى ، ونراه على أنه أحد الكتاب بسر من رأى فى عصر المتوكل [٣] .

---

(١) ٩/٣١ الأغانى . ساسى . (٢) ٢٠/٩١ المصدر السابق .

(٣) راجع ص ٩٨ ، ٩٩ من جمهرة النسب لابن جزم .

وأما احمد بن الهيثم جد أبيه فنراه فى منزله بسر من رأى ونرى معه اسحاق ابن ابراهيم الموصلى وجماعة من الصحب والخلان ينعمون بالشراب وسماع الغناء الشهى من اسحاق . وأبو الفرج نفسه هو الذى يهيء لنا هذا اللقاء حيث نراه يقول :

أخبرنى على بن صالح بن الهيثم الأنبارى قال حدثنى أحمد بن الهيثم — يعنى جد أبى رحمه الله — قال كنت ذات يوم جالسا فى منزلى بسر من رأى وعندى اخوان لى وكان طريق اسحاق فى مضيه إلى دار الخلافة ورجوعه منها على ... الخ [١] .

وأما محمد بن أحمد الأصبهانى جد أبى الفرج فنراه فى مواطن كثيرة وفى مواقف خالدة . فنراه مرة مع عبيد الله بن سليمان بعد توليه الوزارة . نراه ويقص عليه هذا بعض أخبار المعتضد مع بدر [٢] . ومعنى ذلك أنا نراه بعد سنة تسع وسبعين ومائتين وهى السنة التى ولى فيها عبيد الله الوزارة للمعتضد [٣] وهو حين يتحدث عن عبيد الله لا ينسى أن يقص علينا اتفاقهما فى النشأة فهو تربه الذى شهدت سر من رأى طفولته معه .

ثم نراه فى منزله يجتمع فيه مع العلية من القوم من طالبيين وعباسيين . فنراه ونرى معه الحسين بن الحسين بن زيد بن على . ومحمد بن على بن حمزة العلوى العباسى وأبو هاشم داوود بن القاسم الجعفرى . ونراه يدير دفة القول والقوم يسمعون له فيثير كلامه فى أنفسهم ما يثير [٤] . كل ذلك فى سر من

---

(١) ٢/٢١ أغانى . ساسى .
(٢) ٩/٣٣ ، ٣٢ المصدر السابق .
(٣) ٨/١٦٣ الكامل لابن الأثير .
(٤) ٦٩٨ ، ٦٩٩ مقاتل الطالبيين . ط . مصر .

رأى وفى عصر المتوكل، كما يشهد بذلك حديث راوى الخبر عن معاشرة زيد ابن الحسين لأولاد المتوكل وكيف أن هذه المعاشرة كانت تحمل الحسين نفقات باهظة .

ثم نراه أخيراً مع إبراهيم بن العباس الصولى ومحمد بن عبد الملك الزيات وهو يريد أن يتثبت من صحة حكم هذا الأخير فى أبى تمام . ولا ينسى محمد بن أحمد الأصبهانى أن يذكر لنا فى هذا الموطن أنه كان يقوم من إبراهيم مقام الولد من الوالد[1] .

وإذا أردنا أن نؤرخ للأسرة بهذه المدينة كانت حياة محمد بن أحمد الأصبهانى بها أوضح السبل إلى هذا التاريخ لأنها تدلنا على أنه كان بسر من رأى قبل مقتل محمد بن عبد الملك الزيات أى قبل سنة ثلاث وثلاثين ومائتين[2] ثم كان بها طفلا يلهو مع عبيد الله بن سليمان ، ومضمون هذا أنه كان بهذه المدينة مع بعض الأهل أو مع أبيه .

وإذا كنا نعلم أن المعتصم قد بدأ بإنشاء هذه المدينة سنة إحدى وعشرين ومائتين ، وبدأ بها على أنها معسكر للجيش ثم بنى له وللوزراء والقواد والكتاب القصور ، وأنه استقدم لها الأهالى من كل إقليم ، وطلب إلى أهل كل إقليم أن يعمروا عمارة إقليمهم[3] . إذا كنا نعلم كل هذا جاز لنا أن نقول إن أسرة أبى الفرج لأبيه كانت من الأسر التى عمرت سر من رأى أول عهدها بالحياة . وأن أول جد هبط هذه المدينة كان أحمد بن الهيثم

---

(١) ٩٦ ، ١٥/٩٧ أغانى . ساسى .

(٢) ٧/١٤ ابن الأثير . ط . ١٩٠ ا هـ .

(٣) ٣/١٩٩ اليعقوبى . ط . النجف سنة ١٣٥٨ .

والد محمد ابن أحمد الأصبهانى جد أبى الفرج ، ولا يمكن أن يكون هذا الهابط جداً قبله فيما تؤذن ظروف الحال .

هذه صلة أسرة الأب بسر من رأى . أما صلتها بأسرة الأم فتتلخص فى أنها كانت مقامهم أيضاً يوم أن كان أفرادها يشتغلون بالكتابة فى قصور الخلفاء أو فى دواوين الوزراء ، فأحمد بن محمد بن ثوابه كان من كتاب الديوان فى أيام المهتدى وله مع الخليفة ومع وزيره سليمان بن وهب أحداث يرويها أبو الفرج نفسه[١] . ثم إنه كان من الذين أباح المهتدى دمهم مع الحسين ابن مخلد وسليمان بن وهب سنة ست وخمسين ومائتين[٢] . وليس يخفى أن سر من رأى كانت مقر الوزراء والكتاب فى ذلك الحين .

ولقد كان يحيى بن محمد ثوابه جد أبى الفرج لأمه أيضاً[٣] من الكتاب وكان من الذين يقيمون بسر من رأى كما هو الواضح من حديث محمد ابن القاسم بن مهرويه السابق ـ ومحمد من شيوخ سر من رأى فى ذلك الوقت .

كانت أسرة الأب تقيم بسر من رأى وكانت أسرة الأم تقيم أيضاً بسر من رأى وكل واحدة من الأسرتين قد جاءت من إقليم غير ذلك الذى جاءت منه الأخرى . فجاءت أسرة الأب من أصبهان كما تؤذن بذلك نسبتها إليها وجاءت أسرة الأم من قرية النيل تلك التى خلدها البحترى فى شعره حين هجا آل ثوابه[٤] .

---

(١) ٣٠/٦٩ أغانى . ساسى .
(٢) ص ١٨٣ ـ المجلد الثالث الطبرى ط . أوربا .
(٣) ١٨/٤٣ أغانى . ساسى .
(٤) راجع ١١٨ ، ١١٩ جـ ١ ، ١٠٨ جـ ٢ ديوان البحترى . ط . الجوانب سنة ١٣٠٠ هـ .

أفلا يؤذن ذلك كله بشيء ؟ إنه يؤذن فيما أعتقد بالقول بأن المصاهرة بين الأسرتين قد تمت بسر من رأى . كما يؤذن بالقول بأن سر من رأى قد كانت موطن الميلاد . ولست أريد الاسترسال فأقول بأن أبا الفرج حين سكن بغداد منذ الصبى[١] . قد جاءها من سر من رأى فقد يكون غيرها طريق أبى الفرج إلى بغداد .

أما مقام أبى الفرج أو مقام أبيه بسر من رأى فهو الأمر الذى لا نعلم عنه شيئاً ، فليس بين أيدينا من النصوص ما يشير ولو عن بعد إلى الحالات التى كان عليها المقام .

نعم نحن نعلم أن سر من رأى قد أثرت فى أبى الفرج بثقافتها . أثرت فيه لا من حيث أنها موطن مهم من مواطن القصور التى كانت تقع فيها الأحداث ويقوم فيها الغناء — فهى من هذه الناحية قد لا تمتاز عن دمشق وبغداد . ولا من حيث أن الأصوات المائة التى دار حولها الكلام فى الأجزاء الأولى من كتاب الأغانى قد اختيرت للواثق والواثق من خلفاء العباسيين الذين كلفوا بالغناء وبرعوا فيه[٢] . ومن الذين كانت عاصمة ملكهم سر من رأى . فقد يستطيع أبو الفرج أيضاً أن يقوم بعملية التاريخ وجمع الأخبار حول الغناء والمغنين ولو لم يذهب إلى سر من رأى ، فقد كانت هذه الأخبار من الميادين التى يجول فيها العلماء ويصولون ، ونظرة واحدة إلى ما كتبه ابن النديم عن هذه الحركة تثبت صحة ما نقول[٣] .

---

(١) لوحة ٢٧٥ ب ، ٢٧٦ ا تاريخ الاسلام الكبير للذهبى .

(٢) ١٥٦ — ٨/١٦٩ الأغانى . ساسى .

(٣) ١٠١ — ١٢٢ الفهرست لابن النديم . مصر .

نعم نحن لا ننكر أن هذه الحركة الغنائية كانت شديدة فى سر من رأى حتى لقد كان القوم أحزابا منهم من هو مع عريب ومنهم من هو مع شاريه لا يدخل أصحاب هذه فى هؤلاء ولا أصحاب هذه فى هؤلاء [١] . ولكننا نعلم أيضاً أن هذه الحركة كانت قد خفتت بسر من رأى فى عصر أبى الفرج ، وأنها كانت قد انتقلت فى ذلك الوقت مع الخلفاء والوزراء والكتاب إلى بغداد . ومن هنا كان الذين علموا أبا الفرج فن الغناء من البغداديين — كما سنرى فى الفصل الثالث إن شاء الله .

إنما أثرت سر من رأى فى أبى الفرج عن طريق شيوخها الذين أخذ عنهم من أمثال عمه الحسن بن محمد الأصبهانى ومن أمثال حبيب بن نصر المهلبى وأحمد بن عبد العزيز الجوهرى . ولن نستطيع أن نقول متى أخذ عن هؤلاء فتاريخهم مجهول لا نعرف منه إلا الجمل القصيرة التى لا تحدد لنا تاريخ الوفاة — الأمر الذى يمكن الاعتماد عليه فى تحديد الزمن الذى تلقى فيه أبو الفرج العلم عن شيوخ سر من رأى .

نعم نحن نعلم أن أبا الفرج قد روى لهم فى كتابه الذى أخرجه للناس سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وهو كتاب مقاتل الطالبين ، ويدل هذا على أنه قد أخذ عنهم حتما قبل ذلك التاريخ ، ولكن ذلك لا يفيدنا فى الحديث عن النشأة أو التربية الأولى وإن أفادنا فى الحديث عن أثرهم فى أبى الفرج أو تأثر أبى الفرج بهم ، فقد يكون أبو الفرج قد أخذ عنهم وهو كبير ، وقد يكون أبو الفرج قد التقى بهم وأخذ عنهم فى بغداد كما هو الظاهر من حال الحسن ابن محمد الأصبهانى عمه فقد ترجم له الخطيب على أنه ممن زاروا بغداد

---

(١) ١٤/١٠٩ ، ١٣/٢٩ أغانى . ساسى .

وأخذ عنهم أبو الفرج[١] وقد يكون أبو الفرج قد أخذ عنهم عن طريق الإجازات والمكاتبات .

ليس لدينا من النصوص ما يثبت زمن هذا الأخذ ولا حتى محله ، وكل ما نعتمد عليه ليست إلا القرائن التى تثبت هذا الأثر والتى تقف منه عند حد الإثبات .

لقد كان حبيب بن نصر المهلبى وأحمد بن عبدالعزيز الجوهرى من الذين يأخذ عنهم أبو الفرج أخباراً رووها عن الشيوخ الذين ألموا بسر من رأى أو أقاموا فيها من أمثال أبى العيناء وعمر بن شبه ومحمد بن داود الجراح وهارون بن محمد بن عبد الملك الزيات وغيرهم ، ولقد كان هؤلاء من الذين لم يترجم لهم الخطيب أو غيره ومن هنا عجزنا عن القطع فى إثبات أمر آخر غير الأخذ عنهم ، ولعل من العقبات التى تحول بيننا وبين الاعتقاد بأن أبا الفرج قد أخذ عنهم فى الصغر أنا سنرى فى الفصل التالى أن نشأة أبى الفرج الأولى كانت بالكوفة ، وأنه لم يثبت لدينا ولو حتى عن طريق اللفتة العابرة أو الأشارة الغامضة أنها كانت بسر من رأى أو بأصبهان .

وقد يكون من الخير أن نعترف فى هذا الموطن بأنا لم نعثر على آثار الحسين بن محمد الأصبهانى والد أبى الفرج فى سر من رأى ، وأنا لم نلقه أول لقاء إلا فى بغداد ـ الأمر الذى سنشير إليه فى الفصل الثالث إن شاء الله .

هذه آثار سر من رأى فى الأسرة وفى أبى الفرج صورناها كما أمدتنا بذلك المعلومات التاريخية التى وقفنا عليها ، وليس يسعنا إلا تركها والانتقال إلى غيرها من المدن التى قد تلقى ضوءا على حياة أبى الفرج ـ تلك الحياة التى ظلت غامضة حتى على المحدثين من الباحثين والأدباء .

---

(١) الخطيب البغدادى ٧/٤١٧ .

الفصل الثانى

الكوفة

وتمتاز الكوفة عن كل من أصبهان وسر من رأى بأمور .

تمتاز أولا بأن إقامه أبى الفرج بها ثابتة ولقد نص هو نفسه على ذلك كما سبق أن رأينا عند حديثنا عن الحدود المكانية فى الفصل الأول من الباب الأول . ومن هنا لم نحتج إلى شىء من الفروض النظرية لنصل إلى ماهو الجائز أو المحتمل .

وتمتاز ثانيا بأنها مدينة النشأة والتربية الأولى فيما نعتقد يدفعنا إلى ذلك حديث الأقدمين من المؤرخين عن شيوخه لا سيما المحدثين منهم ونصهم على أن أكثر هؤلاء من الكوفيين [1] . وأن أقدمهم محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمى ومحمد بن جعفر القتات [2] . كما يدفعنا إليه حديث أبى الفرج نفسه عن محمد بن الحسين الكندى الذى يصفه بأنه مؤدبه [3] والذى يصرح فى مواطن كثيرة بوصفه بأنه خطيب مسجد القادسية [4] .

يضاف إلى ذلك أن الكتاب الذى أخرجه أبو الفرج للناس ولم يبلغ الثلاثين من العمر وهو مقاتل الطالبيين إنما يقوم على الثقافة الكوفية ، ويأخذ

---

(١) لوحة ٢٧٥ ب تاريخ الاسلام الكبير للذهبى مصورة رقم ٤٢ تاريخ دار الكتب .

(٢) ٢/٢٢٣ ميزان الاعتدال .

(٣) ١٣/٩ أغانى . ساسى ، ١٣/١٠ بولاق وسيرد النص بتمامه فى هذا الفصل .

(٤) ١٤/٨٥ ، ٢١/٣٩ أغانى . ساسى .

فيه أبو الفرج عن الشيوخ الكوفيين من أمثال أحمد بن محمد بن سعيد الهمذانى ومحمد بن الحسين الكندى وعلى بن العباس المقانعى واحمد بن عيسى بن أبى موسى العجلى والحسين بن الطيب بن الشجاعى البلخى ومحمد بن على بن مهدى وكثير غيرهم ممن نص أبو الفرج نفسه على أنه قد أخذ عنهم بالكوفة[١]. وفى ذلك من الدلالة على أنه قد تثقف بالثقافة الكوفية أولا ما فيه.

هذه الأمور مجتمعة هى التى دفعتنا إلى أن نجعل الحديث عن أبى الفرج بالكوفة قبل الحديث عنه فى بغداد.

وتمتاز ثالثاً بأن التحديد الزمنى لهذه الإقامة يكاد يكون معروفاً معرفة واضحة ، فأبو الفرج قد أخرج كتاب المقاتل الذى يحمل بين طياته الثقافة الكوفية سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة كما يذكر هو فى المقدمة — ومعنى ذلك أنه كان بالكوفة يتلقى العلم قبل أن يجلس للاملاء ببغداد.

وأبو الفرج أيضاً يحدثنا بأنه كان مع أبيه ببغداد بعد سنة ثلاثمائة حين زارها أبو الفياض سوار بن أبى شراعه[٢] الشاعر الأخبارى البصرى — ومعنى ذلك أن مقام أبى الفرج بالكوفة لم يتأخر إلى ما بعد سنة ثلاثمائة بكثير.

وتمتاز رابعاً بأن الألوان الثقافية التى كان يأخذها أبو الفرج بها تكاد تكون معروفة ، كما تكاد تكون معروفة أيضاً العلل والأسباب التى دفعت بأبى الفرج إلى هذه الألوان وإلى الكوفة نفسها.

---

(١) ٣٤ ، ١٣/٦٩ ثم ١٧/٦٨ ثم ١٨/١٦٢ المصدر السابق . وراجع أيضا ١٣١ مقاتل الطالبين .

(٢) ٢٠/٣٥ أغانى . ساسى .

والأسباب نستطيع أن نلتمسها من حياة الأسرة ومما ذكرناه فى الفصل الثالث من الباب الأول . فقد ذكرنا هناك أن أسرة الأب كانت على صلات حسنة بالطالبيين ، وأن منزل جده محمد بن أحمد الأصبهانى كان الندوة التى يجتمع فيها هؤلاء فى بعض الأحايين ، وفسرنا الحب بين الأمويين والطالبيين بأنه الحب الذى ينشأ أولا من الضرورات السياسية ثم يصبح بعد ذلك من الأمور التى لا تثير ما فى النفوس من إحن وعداوات . وأن موقف كل من الطالبيين والأمويين من العباسيين هو الذى قرب بينهما وجعلهما فى منزلة الأصدقاء والأحباء .

ولقد ذكرنا هناك أيضاً أن أسرة أبى الفرج لأمه كانت من الأسر الشيعية التى نالها الاضطهاد لتشيعها ووقع على بعض أفرادها أذى من الخلفاء ، وأن أبا الفرج قد ورث تشيعه عن أسرة أمه ، ولقد عاون على هذا ذلك الميل إلى الطالبيين الذى وجد فى أسرة أبيه . وإذا فقد كان من المعقول أن تتدخل هذه العوامل فى اختيار البيئة الثقافية وأن يقع الاختيار على الكوفة لأنها البيئة الشيعيه الأولى ولأنها مقر الطالبيين .

ونستطيع أن نضم إلى ذلك أيضاً أن الكوفة أقرب البيئات الثقافية إلى قرية النيل وهى قرية آل ثوابه تلك التى خلدها البحترى فى شعره ، كما سبق أن أشرنا . وليس يخفى أن آل ثوابه هم أسرة الأم .

هذه هى العوامل التى تفسر لنا الاختيار — إن كان قد وقع — وترشح له .

والألوان الثقافية التى أخذها أبو الفرج بالكوفة هى الأحاديث النبوية والأخبار الدينية المذهبية التى تدور فى الغالب حول مقاتل الطالبيين .

أما الحديث فقد كان محصول أبى الفرج منه قليلا ولعله من هنا لم يترك لنا كتاباً فى الحديث، ويذكر ابن حجر أن ما رواه الدار قطنى فى غرائب مالك عن أبى الفرج الأصبهانى كان عدة أحاديث[١] . على أن هذه الثقافة قد أفادت أبا الفرح من جانب آخر فلقد مكنت له من أن يجرى على طريقة المحدثين فى رواية الأخبار — الأمر الذى سنقف عنده طويلا فى الباب الثالث إن شاء الله .

وأما الأخبار التى أخذها أبو الفرح عن الكوفة والكوفيين فيغلب عليها طابع الجد وذلك هو الواضح من المرويات التى يرويها أبو الفرج عن شيوخ الكوفة لا بالنسبة إلى ما أورده فى كتاب المقاتل بل بالنسبة إلى ما أورده فى كتابه الذى يحرص فيه كل الحرص على الأخبار العابثة المستهترة وهو كتاب الأغانى ، ونستطيع أن نعرض عليك بعض مروياته التى أخذها عن الكوفيين والتى أوردها فى كتابه الأخير .

حدثنى الحسين بن الطيب الشجاعى البلخى بالكوفة قال حدثنا أيوب ابن محمد الطلحى قال حدثنا عبد القاهر بن السرى السلمى قال حدثنا عبد الله ابن كنانة عن عباس بن مرداس أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا لأمته عشية عرفة قال فأجبت لهم بالمغفرة إلا ما كان من مظالم العباد بعضهم لبعض قال فإنى آخذ للمظلوم من الظالم قال أى رب إن شئت أعطيت للمظلوم من الجنة وغفرت للظالم فلم يجب فى حينه فلما أصبح فى المزدلفة أعاد الدعاء فأجيب لهم بما سأل فضحك النبى صلى الله عليه وسلم أو تبسم . فقال أبو بكر رضى الله عنه بأبى أنت وأمى أن هذه الساعة ما كنت تضحك فيها أو تبسم

---

(١) ٤/٢٢١ لسان الميزان .

فقال إن إبليس لما علم أن الله غفر لأمتى جعل يحثو التراب على رأسه ويدعو بالويل والثبور فضحكت من جزعه[١] .

حدثنا الحسين بن الطيب البلخى قال حدثنى أبو غسابه قال بلغنى أن أول من أخذ بعينه فى الإسلام عمرو بن عثمان بن عفان أتاه عبد الله بن الزبير الأسدى فرأى عمرو تحت ثيابه ثوبا رثا فدعا وكيله وقال اقترض لنا مالا ، فقال هيهات ما يعطينا التجار ، قال فأربحهم ما شاءوا ، فاقترض له أولا ثمانية آلاف درهم وثانيا عشرة آلاف فوجه بها إليه مع تخت ثياب ، فقال عبد الله ابن الزبير فى ذلك :

سأشكر عمرا إن تراخت منيتى ... أيادى لم تمنن وإن هى جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ... ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلتى من حيث يخفى مكانها ... فكانت قذى عينيه حتى تجلت[٢]

أخبرنى محمد بن الحسين الكندى مؤدبى قال حدثنى على بن محمد النوفلى ، قال حدثنى عمى قال دخل الحكم بن قنبر على عمى وكان صديقاً له فبش به ورفع مجلسه وأظهر له الأنس والسرور ثم قال أنشدنى أبياتك التى أقسمت فيها بما فى قلبك فأنشده :

وحق الذى فى القلب منك فإنه ... عظيم لقد حصنت سرك فى صدرى
ولكنما أفشاه دمعى وربما ... أتى المرء مايخشاه من حيث لايدرى
فهب لى ذنوب الدمع إنى أظنه ... بما منه يبدو إنما يبتغى ضرى
ولو يبتغى نفعى لخلى ضمائرى ... ترد على أسرار مكنونها سرى

---

(١) ١٣/٦٩ الأغانى . ساسى .
(٢) ٣٣ الأغانى . ساسى

فقال لى يابنى اكتبها واحفظها ففعلت وحفظتها يومئذ وأنا غلام[١] .

أخبرنى محمد بن الحسين الكندى خطيب مسجد القادسية قال حدثنى الرياشى قال حدثنى الأصمعى قال كان أهل الجاهلية يسمون الغنوى طفيل الخيل لشدة وصفه الخيل[٢] .

أخبرنى أحمد بن عيسى العجلى بالكوفة قال حدثنا سليمان بن الربيعى البرجمى قال حدثنا نصر بن مزاحم عن عمرو بن مسعده عن أبى مخنف عن عبد الرحمن بن عبيد أبى الكنود ، وأخبرنى . . . أن المختار بن أبى عبيد خطب الناس يوماً على المنبر فقال لتنزلن نار من السماء تسوقها ريح حالكة دهماء حتى تحرق دار أسماء وآل أسماء .

وكان لأسماء بن خارجة بالكوفة ذكر قبيح عند الشيعة يعدونه فى قتلة الحسين عليه السلام[٣] .

حدثنى أحمد بن عيسى العجلى الكوفى المعروف بابن أبى موسى قال حدثنا الحسين بن نصر بن مزاحم قال حدثنى أبى قال حدثنى عمر بن شبه عن جابر الجعفى قال سمعت ابن جذيم التاجى يقول لما استقام لمعاوية أمره لم يكن شىء أحب إليه من لقاء أبى الطفيل عامر بن وائله فلم يزل يكاتبه ويلطف له حتى أتاه فلما قدم عليه جعل يسائله عن أمر الجاهلية ودخل عليه عمرو بن العاص ونفر معه فقال لهم معاوية . أما تعرفون هذا ؟ هذا خايل أبى الحسن ، ثم قال يا أبا الطفيل ما بلغ حبك لعلى ؟ قال حب أم موسى . قال فما بلغ من بكائك عليه ؟ قال بكاء العجوز الثكلى والشيخ الرقوب

(١) ٩ ، ١٠ المصدر السابق
(٢) ١٤/٨٥ المصدر السابق
(٣) ١٣/٣٥ الأغانى ٠ ساسى

وإلى الله أشكو التقصير . قال معاوية إن أصحابى هؤلاء لو كانوا سئلوا عنى ما قالوا فى ما قلت فى صاحبك . قالوا إذاً والله لا نقول الباطل . قال لهم معاوية . لا والله ولا الحق تقولون[١] .

لقد تعمدت أن أسرد لكل واحد منهم خبرين ، ولقد تعمدت أن تكون المرويات كلها من جزء واحد من أجزاء الأغانى - اللهم إلا خبر محمد ابن الحسين الكندى الأخير ، ولقد حرصت على أن تكون الكوفة واضحة فى النسبة ، وليس ذلك إلا لتكون الأخبار صادقة الدلالة على ما نذهب إليه من أن طابع الجد هو الذى يغلب فى المرويات التى يأخذها أبو الفرج عن شيوخه من الكوفيين .

أما كيف كان يعيش أبو الفرج بالكوفة فهو الأمر الذى لم نجد من الأقدمين من يذكره بل لم نجد منهم من يذكر أن تربيته الأولى كانت بالكوفة ولعل لهم عذراً فى ذلك فقد كانت المدة قصيرة إذ انتقل أبو الفرج إلى بغداد حوالى سنة ثلاثمائة أو بعدها بقليل كما يدل عليه حديثه عن أبى الفياض سوار بن أبى شراعه الذى أشرنا إليه سابقاً والذى يقول فيه (وابنه أبو الفياض سوار بن أبى شراعه أحد الشعراء الرواة قدم علينا بمدينة السلام بعد سنة ثلاثمائة[٢]) . وإذا كان أبو الفرج قد ولد عام أربع وثمانين ومائتين فإن الذى يفهم أنه قد انتقل إلى بغداد وأنه فى سن السابعة عشرة تقريباً ، وأنه لم يكن قد لفت إليه الأذهان وهو بالكوفة . ومن هنا لم تكن للناس عنه ذكريات ، وليس يخفى أن أمثال هذه الذكريات إنما تكون الدعامة الأولى لمن يريد الحديث عنه أو تاريخ حياته فى المدة التى قضاها

---

(١) ١٥٩ ، ١٦٠ المصدر السابق

(٢) ٢٠/٣٥ المصدر السابق

بتلك المدينة ، بل لعل أبا الفرج لم يلفت إليه الذهن حتى فى بغداد إلا بعد أن كبر وجلس مجلس الشيوخ الذين يأخذ عنهم الطلاب ، ولعل هذا هو السر فى خلو كتب التاريخ عن كل ما يصف حياته الأولى يوم أن كان يطلب العلم فى المساجد وفى المجالس وفى بيوت بعض الكتاب والشعراء .

لم نعثر على نصوص تصور لنا كيف كان يعيش أبو الفرج بالكوفة ، ولكن ليس معنى ذلك أنا سنقف أمام هذه المسألة مكتوفى الأيدى فعندنا التصوير التاريخى للحالات التى كان يكون عليها الطلاب حين يغتربون فى سبيل العلم ويرحلون من إقليم إلى إقليم ، وهو تصوير إن لم يضع أيدينا على صورة المعيشة الحقيقية لأبى الفرج بالذات فإنه سيقرب صورة هذه المعيشة إلى الأفهام .

فى تراجم ياقوت للعلماء والأدباء كثير من النصوص التى تصور هذه المعيشة فى عصر أبى الفرج وغيره ونستطيع أن نقتصر منها على تلك التى تعرفنا بالمدارس أو دور العلم فى عصر أبى الفرج وكيف كان يعيش الطلاب إذ ذاك . ولعل مما يتمم هذه الصورة أن تذكر طرفاً من أخبار العلماء والمؤدبين فى ذلك العصر وموقفهم من أمثال هؤلاء الطلاب .

يذكر ياقوت بصدد حديثه عن جعفر بن محمد الموصلى المتوفى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ما يأتى « وكانت له ببلده دار علم قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب للعلم لا يمنع من دخولها إذا جاءها غريب يطلب الأدب وإن كان معسراً أعطاه ورقا وورقا . تفتح فى كل يوم ويجلس فيها إذا عاد من ركوبه ويجتمع إليه الناس فيملى عليهم من شعره وشعر غيره ومصنفاته مثل الباهر وغيره من مصنفاته الحسان ،

ثم يملى من حفظه من الحكايات المستطابة وشيئاً من النوادر المؤلفة وطرفا من الفقه وما يتعلق به[١] .

وجاء بصدد ترجمته لعلى بن يحيي المنجم المتوفى سنة خمس وسبعين ومائتين (كان بكركر من نواحى القفص ضيعة نفيسة لعلى بن يحيي المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبذولة فى ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيي[٢]) .

فى هذين النصين نرى لونين من دور العلم فى ذلك العصر الذى ولد فيه أبو الفرج . اللون الأول وهو أقدمها لون خزانة الكتب تلك التى كان يقيمها الأغنياء فى قصورهم وفاء بحق الثقافة وبحق الشعب . وهذا اللون لا نجد فيه من يقوم بالدرس والإملاء وذلك هو الواضح من مثل على بن يحيي المنجم وخزانة الحكمة .

أما اللون الثانى فهو لون دور العلم ويمتاز عن اللون الأول بأنه يكاد يكون مدرسة وهذا اللون هو اللون الواضح من صنع جعفر بن محمد الموصلى ؟

هذان اللونان يجعلان الحياة الثقافية سهلة يسيرة ويحببان العلم إلى طلابه ويدفعانهم إلى المزيد . فهى حياة لا يشق فيها الطالب إلا بالتحصيل ، تحصيل العلم بدون كلفة ولا مؤونة ، فلله در هؤلاء الأغنياء وعليه أجرهم .

هذا حق الشعب أوجبه الأغنياء الموسرون على أنفسهم وفاء بحق الإنسانيه وإحساسا بالأخوة . وهناك حق آخر أوجبه العلماء على أنفسهم

---

(١) ١٦٣ ، ٧ معجم الأدباء : ط . رفاعى
(٢) ١٥/١٥٧ معجم الأدباء « ط » رفاعى .

لهذا الشعب وهو التعليم بالمجان وترى ذلك بصورة جلية من حياة العالم الكبير محمد بن جرير الطبرى شيخ المؤرخين والمفسرين . ولعل هذه القصة تصور ما نريد أبلغ تصوير . يقول ياقوت (وكان يختلف إليه أبو الفرج بن أبى العباس الأصبهانى وأخذ يقرأ عليه كتبه فالتمس أبو جعفر حصيراً لصفة له صغيرة فدخل أبو الفرج الأصبهانى وأخذ مقدار الصفة واستعمل له الحصير متقربا بذلك له وجاءه به وقد وقع موقعه فلما خرج دعا ابنه ودفع إليه أربعة دنانير فأبى أن يأخذها وأبى أبو جعفر أن يأخذ الحصير إلا بها[1] .

كما نراه من حياة أبى عبد الله المرزبانى قرين أبى الفرج فقد قال القاضى الحسين بن على الصيمرى سمعت المرزبانى يقول كان فى دارى خمسون ما بين لحاف ودواج معدة لأهل العلم الذين يبيتون عندى(٢) .

فى هذا الجو العلمى كان يعيش الطلاب من أمثال أبى الفرج . أفنخشى عليه شيئاً ونشفق من ارساله إلى الكوفة ليقيم فيها وحده ؟ إن سبل العلم لينة وطرقه ميسرة أوجب الأغنياء على أنفسهم فيها شيئاً وأخذ العلماء على عاتقهم الباقى .

لكنى مع كل هذا أخشى منك ما خشيته من نفسى وهو أن نذهب إلى أنه ليس من المعقول أن تكون على مثل هذه الصورة جميع الحالات التى يكون عليها الطلاب — لا سيما ونحن نعلم أن أبا الفرج كان يصف محمد بن الحسين الكندى بالمؤدب أو مؤدبه ، كما نعلم أن أمثال هؤلاء المؤدبين لا يعفون الطلاب من الأجر ، وليس هناك مايمنع من أن يكون أبو الفرج وهذه حاله مع محمد بن الحسين الكندى ممن يدفعون الأجور .

---

(١) ١٨/٨٧ المصدر السابق

(٢) ٢٦٨ ، ٢٦٩ معجم الأدباء « ط » رفاعى

ذلك أمر لا نستطيع إنكاره ، وقد يكون من الخير لكلينا ولأبى الفرج نفسه أن نقف على صورة من تلك الصور التى يأخذ فيها المعلمون من الطلاب أجراً . حدث الزجاج قال . كنت أخرط الزجاج فاشتهيت النحو فلزمت المبرد لتعلمه ، وكان لا يعلم مجاناً ولا يعلم بأجرة إلا على قدرها . فقال لى أى شىء صناعتك قلت أخرط الزجاج وكسبى فى كل يوم درهم ودانقان ، أو درهم ونصف ، وأريد أن تبالغ فى تعليمى وأنا أعطيك كل يوم درهما ، وأشرط لك أن أعطيك إياه أبداً إلى أن يفرق الموت بيننا (١) . . . وجاء فى الأغانى . . . قال الزبير قال الموصلى وكان بن أبى عبيدة يملى شعر كثير بثلاثين دينارا (٢) .

ولسنا بحاجة وقد عرفنا أحوال الأسرة إلى حد ما بسر من رأى إلى أن نقول إنها كانت بحيث تستطيع أن تدفع مثل هذه الأجور .

هذه صورة تقريبية لحياة أبى الفرج بالكوفة تصور لنا المعيشة التى كان من الممكن أن يعيشها فى وقت كان يسكن فيه الطلاب فى دور العلم أو فى بيوت الأساتذة وقصور الأغنياء . كما تصور لنا ألوان المعرفة التى كان يطلبها أبو الفرج بالكوفة وأنها كانت المعرفة الدينية أو علوم الحديث والأخبار .

والآن نريد أن نترك هذه الصورة إلى أخرى هى حياة أبى الفرج ببغداد . وقبل هذا الترك نوضح أمراً نعتقد أنه من الخطورة بمكان . ذلك لأنا لا نستطيع أن نمضى على أن ما أخذ، أبو الفرج من الكوفة هو العلم الجاد لا سيما ونحن نعلم أن الكوفة كانت بيئة المجان والخلعاء من المغنين والشعراء ، وأن الغناء قد استقر فيها قبل أن يستقر ببغداد ، وأن عمر بن أبى

---

(١) ١/١٣١ المصدر السابق .
(٢) ٨/٢٦ أغانى . ساسى .

ربيعة كان يلم بها ليسمع غناء قينتين حاذقتين اصاحب ابليس عبد الله ابن هلال[١] وأن إسحاق الموصلى حين هم بتأليف كتاب فى الأغانى أرسل كتاباً إلى على بن هشام القائد ينبئه أن فى هذا الكتاب أحاديث قيان الحجاز والكوفة[٢] . وأن بالكوفة نشأ الحمادون الثلاث ، وأنها قامت فى بقعة تلم بها الأديرة من كل طرف وإذا ذكرنا الأديرة فقد ذكرنا الخمارين والخمارات وما يتبع ذلك من لهو وعبث ومن زندقة وإلحاد . نعلم ذلك كله عن هذه البيئة فهل يصح لنا والحالة هذه أن نسل أبا الفرج منها ، وأن نمضى على أنه لم يأخذ من البيئة الكوفية إلا كل ما هو جاد ؟ .

لاسبيل إلى إنكار أن هذه البيئة قد أثرت أثرها وفعلت فعلتها فى نفس أبى الفرج ، ولعل كتابه الديارات لم يكن إلا عن وحى هذه البيئة . ولكنا مع كل هذا لن نقف عندها فى هذا الموطن لسبب بسيط هو أنا نعلم أن أبا الفرج قد انتقل إلى بغداد وهو صغير ، وأن سنه إذ ذاك لم تكن لتسمح لمثل هذه الآثار بالظهور ، وان ما اخذه عن الكوفة من هذا الجانب ليس إلا الصور التى استحالت إلى رواسب وظلت كامنة فى نفسه حتى شب عن الطوق وحتى وجدت ما يستثيرها من الحياة فى بغداد .

وإذ كنا قد مضينا على الا نذكر من عوامل البيئة ومؤثراتها شيئاً إلا ان تكون آثاره واضحة وبارزه للعيان فإنا سنرجىء الحديث عن هذه الرواسب التى استقرت فى نفس ابى الفرج من هذه الحياة الكوفية حتى نصل إلى آثارها البارزة فى حياته العقلية او فى حياته الخلقية ، وعند ذلك نعلل منها ما يظهر لنا ان علله الحقيقية إنما ترجع إلى هذه الحياة الكوفية وما فيها من عبث ومجون .

---

(١) ١/١٥٣ . أغانى دار الكتب .

(٢) ٦/٤٩ معجم الأدباء . ط . رفاعى .

الفصل الثالث

بغـــداد

وحياة ابى الفرج الطالب ببغداد اكثر وضوحا واقل خفاء ، وليس يرجع ذلك إلى ان ابا الفرج الطالب كان من نضج العقل وقوة التفكير بحيث يدير الجدل والحوار حول مسائل العلم وقضاياه ، وبحيث يترك فى أنفس الشيوخ والأقران ذكريات تردد صداها الأيام وتكون اللبنات التى يعتمد عليها الباحث فى الكشف عن حياته ورسم صورة حية نابضة له — فلم يكن ابو الفرج من ذلك فى شىء فيما نعتقد . وإنما كان طالباً همه الأول والأخير تقييد العلم . تقييد ما يمليه الأساتذة على الطلاب ، وتقييد ما يدفع به الشيوخ إلى الطلاب من كتب يحملونهم إياها ليبلغوها عنهم إلى غيرهم ، وتقييد كل ما يطرق سمعه ولو عن غير شيخ وكل ما يقع تحت بصره من مكتوب حتى ولو كان هذا المكتوب غير مسمى الصانع على حد تعبيره هو — كما سنرى فى الفصل الخاص بمرحلة التحمل من الباب الثالث إن شاء الله . ومن هنا او من الحرص على هذا التقييد كان ابو الفرج من الرواة الممتازين ولم يكن من العلماء النابهين . ولعله من هنا ايضاً أعرض التاريخ عن ابى الفرج او كاد ، ولولا ان قيض الله له ذلك النساخ الذى اراد ان يأكل الخبز من وراء كتاب الأغانى فى ذلك الوقت الذى ذهبت فيه الأحداث بالكثير من الكتب التى اعتمد عليها ابو الفرج عند التقييد والتدوين لما شاع ذكره وعلا صيته .

إن الوضوح إنما يأتى حياة ابى الفرج الطالب ببغداد من امور اخرى غير ذاته .

(١) يأتيها اولا من انه اصبح ببغداد وبغداد عاصمة الدولة ومقر الخلفاء تتوجه إليها الأبصار والأسماع ويعنى بها الباحثون وينصت إليها التاريخ . وينصت إلى اكثر ما يقال ، ولذلك سجل الأقدمون ان ابا الفرج قد سكن بغداد منذ صباه[١] . وقال الأقدمون إنه نشأ وتربى هناك[٢] . ونستطيع نحن ان نمضى اكثر من الاقدمين خطوة او خطوات فنحدد ايام الطلب بالسنوات ونعترف منذ الآن بأنه لن يكون التحديد الذى يسجل فى دقة سنوات البدء والختام وإنما سيكون التحديد التقريبى الذى يمكن ان يقال .

نستطيع ان نجعل سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة حد الختام ذلك لأنا نعلم ان ابا الفرج قد الف كتابه مقاتل الطالبين فى هذه السنة وانه اشار إلى ذلك اكثر من مرة فأشار إليه فى المقدمة واشار إليه فى الخاتمة(٣) .

ونستطيع ان نجعل حد البدء سنة ثلاثمائة او قبلها بقليل ذلك لأنا نعلم انه قد اخذ عن يحي بن على بن يحيي وهذا قد توفى سنة ثلاثمائة(٤) ولعل هذا هو الذى دفع ابن حجر إلى ان يقول وكان طلبه فى حدود الثلاثمائة(٥) .

(٢) ويأتى الوضوح ثانياً حياة ابى الفرج من انا نعلم انه كان يقيم إلى

---

(١) لوحة ٢٧٦ ا تاريخ الاسلام الكبير للذهبى مصورة رقم ٤٢ تاريخ دار الكتب .

(٢) ٢/٢٧٨ اليتيمة ، ١/١٨٤ مفتاح السعادة لطلشكبرى زاده .

(٣) ٤ ، ٧٢١ مقاتل الطالبين . ط . مصر

(٤) ٢٠٦ الفهرست لابن النديم ط . مصر .

(٥) ٤/٢٢١ لسان الميزان

جوار ابيه ببغداد وانه هو نفسه الذى يدلنا على هـذا فى ترجمته لأبى شراعة حين يقول (وابنه ابو الفياض سوار بن ابى شراعه احد الشعراء الرواة قدم علينا بمدينة السلام بعد سنة ثلاثمائة فكتب عنه اصحابنا قطعات الأخبار واللغة وفاتنى فلم القه وكتب إلى والى ابى رحمه الله بأجازة واخبرنا بأخبار على يد بعض إخواننا . .)[١] وعلى هـذا نستطيع ان نتصور ان هذا الأب هو الذى كان يتحمل اثقال الحياة وانه قد خلى بين ابنه وبين العلم يطلبه ، ولعله من أجل هـذا انتهى ابو الفرج من طلب العلم مبكراً وجلس للتأليف قبل ان يبلغ الثلاثين .

(٣) ويأتى الوضوح هـذه الحياة من امر آخر لعله ان يكون اهم من كل ما تقدم ذلك هو وضوح حياة شيوخه من البغداديين فأنا نستطيع الاعتماد على هـذه الحياة الواضحة لهؤلاء الشيوخ فى ان نعرف من امر ابى الفرج الطالب هذه المسائل .

١ — المواد التى كان يتعلمها .

٢ — الأمكنة التى كان يتلقى فيها العلم .

٣ — الأسلوب او الطريقة التى كان يجرى عليها التعليم .

وقبل البدء بالكشف عن هذه الجوانب نلفت ذهن القارىء إلى امور . الأول ان ليس كل شيخ اخذ عنه ابو الفرج قد كان من العلماء الشيوخ فنحن نعلم ان منهم الأصدقاء والقرناء وان منهم الكتاب والندماء وان منهم الوراقين والمغنين الأمر الذى سنشرحه فى الباب الثالث إن شاء الله .

---

(١) ٣٥/٢٠ أغانى ٠ ساسى

الثانى أن ليس كل شيخ حمل عنه أبو الفرج وبلغ بلفظ أخبرنا كان من الشيوخ الذين لقيهم وجلس منهم مجلس الطالب من الشيخ فنحن نعلم أن أبا الفرج وغيره كانوا يبلغون بلفظ أخبرنا عن الأجازات والمكاتبات كما سنرى فى الباب الثالث أيضا . ويكفى أن نذكر هنا أن هذا كان صنيع أبى الفرج مع كل من أبى الفضل الخليفة بن الحباب الجمحى وأبى الفياض سوار بن أبى شراعة الذى ذكر هو عنه أنه لم يلقه ببغداد وأنه أخذ عنه الأخبار على يد بعض الأخوان . وليس يخفى أن أمثال هؤلاء الشيوخ لن يؤثروا فى أبى الفرج بذواتهم وإنما بكتبهم فإن كان همه النقل عنهم والنقل ليس غير فأنا لن نتوقع منهم أن يكشفوا لنا عن بعض الجوانب من حياة أبى الفرج الطالب ، وسيكون حظهم مثل حظ سابقيهم من أنهم من الشيوخ الذين تحمل عنهم وليسوا من الشيوخ الذين علموه والذين حاولوا أن يؤثروا فيه أو يطبعوه بطابعهم ، ومن هنا نخرجهم أيضا من هذا الميدان .

الثالث أن شيوخ أبى الفرج الذين كان يجلس إليهم للكتابة عنهم أو للقراءة عليهم كانوا من الكثرة بحيث لا يحصون عدداً . وكانوا مختلفين لا من حيث المواد التى يعلمونها الطلاب فحسب بل من حيث المذاهب التى تقوم عليها المعرفة بحيث يدعوننا إلى التريث قبل إصدار الأحكام .

نعم نحن نعلم أن هذه الكثرة وهذا الاختلاف لهما آثارهما الحميدة من حيث الجمع والاستقصاء ، ومن حيث عرض وجهات النظر المختلفة فى المسألة الواحدة أو فى الموضوع الواحد ، لكننا نعلم أيضا من جانب آخر أنهما يعوقان عملية الايحاء ويحولان بين الأستاذ وبين الإيحاء السريع المنتج .

وإذا ما ضممنا إلى ما تقدم أن هذا الاختلاف المذهبى دينيا كان أو غير دينى قد دفع إلى التحاسد والتباغض وقد دفع إلى شىء من الهجاء كما وقع

بين ابن الرومى والأخفش(١) وبين نفطوبة وابن دريد(٢) وبين حرمى بن أبى العلاء وجحظة(٣) . وبين ابن الرومى وأبى العباس بن عمار(٤) . من شيوخ أبى الفرج الذين تتلمذ عليهم ، قدرنا لماذا كان شيوخ أبى الفرج الحقيقيين من بين الأموات لا من الأحياء .

إن أمثال هـذه الحالات بين الشيوخ والأساتذة إنما تمكننا من الآثار المادية ولا تمكننا من الوقوف فى دقة على الآثار المعنوية من أنفس الطلاب ، ومن هنا كانت العناصر المميزة لحياة أبى الفرج الطالب ببغداد هى العناصر السابقة ! مواد الدراسة . وأمكنة الدراسة — والطرق والوسائل التى يتبعها الشيوخ ، أما الآثار النفسية والعقلية فسنحصرها فى يقظة وحذر ولن ندعى أن هـذه كانت نتيجة حتميه لتلك ما دمنا نعرف ماكان بين هؤلاء الشيوخ من اختلاف . وما دمنا لم نقع على صورة من التلازم القوى بين أبى الفرج وبين واحد من هؤلاء الشيوخ اللهم إلا أن كان جحظه وبعض الكتاب كما سنرى بعد لحظات .

والمواد العلمية التى كان أبو الفرج يتعلمها قد ذكرها القدماء فى إجمال حينما صوروا لنا ثقافة أبى الفرج . فقد قال عنه الخطيب « وكان عالما بأيام الناس والأنساب والسيرة وكان شاعرا محسنا والغالب عليه رواية الأخبار والآداب(٥) » وقال عنـــه التنوخى (ومن المتشيعين الذين شاهدناهم أبو الفرج الأصبهانى . كان يحفظ من الشعر والأغانى والأخبار والآثار

---

(١) ١٣/٢٥٥ معجم الأدباء . ط . رفاعى .
(٢) ١/٢٦٤ المصدر السابق .
(٣) ١/٢٦٢ المصدر السابق .
(٤) ٣/٢٣٩ المصدر السابق .
(٥) ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد للخطيب .

والأحاديث المسندة والنسب ما لم أر قط من يحفظ مثله ، ويحفظ دون ذلك من علوم أخر منها اللغة والنحو والخرافات والسير والمغازى ، ومن آلة المنادمة شيئا كثيرا مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم والأشربة)[١] كما قال صاحب لسان الميزان (كان إليه المنتهى فى معرفة الأخبار وأيام الناس والشعر والغناء والمحاضرات يأتى بأعاجيب بحدثنا وأخبرنا)[٢] . وهى ألوان من الثقافة تشهد بها كتب أبى الفرج التى بأيدينا . ونستطيع أن نردها فى سهولة ويسر إلى بيئات ثقافية أو إلى مدارس بعينها ذلك لأنا نستطيع أن نميز بين نوعين منفصلين من الثقافة عند أبى الفرج . أولهما ثقافة الكتاب ، وقد كان أبو الفرج منهم[٣] . وثانيهما ثقافة الندماء والعالمين بالغناء وقد كان أبو الفرج أيضا واحدا منهم[٤] وليس أدل على ذلك من كتبه ورسائله فى الأغانى والغناء وعلله .

أما اللون الأول فكانت الثقافة فيه تقوم على الأخذ من كل شىء بطرف ومن هنا كثر تردد أبى الفرج على الشيوخ من المحدثين واللغويين والكتاب والشعراء ومن الأخباريين والوراقين . ونستطيع أن نقف هنا لنرى أمكنة الدراسة ونقف على الأساليب التى كان يجرى عليها العلماء والمدرسون .

---

(١) ٤٦٢ وفيات الأعيان . ط . باريس .

(٢) ٤/٢٢١ لسان الميزان .

(٣) ٢/٢٢ تاريخ أصبهان لأبى نعيم ١٣/١٠٥ معجم الأدباء . ط . رفاعى .

(٤) لأبى الفرج كتب ورسائل فى الأغانى ذكرها فى كتاب الأغانى الكبير منها فى المقدمة كتاب مجرد الأغانى ومنها رساله فى النغم والعلل ذكرناها عند حديثنا عن اسحاق الموصلى فى الباب الأول .

من السهل أن نجمع فى هـذا الحديث بين المحدثين واللغويين ذلك لأنا نعلم أن اللغويين إلى هذاالعصر كانوا يقلدون المحدثين . كانوا يسلكون مسلكهم فى الإملاء أو فى القراءة على الشيخ و يتخذون من المساجد دوراً للعلم كما كان يفعل هؤلاء . ولقد كان آخر من أملى من اللغويين فيما يذكر السيوطى أبو القاسم الزجاج المتوفى سنة تسع وثلاثين و ثلاثمائة(١) .

ثم لأنا نعلم أن شيوخ أبى الفرج من الذين عدهم الخطيب من المحدثين البغداديين من أمثال محمد بن العباس اليزيدى(٢) . كانوا من اللغويين ، وكانوا من الذين نص أبو الفرج نفسه على أنه كان يأخذ عنهم اللغة والأدب ، فقد جاء فى كتاب الأغانى بصدد ترجمته لأبى محمد اليزيدى ما يلى « وكان أبو محمد عالماً باللغة والنحو راوية للشعر متصرفا فى علوم العرب أخذ عن أبى عمرو بن العلاء وجود قراءته ورواها عنه وهى المعول عليها فى هـذا الوقت . وكان بنوه جميعاً فى مثل منزلته من العلم والمعرفة باللغة وحسن التصرف فى علوم العرب ولسائرهم علم جيد . . . وآخر من كان بقى من علماء أهل هـذا البيت أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبى محمد وكان فاضلا عالماً ثقة فيما يرويه منقطع القرين فى الصدق وشدة التوقى فيما ينقله . وقد حملنا نحن عنه وكثير من طلبة العلم ورواته علماً كثيرا فسمعنا منه سماعاً جماً . »(٣) .

ثم لأنا نعتقد أن أبا الفرج ببغداد كان قد بدأ يتحول عن دراسة الحديث إلى دراسة اللغة والأدب وفن الغناء .

---

(١) ٢/١٩٩ المزهر السيوطى . ط . سنة ١٣٣٥ .

(٢) ١١/٣٩ الخطيب فى تاريخ بغداد .

(٣) ١٨/٧٣ أغانى . ساسى .

واللغويون من شيوخ أبى الفرج ببغداد كثيرون . نرى منهم فى كتاب الأغانى إبراهيم بن عرفة وأبا جعفر بن رستم الطبرى ومحمد بن العباس اليزيدى ومحمد بن القاسم الأنبارى ومحمد بن مزيد بن أبى الأزهر ومحمد بن جعفر الصيدلانى ومحمد بن الحسن بن دريد وعبد الله بن مالك وعلى بن سليمان الأخفش . وكلهم قد أخذ عنه أبو الفرج وأكثر . وكلهم قد أخذ عنه أبو الفرج بصرف النظر عن مذهبه اللغوى أو مذهبه الدينى أو صلته برجال الحكم والسياسة . إذ لم يكن من هم أبى الفرج إلا الجمع والاستقصاء والتوسع فى الرواية وعرض وجهات النظر المختلفة التى تبصر القارىء بالحقيقة وتجعله فى أمن من التصديق فى سهولة ويسر .

ومواد هؤلاء الدراسية تكاد تكون واحدة فى جملتها . ويصورها هذا النص من ياقوت (كان أبو بكر الأنبارى يملى كتبه المصنفة ومجالسه المشتملة على الحديث والتفسير والأخبار والأشعار(١)) . فقد كانت هذه هى المواد التى يدرسها هؤلاء وإن وقع الاختلاف فى أجزاء هذه المواد أحياناً أو فى أمورها التفصيلية من حيث الألوان الأدبية والتاريخية . . . إلخ .

وأماكن الدراسة : المساجد والدور . أما المساجد فقد كانت من نصيب ابن الأنبارى فقد كان يملى فى ناحية من المسجد وأبوه فى ناحية أخرى(٢) . وقد كان المسجد الذى يملى فيه يسمى باسمه واسم أبيه ، إذ كان يعرف بمسجد الانباريين . وذلك هو الواضح من حديث ابن النديم عن ابراهيم بن عرفة نفطويه فلقد كان هو الآخر من الذين يتخذون من المساجد

---

(١) ١٨/٣٠٨ معجم الأدباء . ط . رفاعى .
(٢) ٣٠٧ المصدر السابق .

مجالسهم العلمية(١) . وليس ذلك بالأمر الغريب فلقد كانت سنة العصر أن تسمى المساجد باسم من يقوم بالتدريس فيها من الشيوخ لغويين ومحدثين ومؤرخين(٢) .

وطريقة أبى بكر وطريقة نفطويه هى الإملاء . الإملاء من مكتوب أو من محفوظ — الأمر الذى اشتهر وعرف عن ابن الأنبارى(٣) فقد كان يملى من غير دفتر ولا كتاب لأنه كان فيما يقولون فى نهاية الذكاء والفطنة وجودة القريحة وسرعة الحفظ .

وأما الدور فقد كانت نصيب ابن دريد من هؤلاء الأشياخ ، فقد كان الطلاب يذهبون إلى منزله للقراءة عليه أو النقل من كتبه(٤) . كما هو الواضح من حديث السيرافى عنه ، ويظهر أن السبب فى ذلك إنما يرجع إلى أن ابن دريد كان من الخلعاء المستهترين(٥) .

وطرق التدريس هذه وأماكن الدراسة لهما آثارهما الواضحة فى مرويات أبى الفرج - لاسيما فى كتاب الأغانى - فنحن نرى أخذه يكثر عن قوم ويقل عن آخرين . نراه يكثر حين تكون الطريقة هى القراءة من الكتب ، وحيث يكون المكان هو دار الأستاذ فى الغالب ، ونراه يقل حين تكون الطريقة هى الإملاء ، وحين يكون الشيخ من الذين يعقدون مجالسهم العلمية فى المساجد . ومن هنا نرى أخذ أبى الفرج الأصبهانى عن إبراهيم نفطويه وعن محمد بن القاسم الأنبارى من القلة بحيث لا يقاس إلى ما أخذه أبو الفرج عن كل من

---

(١) ١٢١ الفهرست لابن النديم . ط . مصر .
(٢) ٦٠ ، ١٨/٦١ معجم الأدباء .
(٣) ١١٢ الفهرست لابن النديم .
(٤) ١٧/٨٧ معجم الأدباء . ط . رفاعى .
(٥) ١٨/١٣٠ المصدر السابق .

محمد بن العباس اليزيدى وعلى بن سليمان الأخفش ، وبحيث لا يقارب ما أخذه أبو الفرج عن كل من ابن دريد وابن أبى الأزهر . إنه يكاد لا يضارع ما أخذه عن محمد بن جعفر الصيدلانى وعبد الله بن مالك ممن لم يشتهر شهرة ابن الأنبارى ولم يجلس مجلسه من المسجد .

لقد كان أبو الفرج يقرأ على الأولين أو يكتب عنهما كتبا بتمامها ومن هنا نراه يقرأ على على بن سليمان الأخفش كتاب المغتالين(١) . ويقرأ على محمد بن العباس اليزيدى أخبار أبى كاده ونسبه وديوان شعره (٢) . كما يقرأ عليهما كتاب النقائض(٣) .

كما نراه يأخذ أخبار بعض الشعراء عنهما إلا فى القليل النادر ومن ذلك أخبار إسماعيل بن عمار وأخبار الوليد بن طريف وأخبار الهجاء بين جرير والفرزدق وأيام العرب .

ولعل محمد بن أبى الأزهر هو الشخص الوحيد من بين هؤلاء الذى انفرد برواية كتاب إسحاق الموصلى فى الغناء . أخذه عن حماد بن إسحاق(٤) . وأخذه أبو الفرج عنه . ولا يروى ابن أبى الأزهر عن غير حماد إلا فى القليل النادر .

هؤلاء هم شيوخ أبى الفرج من اللغويين البغداديين وهذه هى الطرق التى قام عليها تدريسهم والتى أفاد منها أبو الفرج كما أفاد غيره من الطلاب وهذه هى الأماكن التى اتخذوا منها مجالسهم العلمية وهى المجالس التى كان يؤمها

---

(١) ٢/٣٥ أغانى . ساسى .

(٢) ١٠/١٠٥ المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) ٣/٢٨٨ تاريخ بغداد .

أبو الفرج كما كان يؤمها غيره من الطلاب . وإذا كان لا بد من وقفات عند بعض المميزات الخاصة التى قد نرى آثارها فى حياة أبى الفرج فهى هذه الميزات .

أولا — الروح العلمية عند ابن الأنبارى وهى روح خلقية قبل كل شىء وبعد كل شىء ، وطابعها الحرص على الحقيقة والنزول عند حكمها حتى ولو كان هذا النزول على حساب الأساتذة وفى صالح الطلاب . حكى أبو الحسن الدار قطنى أنه حضر مجلس إملائه فى يوم جمعة فصحف إسماً أورده فى إسناد حديث . . . قال الدار قطنى فأعظمت أن يحمل عن مثله فى فضله وجلالته وهم ، وهبت أن أوقفه على ذلك ، فلما فرغ من إملائه تقدمت إليه فذكرت له وهمه وعرفته صواب القول فيه وانصرفت ثم حضرت الجمعة الثانية مجلسه فقال أبو بكر للمستملى عرف جماعة الحاضرين أنا صحفنا الإسم الفلانى لما أملينا حديث كذا فى الجمعة الماضية ونبهنا ذلك الشاب على الصواب وهو كذا ، وعرف ذلك الشاب أنا رجعنا إلى الأصل فوجدناه كما قال(١) .

ثانياً — الروح العلمية عند اليزيدى وهى أيضاً روح خلقية وطابعها التثبت قبل التقبل أو كما يقول أبو الفرج عنه . « كان فاضلا عالماً ثقة فيما يرويه منقطع القرين فى الصدق وشدة التوقى فيما ينقله(٢) » . ذلك لأن هذه الروح هى التى تخلق العلماء ، وهى التى تجدد نشاط العلم ، وهى التى تدفع الإنسان إلى الوقوف طويلا قبل أن يستجيب .

ثالثاً — ذلك السلوك الخاص لابن دريد وهو السلوك الذى يقوم على

---

(١) ٣٠٨ ، ١٨/٣٠٩ معجم الأدباء • ياقوت •

(٢) ١٨/٧٣ أغانى • ساسى •

شرب الخمر والحرص على الطرب والغناء ومحبة المرد من الغلمان . قال أبو هلال أخبرنا أبو أحمد قال كنا فى مجلس ابن دريد وكان يتضجر ممن يخطىء فى قراءته فحضر غلام وضىء فجعل يقرأ ويكثر الخطأ وابن دريد صابر عليه ، فتعجب أهل المجلس ، فقال رجل منهم لا تعجبوا فإن فى وجهه غفران ذنوبه .

وقال بعضهم فى مجلس ابن دريد .

من يكن للظباء طالب صيد فعليه بمجلس ابن دريد

إن فيـــه لأوجها قيدتنى عن طلاب العلا بأوثق قيد(١)

يظهر أنه من هـذا المسلك الخاص كانت صلة جحظة البرمكى بابن دريد قوية(٢) . وجحظه كما نعلم هو الأستاذ الصديق بالنسبة إلى أبى الفرج ، وكل منهما يسلك هذا المسلك ويجرى فى هذا الميدان .

رابعاً — بعض العادات القبيحة عند ابراهيم بن محمد عرفة المعروف بنفطويه فقد كان قذراً وسخاً يفرط به الصنان ولا يأبه لشىء من ذلك حتى ولو تأذى الجلساء وأظهروا له ذلك(٣) .

* * *

ونستطيع الآن أن ننتقل إلى نوع آخر من المدارس يختلف عن النوع السابق فى كثير من الصفات ذلك هو مدارس المغنيين والندماء والجلساء .

ومدارس هـذا النوع من التعليم هى رحبات الدور والقصور . قصور الخلفاء والوزراء ودور الأغنياء ومن إليهم من الأغنياء والموسرين .

---

(١) ١٣٩ ، ١٨/١٤٠ معجم الأدباء . ط . رفاعى .
(٢) ١٣٦ المصدر السابق .
(٣) ١/٢٦٧ المصدر السابق .

أو دور من اتخذ تربية القيان والغلمان وتربية المغنيين والمغنيات له مهنة وصناعة ولعل هـذا الحديث المروى عن ابن حبيب يصور لنا هذا النوع الأخير. جاء فى الأغانى. قال ابن حبيب كان فى الكوفة صاحب قيان يقال له ابن رامين قدمها من الحجاز فكان من يسمع الغناء ويشرب النبيذ يأتونه ويقيمون عنده مثل يحي بن زياد الحارثى وشراعه بن الزند ومطيع بن أياس وعبد الله بن العباس المفتون وعون العبادى الحيرى ومحمد بن الأشعث الزهرى المغنى، وكان نازلا فى بنى أسد فى جيران اسماعيل بن عمار فكان اسماعيل يغشاه ويشرب عنده، ثم انتقل من جواره إلى بنى عائذ فكان اسماعيل يزوره هناك على مشقة لبعد ما بينهما. وكان لابن رامين جوار يقال لهن سلامة الزرقاء وسعده وربيحه وكن من أحسن الناس غناء(١).

وثقافة أبى الفرج الغنائية واضحة من اهتمامه بهـذا اللون الفنى وتأليفه فيه أكثر من كتاب. فله فيما نعلم كتاب مجرد الأغانى وقد ذكره هو فى المقدمة(٢)، وله هذا الكتاب الكبير، كما أن له رسائل أخرى فى النغم وعللها وفى مسائل الأصابع، وقد بسط هو كما يقول هذه المسائل بسطا لا تحتاج بعده إلى مزيد من العناية(٣).

وثقافة أبى الفرج الغنائية تستمد وجودها من كتب كثيرة قرأها وألم بما فيها وذكرها هو فى مواطن كثيرة من كتابه الأغانى الكبيرة، وليس بنا من حاجة إلى الحديث عن هذه الكتب الآن فإنما وقفنا لنتحدث عن الأساتذة الذين ربوه والمواطن التى ألم بها أول عهده بالثقافة الغنائية يوم أن لم يكن يستطيع الاعتماد على نفسه وعلى ما يقرأ من كتاب.

---

(١) ١٠/١٢٨ أغانى • ساسى •
(٢) ١/٢ المصدر السابق •
(٣) ٥/٥٠ ، ٩/٤٧ أغانى • ساسى •

والدور التى نعتقد أن أبا الفرج كان يلم بها ليثقف شيئاً من هذا الفن الغنائى وأخباره كثيرة فيما نعتقد . منها دور نستطيع الوقوف عليها من الأحاديث العارضة التى تجىء فى ثنايا الكلام ، ومنها أخرى نستطيع أن نصل إليها من صلته بأصحابها وأخذه عنهم . فنستطيع مثلا أن نقول إن أبا الفرج قد أخذ فن الغناء عن حرمى بن أبى العلاء لأنا نراه يأخذ عنه أخباراً كثيرة فى كتابه الأغانى ، ولأنا نراه يصفه بأنه من أكابر المغنيين حين يتحدث عن المعتضد وما له من صنعة غنائية وذلك حيث يقول (وكان المعتضد بالله رحمة الله عليه ربما كان أراد أن يضع فى بعض الأشعار غناء وبحضرته أكابر المغنيين مثل القاسم بن زرزور وأحمد بن المكى ومن دونهما مثل أحمد ابن أبى العلاء وطبقتهم فيعدل عنهم ...)[1] كما يصفه المعتضد بالحسن فى الغناء أيضاً فى حديث آخر من أحاديث الأغانى . (أخبرنى محمد بن ابراهيم قريض قال حدثنى أحمد بن أبى العلاء المغنى قال غنيت المعتضد صوتاً فى شعر له ثم ابتعته بشعر الوليد بن يزيد .

كلانى توجانى   وبشعرى غنيانى

فقال أحسن والله هكذا تقول الملوك المترفون وهكذا يطربون... أحسنت يا أحمد الاختيار لما شاكل الحال وأحسنت الغناء أعد فأعدته ... الخ[2] .

ونستطيع أن نقول أن أبا الفرج قد أخذ أيضاً عن إبراهيم بن القاسم ابن زرزور وإنه ليحدثنا أنه كان يسمعه وهو يغنى بعض الأصوات . سمعت إبراهيم بن القاسم ابن زرزور يغنيه فكان من أحسن ما صنع فى هذا الصوت ... الخ[3] .

---

(١) ٨/٤٢ المصدر السابق .
(٢) ٨٥ المصدر السابق ، ٩/٣٣ الأغانى أيضا .
(٣) ٩/١٩ المصدر السابق

وكذلك كان أبو الفرج يسمع غناء أبى عيسى بن المتوكل (كان عبد الله بن المتوكل جمع له صنعة مقدارها أكثر من ثلاثمائة صوت منها الجيد الصنعة ومنها المتوسط قد سمعنا كثيراً منها ... الخ(١) .

ويحدثنا أبو الفرج أيضاً عن محمد بن أحمد بن يحيي المكى على أنه من البارعين فى فن الغناء وأنه قد أدرك من أخذ عنه (ولقيه جماعة من أصحابنا وأخذ عنه جماعة ممن أدركناه من عجائز المغنيات منهم قمرية العمرية وكانت أم ولد عمرو بن بانه وممن أدركه من أصحابنا جحظة وكتبنا عنه عن ابن المكى هذا حكايات حسنة ... (٢)) ونفهم نحن من هذا أن أبا الفرج قد أخذ عن عجائز المغنيات اللاتى منهن قمرية هذه .

ودار أخرى كان يلم بها أبو الفرج ليأخذ عن صاحبها العلم والمعرفة ويكتب عنه الأخبار والأشعار تلك هى دار إبراهيم بن عرفة ويذكر لنا الزبيدى فى طبقاته عند ترجمته لابن الأنبارى أن قد كان لنفطويه جوار يجدن الغناء ومنهن واحدة عرفت بقارئه الألحان(٣). ونذهب نحن لما نعرف من صلات أبى الفرج بنفطويه ومن أخذه عنه الأدب والأخبار أنه قد كان يأخذ عن داره أيضاً الأصوات والألحان .

والدور التى يحسن بنا أن نقف عندها طويلا هى دور آل المنجم ودار أحمد بن جعفر جحظه وذلك لأنا نعتقد أن هذه كانت هى الدور التى تثقف فيها أبو الفرج وأخذ عن أهلها كثيراً .

وأما آل المنجم فصلة أبى الفرج بهم قديمة ترجع إلى أول عهده ببغداد .

---

(١) ٩٩ أغانى . ساسى .
(٢) ٦/١٦ المصدر السابق .
(٣) ١١١ ، ١١٢ . طبقات الزبيدى . مصورة دار الكتب .

فقد روى عن يحيي بن على المتوفى سنة ثلاثمائة . وروى عنه الأصوات المائة ووقف إلى جانبه حين اختلفت روايته عن رواية جحظة فى الأصوات الثلاثة المختارة(١) .

وآل المنجم معروفون بهذه الثقافة الغنائية يحكى ذلك عنهم جحظة الأستاذ والصديق لأبى الفرج فهو يقول « حدثنى رذاذ غلام المتوكل قال شهدت على بن يحيي المنجم وقد أمره المتوكل أن يغنيه وكنت جالساً إلى جانبه فقال لى قد وقعت وإن تمنعت جد بى حتى أغنى ثم لا يكون له موقع ، والمبادرة إلى أمره وسرعة الطاعة له أصوب ، اضرب على فضربت عليه وغنى(٢) .

ويذهب جحظه إلى أبعد من هذا فيروى لنا أن على بن يحيي المنجم هذا قد أخرج سير الخلفاء على شاكلة لم يسبقه إليها أحد قبله(٣) .

ودور آل المنجم هى الموطن الذى يلم به من يريدون حظا من هذه الثقافة الغنائية ويصور لنا ماكان يجرى فيها لعهد أبى الفرج هذا الحديث من الصاحب بن عباد « وتوفرت على عشرة فضلاء البلد فأول من كاثرنى أولاد المنجم لفضل أبى الحسن على بن هارون وغزارته واستكثارى من روايته وطيب سماعه ولذيذ عشرته ، فسمعت منه أخباراً عجيبة وحكايات غريبة ، ومن ستارته أصواتا نادرة مشنفة مقرطقة يقول فى كل منها الشعر لفلان والصنعة لفلان أخذته هذه عن فلان أو فلانة حتى يتصل النسب بإسحاق أو غيره من أبناء جنسه[٤] » .

---

(١) ١/٦ الأغانى . ساسى .
(٢) ١٥/١٦٣ المصدر السابق .
(٣) ١٤/١٠٩ الأغانى ساسى .
(٤) ١٥/١١٦ معجم الأدباء . ط . رفاعى .

ويظهر أن الحال لم تستمر حسنة فيما بين أبى الفرج وبين هذه الأسرة فنحن نشعر من عنوان ذلك الكتاب الذى عارض به على بن هارون كتاب أبى الفرج « الفرق والمعيار بين الأوغاد والأحـــرار » قسوة وإحساساً بالقطيعة . وإن يكن مصدر ذلك فيما نعتقد أبو الفرج نفسه — فقد سمى على ابن هارون كتابه « كتاب اللفظ المحيط بنقض ما لفظ به اللقيط [١] » . وليس بعد هذين العنوانين من دليل .

أما جحظه فهو بالنسبة إلى أبى الفرج الأستاذ والصديق وصلة أبى الفرج به واضحة كل الوضوح حتى لقد ألف كتاباً فى أخباره[٢] . وأبو الفرج يقرأ عليه فى الثقافة الغنائية كتاب أبى حشيشة[٣] وأبو حشيشة هذا هو الأستاذ الذى أخذ عنه جحظه فيما يحكى عنه ابن النديم[٤] وهو أحد الرواة الذين يروى عنهم الأصوات المائة والأصوات الثلاثة المختارة من هذه المائة ، كما كان الأستاذ الذى يلجأ إليه أبو الفرج كلما أشكلت عليه الأمور[٥] ولسنا بحاجة إلى أن ندلل على أنه قد قرأ عليه كتابه الخاص بالطنبوريين والطنبوريات فذلك أمر واضح لكل من قرأ الأغانى .

والصورة التى كان يجرى عليها العمل فى دار جحظه هى تلك الصورة التى تقطر الدعابة من جوانبها والتى يحكيها لنا غرس النعمة حين يقول (... كان جحظة لما أسن يفسو فى مجالسه فيلقى من يعاشره منه جهداً . قال الحسين بن العباس وكنت أحب غناءه والكتابة عنه لما عنده من

---

(١) ٢٠٧ ، ١٦٧ الفهرست لابن النديم .

(٢) ٢/٢٧٨ يتيمة الدهر للثعالبى . ط . دمشق .

(٣) ١٥/١٣٨ أغانى . ساسى .

(٤) ٢٠٨ الفهرست لابن النديم .

(٥) ١١/٣٢ أغانى . بولاق .

الآداب ، وكان يستطيب عشرتى ، وكنت إذا جلست عنده أخذته غلبة الريح فجئته يوما فى مجلس الأدب والناس عنده وهو يملى فلما خفوا قال لى ولآخر كان معى أجلسا عندى حتى أقعدكما على أسود ، وأطعمكما طباهجة بكبود ، وأسقيكما من معتقة اليهود ، وأبخركما بعنبر وعود أطيب من الندود ، وأغنيكما غناء المشدود . فقلت هذا موضع السجود . وجلسنا وصديقى لا يعرف خلقه فى الفساء وأنا قد أخذت الريح فوقى ، فوفى لنا بجميع ما ذكره ، وقال لنا وقد غنى وشربنا نحن بالغداة علماء وبالعشى فى صورة المخنكرين .

فلما أخذ النبيذ منه أخذ يفسو وصديقى يغمزنى ويتعجب ، فأقول له إن ذلك عادته وخلقه وأن سبيله أن يحتمل إلى أن غنى صوتاً من الشعر والصنعة له فيه وكان يجيده .

إن بالحـــيره قسا قد مجن فتن الرهبان فيها وافتتن
ترك الانجيل حيناً للصبا ورأى الدنيا مجونا فركن

قال فطرب عليه صديقى طرباً شديداً واستحسنه كثيراً وأراد أن يقول له أحسنت والله يا أبا الحسن . فقال له ما فى نفسه يتردد من أمر الفساء . أفس على يا أبا الحسن كيف شئت ، فخجل جحظه وخجل الفتى وانصرفنا[١] .

ولعل الأمر الذى يجب أن نلتفت إليه هو أن هذا اللون من الثقافة لا يكون إلا حيث يكون القصف وحيث تكون الخلاعة والمجون . ومن يدرى فلعل أبا الفرج وقد اهتم بهذا اللون الفنى كان يذهب إلى الحانات ليشرب ويطرب ، وإلى الأديرة لتكون الفتنة والعبث ، وهل يصادق جحظه ويتخذ منه الأستاذ دون أن يناله خير أو شر هذه الحياة .

---

(١) ٢/٢٥٦ معجم الأدباء .

لقد كتب أبو الفرج فى أخبار جحظه ونقل عنه النقلة من الرواة فصوروا لنا حياته فى منزله[١] . وصوروا لنا حياته فى الأديرة[٢] . وصوروا لنا حياته عند الأصدقاء[٣] . وهى حياة كلها اللهو والعبث وكلها الدعابة والمجون . وتحدث عنه ابن النديم فقال : أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن خالد ابن برمك شاعر مغن مطبوع فى الشعر حاذق بصناعة غناء الطنبور . . . وكان مع ما وصفناه به بعيداً عن أدب النفس وكان وسخاً وفى دينه بعض العهدة بل العهدة كلها[٤] . وهل يكون الطالب الصديق إلا صورة تقريبية من أستاذه ؟

* * *

ويبقى بعد ذلك ببغداد بيئات ثقافيه أخرى لا يخلوا حالها من أن تجرى على سنة اللغويين فى الإملاء أو فى قراءة الطالب على الشيخ . وتلك هى بيئات الكتاب والأخباريين والشعراء . وهى البيئات التى يصح أن نسميها بالبيئات المتنقلة ذلك لأن الناس يأخذون عنهم أينما وجدوا ، يأخذون عنهم فى دكاكين الوراقين ويأخذون عنهم فى الدواوين ويأخذون عنهم فى دورهم .

وشيوخ أبى الفرج من هؤلاء كثيرون جداً نذكر منهم على سبيل المثال : أبا الحسن الأسدى ومحمد بن يحيي الصولى وقدامة بن جعفر والحسن بن على الخفاف والحسن بن على الوشاء والحسن بن على الآزمى والطوسى وحرمى ابن أبى العلاء وأحمد بن عبيد الله بن عمار وابن الرومى واسماعيل بن يونس الشيعى والحسين بن يحيي والحسين بن قاسم الكوكبي وعلى بن صالح بن الهيثم

---

(١) ٤/٦٦ تاريخ بغداد .

(٢) ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦١ المجلد الرابع . معجم البلدان . دير العذارى .

(٣) ٢٦٤ ، ٢/٢٦٥ معجم الأدباء .

(٤) ٢٠٨ الفهرست لابن النديم .

الأنبارى وعيسى بن الحسين الوراق ومحمد بن خلف بن المرزبان ومحمد ابن خلف وكيع ومحمد بن جرير الطبرى وكثير غيرهم .

والصورة التى كان يأخذ بها أبو الفرج عنهم هى الصورة التى يمثلها هذا النص الذى يصور فيه أبو الفرج كيف كان يروى عن بعضهم . حدثنى جماعة من الرواة منهم . . . ممن كتبت الشىء عنه من أخباره متفرقا أو رواه لى مجتمعا(١) .

ويظهر لنا أن صحبة أبى الفرج للشيوخ لم تتضح إلا مع جحظه لأن هذا كان صديقه ولأن أبا الفرج كان قليل الرواية كما قص علينا ابن النديم وكما سنرى فى الباب الثالث إن شاء الله .

وليس من شك فى أن الاعتماد على الكتب لايدع الشخص يحرص على صحبة الأحياء . ولعله يجعله يبحث عن مثله الأعلى فى واحد من أصحاب هذه الكتب وهو الذى رأيناه من أبى الفرج حين أوضحنا أن أساتذته الحقيقيين كانوا من بين الأموات . كانوا اسحاق الموصلى وعبد الله بن المعتز . ولعل السر فى هذا لاسيما فى بيئة تكثر فيها العناصر المختلفة المتنازعة كبغداد أن الصور التى يرسمها الخيال للأموات النابهين تكون أكمل وأجمل وأكثر نفوذاً وأقوى إيحاء من تلك التى يرسمها الواقع . وهل عبدت الإنسانية إلا الصور التى يرسمها أو يخترعها الخيال .

* * *

نترك الآن أبا الفرج الطالب لنتعرف على أبى الفرج الشيخ أو الرجل وسنختار من حياة أبى الفرج الجوانب التى تؤثر فى حياته العلمية وفى مروياته بصفة خاصة تلك الجوانب التى تحضه على الاستقامة أو تدفعه إلى الانحراف . ونبدأ من ذلك بالجانب المادى .

---

(١) ٤٤٢ مقاتل الطالبيين ٠ ط ٠ مصر ٠

الفصل الرابع

الحياة المادية

فى وقفة من تلكم الوقفات التى يحاول أبو الفرج أن يعرف فيها بالشعراء نراه يقول (وعرف « منصور النمرى » مذهب الرشيد فى الشعر وإرادته أن يصل مدحه إياه بنفى الأمامة عن ولد على بن أبى طالب عليهم السلام والطعن عليهم ، وعلم مغزاه فى ذلك مما كان يبلغه من تقديم مروان ابن أبى حفصة وتفضيله إياه على الشعراء فى الجوائز ، فسلك مذهب مروان فى ذلك ونحا نحوه ، ولم يصرح بالهجاء والسب كما كان يفعل مروان ولكنه حام ولم يقع وأومأ ولم يحقق لأنه كان يتشيع وكان مروان شديد العداوة لآل أبى طالب ، وكان ينطق عن نية قوية يقصد بها طلب الدنيا فلا يبقى ولا يذر(١)) . وهو قول يدفعنا إلى أن نتنبه إلى كثير من المسائل حينما نحاول درس الآثار الفنية أو العلمية ذلك لأنه القول الذى يصور لنا محاولة المنتج أو الأديب إرضاء الممدوح بتحسس رغباته ومعرفة مذهبه والجرى على ما يرضيه حتى يكون القبول الحسن وحتى تكون الجوائز السنية .

ثم لأنه القول الذى يصور لنا ما قد يقع فيه الأديب من مآزق ومضايق حينما تكون هذه الرغبات متعارضة أو متباينة مع ما يؤمن به من قيم وكيف أنه يلف ويدور لينال الرضا دون أن يتورط فى المكروه .

ثم لأنه أخيراً القول الذى يصور لنا أن الفنان إنما يبدع حينما يصدر عن إحساس قوى وعاطفة جياشة وأنه من هنا حام منصور ولم يقع وأومأ

---

(١) ١٢/٦١ أغانى . ساسى .

ولم يحقق بينما مروان لم يبق ولم يذر . وليس ذلك إلا لأن الأول زج بنفسه في مضايق بينما الثاني كان يصدر عن نية قوية يقصد بها طلب الدنيا .

وفي وقفة من هذه الوقفات التي يعرف فيها ياقوت بالعلماء نراه يروي في حق شيخ أبي الفرج محمد بن جرير الطبري هذه القصص (وكان إذا أهدى إليه مهد هدية مما يمكنه المكافأة عليه قبلها وكافأه وإن كانت مما لا يمكنه المكافأة عليه ردها واعتذر إلى مهديها . ووجه إليه أبو الهيجاء بن حمدان ثلاثة آلاف دينار فلما نظر إليها عجب منها ثم قال لا أقبل مالا أقدر على المكافأة عنه ومن أين لي ما أكافيء عن هذا . فقيل ما لهذا مكافأة إنما أراد التقرب إلى الله عز وجل فأبى أن يقبله ورده إليه .

وقال أبو الطيب القاسم بن أحمد بن الشاعر وسليمان بن الخاقاني ، أهدى أبو علي محمد بن عبيد الله الوزير إلى أبي جعفر محمد بن جرير رمانا فقبله وفرقه في جيرانه فلما كان بعد أيام وجه إليه بزنبيل فيه بدره فيها عشرة آلاف درهم وكتب معها رقعة وسأله أن يقبلها قال سليمان . . . فدخلت وأوصلت إليه الرقعة فقال يغفر الله لنا وله اقرأ عليه السلام وقل له أرددنا إلى الرمان ، وامتنع عن قبول الدراهم فقلت له فرقها في أصحابك على من يحتاج إليها ولا تردها فقال هو أعرف بالناس إذا أراد ذلك(١) . وهي نصوص تشير مع غيرها إلى أن ابن جرير الطبري كان يعمل جاهداً على أن يحول بين الصلات والهبات وبين علمه حتى تسلم له نفسه ويسلم له تفكيره وينشد الحقيقة خالصة لوجه الله وليس يعنيه أن يكون المهدي وزيراً أو واحداً من الطلاب(٢) .

---

(١) ٨٧ ، ١٨/٨٨ معجم الأدباء • ط • رفاعي •
(٢) ٨٧ المصدر السابق •

ونحن لم نقف هنا إلا لنتبين أمثال هذه العلاقات المادية من حياة أبى الفرج ونتبين إلى أى حد كان يتأثر فنه وعلمه بهذه العلاقات. فهل كان يصنع صنيع أستاذه أو كان يصنع صنيع من وصف هو من الشعراء ؟.

إن الإجابة تتطلب منا بحث موارد الرزق ومصادر المال من حياة أبى الفرج وبحث العلاقة بين هذه المصادر وبين ما ينتجه الرجل من علم وفن.

وقبل أن نتحدث عن هذه الموارد نذكر مظهر الحياة المادية عند أبى الفرج فى تلك الفترة التى كان يعيش فيها عضواً عاملا فى المجتمع البغدادى.

كان أبو الفرج يسكن داراً تقع على دجلة فى المكان المتوسط بين درب سليمان ودرب دجله. ودرب سليمان هذا هو الدرب الذى ينسب إلى سليمان ابن جعفر بن أبى جعفر المنصور وهو بالجانب الغربى من بغداد وقد كان يقابل الجسر ويقرب منه فى أيام المهدى والهادى والرشيد. وكان قصر سليمان يقع فى هذا الدرب قباله رأس الجسر(١). ومن هنا سمى بإسمه. وقد كانت دار أبى الفرج تلاصق دار أبى الفتح البريدى(٢). الأمر الذى أشرنا إليه عند حديثنا عن العداوة التى كانت بين البريديين وأبى الفرج.

وكان أبو الفرج يملك هـذا المنزل وقد أشار إلى ذلك عند وصفه لفترة من الزمن قضاها بالبصرة فى أخريات عمره حيث زارها وهو مغادرتها إلى حصن مهدى. فقد كتب على حائط الخان الذى كان ينزله قصيدة منها هذه الأبيات التى تصور هذا البيت وتصور إلى جانبه أبا الفرج فى شىء من الغنى واليسر وفى شىء من اللهو والسرور. قال رحمه الله :

---

(١) ٧٢ أقسام شائعة من كتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء . ط . بغداد ١٩٤٨ م .

(٢) ٣٢ المصدر السابق . جمع ميخائيل عواد .

بدلت من بعد الغنى حاجة إلى كلاب يلبسون الفرا
أصبح أدم السوق لى مأكلا وصار خبز البيت خبز الشرا
وبعد ملكى منزلا مبهجاً سكنت بيتاً من بيوت الكرى
فكيف ألفى لاهياً ضاحكا وكيف أحظى بلذيذ الكرى(١)

وكان لأبى الفرج غلام يتوفر على خدمته(٢) . الأمر الذى لا يكون إلا للقادرين على الإنفاق على الغلمة ، كما كان يستضيف الناس لفترات قد تطول حتى تكون الشهور(٣) .

كان أبو الفرج إذاً فى شىء من السعة واليسر وكان أصدقاؤه من العلماء والكتاب من أمثال الصابى والأنبارى وأبى العلاء صاعد يزورونه فى هذه الدار لقضاء حقة وتعرف خبره والإقامة لحظات(٤) . الأمر الذى يدل على أنه لم يكن فى فقر وإملاق .

وإذاً فمن أين يجىء أبو الفرج بالمال الذى يمكن من مثل هذه المعيشة ؟

إن موارد الرزق عند أبى الفرج إنما تنبع فيما نرى من هذه الجهات .

أولا — أجور الطلاب الذين يأخذون عنه إما بالقراءة عليه من كتبه وإما بما يملى عليهم من أخبار وأشعار وهى أجور لا نستطيع أن ندعى أنا نعلم مقدارها فإنما نتصور فقط أن ذلك هو الذى يحدث فى ميدان الأدب والأخبار ، وأن هذا عند الأدباء والأخباريين باب من أبواب الرزق ومورد من موارد المال ، ولقد روى أبو الفرج خبراً يذكر فيه أن ابن أبى عبيدة

---

(١) ١٣/١١٦ معجم الأدباء .
(٢) ١٠٤ المصدر السابق .
(٣) ١٢٠ ، ١٢١ المصدر السابق .
(٤) ١٣/١٠٤ معجم الأدباء . ط . رفاعى

يملى شعر كثير بثلاثين ديناراً[١] . وليس أبو الفرج اللاهى العابث بالشيخ الذى يرفض أخذ الأجور من الطلاب .

وطلاب أبى الفرج فيما يحكى الخطيب البغدادى : الدار قطنى وأبو إسحاق الطبرى وإبراهيم بن مخلد ومحمد بن أبى الفوارس ويذكر الخطيب أنه حدث عنه عن على بن أحمد الرزاز وأبى على بن دوما ويعلق على هذا الأخير بقوله ولم يكن سماع ابن دوما منه صحيحاً[٢] .

والراوون لكتاب مقاتل الطالبيين من طلاب أبى الفرج هم أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن محمد الطبرى وعبد الله بن الحسين بن محمد الفارسى وهم الذين وصلتنا النسخة المقروءة عليهما[٣] .

والقارئون على أبى الفرج كتاب الأغانى ممن وقفنا على أسمائهم هم على ابن إبراهيم الدهكى[٤] وأبو الحسين على بن محمد بن عبد الرحيم بن دينار الكاتب[٥] . وقد ذكر ياقوت أنه قد وصلت إليه إجازة متصلة عن الأول . ويذكر ياقوت أنه قد كان من الذين رووا عن أبى الفرج أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد المغربى راوية المتنبى وأحد أئمة الأدب فى وقته[٦] .

ولن نستطيع أن ندعى فى هذا المقام أن هذه الأجور قلت أو كثرت كانت ذات أثر على هذه المرويات من حيث صدقها وصحتها أو عدم ذلك .

---

(١) ٨/٢٦ الأغانى . ساسى .
(٢) ١١/٣٩٩ تاريخ بغداد للخطيب .
(٣) ٣ مقاتل الطالبيين .
(٤) ١٢/٢١٧ ، ٢١٦ معجم الأدباء .
(٥) ١٤/٢٤٨ المصدر السابق .
(٦) ١٧/١٢٨ المصدر السابق .

ولا من حيث اختيار الموضوعات واختيار المواد التى تقوم عليها هذه الموضوعات فإنما كان أبو الفرج يملى كتاب المقاتل ويقرأ عليه الطلاب كتاب الأغانى وذلك كله قد كان فيما نرى — وكما هو الواضح من مقدمات هذه الكتب ومن أحاديث الرواة الذين رووا الكتاب الأول أو قرأوا عليه الكتاب الثانى — بعد الفراغ منها والانتهاء من اختيار موضوعاتها وجمع موادها . ومن هنا نستطيع أن نعد هذه الأجور موردا من موارد الرزق ولا نستطيع أن نعدها عاملا مؤثرا أو عاملا من العوامل التى تدعو الراوية إلى الانحراف ، اللهم إلا إذا قلنا إن أبا الفرج كان يملى المقاتل على الشيعيين وأنه من هنا كان يخشى ما يستثير عواطف الطلاب نحو آل على أو آل أبى طالب ، ولكن ذلك نفسه قد يؤذى أبا الفرج الشيعى قبل أن يؤذى الطلاب . ومن هنا نشعر أن أبا الفرج كان يملى ما يراه هو بعاطفته المذهبية الشيعية الحق والصواب ولو بالنسبة إلى آل على ، ويكون العامل المؤثر فى مثل هذه الحالة تشيع أبى الفرج .

وقبل أن نترك هذه المسألة نشير إلى أن هناك من طلاب أبى الفرج من قدم من الأندلس لطلب العلم ومن كان أبو الفرج يعظمه ويكرمه[1] .

ثانيا — الكتب « وكتب أبى الفرج مورد من موارد الرزق » بل هى مصدر من مصادر الثروة إن صح ما يقوله ابن خلدون[2] . وما يرويه صاحب نفح الطيب[3] من أن الحكم المستنصر قد أرسل فى طلب نسخة من كتاب الأغانى وأنه أرسل إلى أبى الفرج فيها ألف دينار من الذهب العين .

(١) ١٣/١٢ معجم الادباء .

(٢) ٤/١٤٦ ابن خلدون

(٣) ١٦٧ الفهرست لابن النديم .

وكتب أبى الفرج التى ألفها كثيرة . كتب بعضها للرؤساء والحاكمين ، وكتب بعضا آخر للقراءة والإملاء ، وكتب بعضا ثالثا لشفاء نفسه مما تجد وللكيد لبعض الأقران من أمثال هارون بن المنجم ذلك الذى كتب فيه كتاب صفة هارون ، وكتاب الفرق والمعيار بين الأوغاد والأحرار[١] .
ولن نستطيع أن ندعى أن هذه الكتب جميعها كانت موردا من موارد الرزق ، وحسبنا أن تعلم — أنه كتب بعضها للوزير المهلبي وقد كان يعيش فى كنفه وذلك ككتاب مناجيب الخصيان[٢] . وأن تعلم ما يقوله بعض المؤرخين من أنه حصل له ببلاد الأندلس كتب صنفها لبنى أمية ملوك الأندلس وكان يسيرها إليهم سرا وجاءه الإنعام سرا[٢] .

حسبنا أن تعرف هذا لننتقل إلى أمر يعنينا فى هذا الموقف ، ولعله من أجله عقدنا هذه الفقرة ، ذلك هو موقف أبى الفرج بين الضمير العلمى الذى هو ضمير خلقى قبل كل شيء وبعد كل شيء وبين رغبات الحاكمين أو من بأيديهم حق المنح والحرمان من الأغنياء الموسرين . فهل كان أبو الفرج يتحسس رغبات هؤلاء المانحين ويعمل على إرضائها أو على أقل تقدير لا يعمل على إغضابها ، أو كان يعرض عن كل هذا فى سبيل الحق والحق قبل كل شيء وبعد كل شيء ؟ .

إن الإجابة عن هذا السؤال ليست سهلة ولا يسيرة ما دمنا لم نقف على جميع كتب أبى الفرج ، وما دمنا لم نعرف جميع الرؤساء الذين ألف من أجلهم كتبه وأهداها إليهم فى السر أو فى العلن . ولكنها ليست مستحيلة ما دمنا

---

(١) ١٣/١٠٠ معجم الادباء .
(٢) لوحة ٢٧٦ ا تاريخ الاسلام للذهبى . مصورة رقم ٤٢ تاريخ دار الكتب .

نعرف العناوين والأسماء من هذه الكتب . إن هذه العناوين تحمل بين ثناياها موضوعات هذه الكتب ، واختيار هذه الموضوعات خيط نمسك به لنقف على مذهب أبى الفرج فى تحسس أو عدم تحسس رغبات هؤلاء المانحين .

ما الكتب التى ألفها أبو الفرج وأبقاها بالمشرق ؟ وما الكتب التى ألفها أبو الفرج وبعث بها إلى ملوك الأندلس وجاءه عليها الأنعام فى السر فيما يقال ؟

يجيب الخطيب البغدادى عن هذا السؤال فيقول « وصنف كتبا كثيرة منها الأغانى الكبير ، ومقاتل الطالبيين ، وأخبار الإماء الشواعر ، وكتاب الحانات ، وكتاب الديارات ، وآداب الغرباء ، وغير ذلك . فهذه تآليفه التى وقعت إلينا . وجعل له ببلاد الأندلس مصنفات لم تقع إلينا منها كتاب نسب بنى عبد شمس ، وكتاب أيام العرب ، ذكر فيه ألفا وسبعمائة يوم ، وكتاب نسب بنى شيبان ، وكتاب نسب المهالبة ونسب بنى تغلب ونسب بنى كلاب ، وكتاب القيان ، وكتاب الغلمان والمغنين ، وكتاب مجرد الأغانى [1] » .

وقبل البدء بالحديث عن هذه الكتب وعن دلالة عناوينها أو موضوعاتها على مذهب أبى الفرج فى تحسس الرغبات أو عدم تحسسها ، نصحح وضعا نعتقد أن قد أخطأ فيه الخطيب ، ذلك أن هذه الكتب التى تخص القيان والغلمان والأغانى قد كتبها أبو الفرج وأخرجها بالمشرق ، ووقعت فى يد الثعالبى ، والثعالبى فيما نعلم أقرب عهدا إلى أبى الفرج من الخطيب فقد ولد وصاحبنا حى يرزق .

---

(١) ١١/٣٩٨ الخطيب البغدادى .
(٢) ٢/٢٧٨ اليتيمة .

إن نظرة فاحصة إلى قوائم الكتب وتوزيعها بين المشرق والمغرب تدلنا على أن أبا الفرج قد كان يرسل إلى المغرب أخبار الحياة الجادة غير العابثة . وأنه قد كان يخرج بالمشرق أخبار الحياة الداعرة الفاجرة ، وليس من بأس فى أن نعلل هـذا الصنيع وأن نجعل من علله أن أبا الفرج كان يتحسس رغبات المانحين والمنعمين .

لقد كان المهلبي ومن على شاكلته من البيئه البغداديه يحبون كل ما هو داعر فاجر ، ومن هنا نفقت بضاعة أبى الفرج اللاهية عندهم ، ومن هنا أعرض ذوو الجد من الأدباء عن هذا المهلبي الذى لا يعرف من الحياة إلا العبث والمجون . تحدث أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحيم الأصفهانى فى كتابه إيضاح المشكل لشعر المتنبى قال « فلما حصل المتنبى ببغداد نزل ربض حميد فركب إلى المهلبي فأذن له فدخل وجلس إلى جانبه وصاعد خليفته دونه وأبو الفرج الأصبهانى صاحب كتاب الأغانى . . وانتظر المهلبي إنشاده فلم يفعل وإنما صده ما سمعه من تماديه فى السخف واستهتاره بالهزل واستيلاء أهل الخلاعة والسخافة عليه ، وكان المتنبى مر النفس صعب الشكيمة جادا مجدا فخرج . فلما كان اليوم الثالث . . . الخ[1] .

ولقد كان المستنصر صاحب جد وصاحب ميل شديد إلى الكتب يبعث فى شرائها إلى الأقطار رجالا من التجار ويرسل إليهم الأموال حتى جاب من هـذه الكتب إلى الاندلس ما لم يعهده أهلها ، وكان الذى يقيم على هـذه العملية زميل لأبى الفرج فى أيام الطلب هو أبو على القالى . ولن يرضى القالى من الأخبار إلا كل ما هو جاد رزين[2] .

---

(١) راجع خزانه الادب ٣٨٢ ـ ٣٨٩ ج ١ الطبعة الاولى .

(٢) راجـع تاريخ المستنصر ج ٤ ص ١٤٦ وما حواليها من تاريخ ابن خلدون .

لقد كان أبو الفرج من الذين يتحسسون رغبات البيئة الخاصة أو رغبات المنعمين فى اختيار موضوعات كتبه وفى اختيار المواد التى تؤلف هذه الموضوعات ، وهو أمر يجب أن نفطن إليه وإلى بعض آثاره عند تقديرنا لأبى الفرج الراوى ولقيمة مروياته فى الميدان العلمى وفى الميدان الفنى ليكون لنا صدق النظرة فى التقدير .

ثالثا — ومورد ثالث من موارد الرزق عند أبى الفرج هو أجره ، فقد كان أبو الفرج كاتبا وبهذه الحرفة يصفه جميع المؤرخين من أمثال أبى نعيم والخطيب البغدادى والذهبى وغيرهم . ويظهر أنه كان كاتبا فى ديوان الوزير أبى محمد المهلبى فإنهم يقولون إن المهلبى كان يختاره فى كل شىء مريح ، وأن صحبته له كانت قبل الوزارة وبعدها إلى أن فرق بينهما الموت[1] وقد كان أبو الفرج أيضا نديما ونديماً للوزير المهلبى بالذات ، ومن هنا نميل إلى أنه كان يأخذ رزق الندماء كما هى العادات المتبعة فى ذلك الحين ، وإن ابن النديم ليقص علينا أن من الناس من كان له رزق فى الندماء ورزق فى الفقهاء ورزق فى العلماء[2] .

وأرزاق أبى الفرج من هذه الحرف إنما تجيئه من أبى محمد المهلبى . وكأن المهلبى هذا دنيا أبى الفرج فى ظله يرعى وفى كنفه يعيش . وكأن المهلبى هذا هو الشخص الذى قد فرض على أبى الفرج أن يسمع ويبصر بعينه ويقص من الأخبار والنوادر ما يريد .

لقد كان أبو الفرج نديما ، ومهنة الندماء تفرض عليهم أن يقصوا من الأخبار ما يلهى السامع ويطرب الحاضرين ، وهل يستطيع أبو الفرج أن

---

(١) ١٣/١٠٥ معجم الادباء .

(٢) ٩٠ الفهرست . ط . مصر .

يقص فى مجالس اللهو والطرب إلا ما يتفق والكاس والطاس ، وإلا ما يلذ الشاربين ؟

ومرة ثانية نحس أن مزاج المهلبى وصحبه هو الذى يتحكم فى قصص أبى الفرج وأخباره ، وهو الذى يملى ألوانا بعينها تتلاءم والتيار السلوكى الذى يسود هذه الجماعة التى كان من أعضائها قضاة الشرع وحملة كتاب الله الكريم .

ولعل هذا التسلط يظهر أكثر وأكثر حينما نعرف أن الجوائز التى تمنح لأبى الفرج الشاعر إنما كانت تصدر هى أيضا عن هؤلاء الذين يصاحبهم المهلبى من أمثال القاضى التنوخى ، وعنه هو بصفة خاصة . وهذا هو الأمر الذى نص عليه صاحب اليتيمة حين قال « وكان منقطعا إلى المهلبى الوزير كثير المدح له مختصا به [١] » . ويظهر أن المهلبى كان يمنح أبا الفرج عن سعة فى المنح حتى ليقول صاحب نشوار المحاضرة رواية عن أبيه « ورأيته أنا غير مرة قد وهب للجهنى وأبى الفرج الأصفهانى خمسة آلاف دينار [٢] » .

وشعر أبى الفرج يصور لنا هذه الحالات ، وإنا لنشعر أن أبا الفرج يريد فى شعره أن يحمل الوزير المهلبى كل تكاليف الحياة .

يقول أبو الفرج مرة يستميح المهلبى :

فداؤك نفسى هذا الشتا ء علينا بسلطانه قد هجم
ولم يبق من نشبى درهم ولا من ثيابى إلا رمم
يؤثر فيها نسيم الهوا ء وتخرقها خافيات الوهم
وأنت العماد ونحن العفا ة وأنت الرئيس ونحن الخدم [٣]

---

(١) ٢/٣٧٨ اليتيمة . ط . دمشق .
(٢) ١/٤٢ نشوة المحاضرة . ط . هندية .
(٣) ٢/٢٨٠ اليتيمة .

وغير هذه كثير (١) مما يدل على أن المهلبي ببغداد كان دنيا أبى الفرج . وإذا كان من مذهب الرجل أن يرضى المانحين ، وإذا كان من حظ الندماء العمل على قص ما يرضى الشرب ، كان علينا أن نفسر عوامل الاختيار فى كتب أبى الفرج بالأجواء التى تحيط بالرجل . ولم تكن إلا جو المهلبي بعد أن التقيا واصطحبا .

هـذه هى الحياة المادية عند أبى الفرج مظهرها ومصادرها . وهـذا هو مذهب الرجل فى الربط بين العلم والمال ، وإنه كان يتحسس رغبات المانحين ويعمل على إرضائهم . يجب أن نكون على ذكر منها فى كل خطوة نخطوها عند تقديرنا لأبى الفرج الراوية .

---

(٢) ١٣٥ ، ١٣/١٣٦ معجم الادباء ٠ ط ٠ رفاعى ٠

الفصل الخامس

الحياة الاعتقادية والمذهبية

فى نص من نصوص ابن النديم وعند حديثه عن محمد بن يحيى الصولى نجد هذا الخبر « وتوفى مستترا بالبصرة لأنه روى خبرا فى على عليه السلام فطلبته الخاصة والعامة لقتله[1] » .

وفى نص من نصوص مسكويه وعند حديثه عن أحداث سنة عشر وثلاثمائة نجد هذا الخبر « وفيها توفى محمد بن جرير الطبرى له نحو تسعين سنة ودفن ليلا لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهارا وادعت عليه الرفض ثم ادعت عليه الإلحاد[2] » .

هذان الخبران لهما قيمتهما من حيث تصويرهما لبعض حالات الضغط التى يعانيها العلماء ، وهو ضغط قد يقع من الحاكم كما يقع من المجتمع ، ولهما قيمتهما فى هذا الموقف بالذات لأن هذه الأحداث إنما ألمت بشيخين من شيوخ أبى الفرج وألمت بهما فى وقت لم تكن الدولة قد اعترفت فيه بعد لا بحق الفرد فى التفكير وإعلان رأيه فى صراحة — فذلك حق لم يمانعه فيه ممانع ولم يعترض عليه فيه معترض — بل بحقه فى الحماية حمايته من الغوغاء وحمايته ممن يثيرون عليه الغوغاء من حاكمين أو محكومين ، فلم تكن حقوق الإنسان قد قررت . ومن هنا كان الأمر موكولا إلى العلماء إن شاءوا أعلنوا آراءهم

---

(١) ٢١٥ الفهرست لابن النديم .

(٢) ٥/٨٤ تجارب الامم . التمدن سنة ١٩١٤ م .

فى حرية وصراحة وعليهم وحدهم تقع التبعة ، وإن شاءوا لفوا وداروا أو نافقوا وتملقوا .

هذان الشيخان وابن جرير منهما بصفة خاصة من طراز فريد فى بابه . فهو رجل يؤمن بحقه فى الحرية ولا يريد أن يجعل لأحد عليه من سبيل . رجل يباعد بين علمه وبين سلطان المادة ، ويباعد بين علمه وبين سلطان الحاكم أو ضغط المجتمع ، هو رجل يكفى نفسه بنفسه ويجيئه رزقه من ماله الخاص . ومن هنا كان يملى مايريد . ومن هنا كان له مذهبه الخاص وله الكثيرون من الأنصار والأعوان[١] . ويظهر أن ابن جرير كان فى صراع دائم . صراع لحقه من الحنابلة منذ أن حضر إلى بغداد .[٢] وظل هذا الصراع يلاحقه إلى أن حضرته الوفاة .

ونحن لا نريد فى هذا الموقف أكثر من أن نتبين موقف أبى الفرج من أمثال هذه الأزمات لنقدر أثرها فى مروياته ، ولنعلم فى يقين إلى أى حد كان ينحرف هذا الرواية عن الطريق المستقيم .

وسنقصر حديثنا فى هذه الفقرة عن لونين من الأزمات . اللون الدينى . واللون السياسى .

ولسنا فى حاجة إلى أن ندل على الأسباب التى دفعتنا إلى أن نجمع بينهما فى فقرة . فكلنا يعلم أن الدين لم يكن قد انفصل بعد عن الدولة . وكلنا يعلم أن المبادىء السياسية أو المبادىء الاقتصادية لم تكن قد انفردت بعد بالميدان تصدر عنها النظم ويحتكم إليها الحاكمون والمحكومون حين يزلزل النظام وتضطرب الجماعة أو حين يؤذن الحال بالانقلابات والثورات .

---

(١) ٣٢٧ ، ٣٢٨ الفهرس .

(٢) ٥٧ ، ١٨/٥٨ معجم الادباء .

كان الدين كل شيء ، وكانت القيم الاجتماعية على اختلاف ألوانها من سياسية واقتصادية وخلقية تصدر عنه أو تربط نفسها به ، وكان الثائرون من أفراد المجتمع وكان المستبدون من الحكام إنما يصدرون فى كل هذا عن أفكار وآراء يعلنون ويؤكدون فى الإعلان أنها من الدين ، وأنها ما يريده الشارع الحكيم . ومن هنا كان منا الربط بين اللونين ، وكان جمعنا بينهما فى فقرة واحدة .

كان أبو الفرج من الشيعة ، والتشيع مذهب دينى وسياسى فى وقت معا . وكان أبو الفرج من الشيعة الزيدية ينص على ذلك المؤرخون من أمثال الطوسى [١] وصاحب الذريعة [٢] . كما يذكر ذلك أبو الفرج نفسه حين يقول متغزلا .

أنت ياذا الخال فى الـ وجنة مما بى خالى
لا تبالى بى ولا تخـ طرنى منك ببال
لا ولا تفكر فى حا لى وقد تعرف حالى
أنا فى الناس إما مـ ى وفى حبك (٣) غالى

هذا التشيع من أبى الفرج أو بعبارة أدل على المراد من أموى كان مبعث الدهشة والاستغراب ومثار النقد والتعليق .

فابن الأثير يذكر عنه وهو يقص أحداث سنة ست وخمسين وثلاثمائة ما يلى « وفيها توفى أبو الفرج على بن الحسين بن محمد بن أحمد الأصبهانى

---

(١) ٣٧٩ الفهرست للطوسى . ط . كلكتا سنة ١٨٥٣ م .
(٢) ٢٤٩ الذريعة الى تصانيف الشيعة . ط . النجف سنة ١٣٥٦ هـ .
(٣) ٢/٢٨٣ اليتيمة . ط . دمشق .

الأموى وهو من ولد محمد بن مروان بن الحكم الأموى وكان شيعيا وهذا من العجب[١] .

وصاحب روضات الجنات يقول « وأيا ماوجد فى كلماته من المديح ففيه أولا أنه غير صريح . ولو سلم فهو محمول على قصده التقرب إلى أبواب ملوك ذلك العصر المظهرين لولاية أهل البيت غالبا والطمع فى جوائزهم العظيمة بالنسبة إلى مادحيهم كما هو شأن كثير من شعراء ذلك الزمان فإن الإنسان عبيد الاحسان . مع أنى تصفحت كتاب أغانيه المذكور إجمالا فلم أر فيه إلا هزلا أو ضلالا ، أو بقصص أصحاب الملاهى اشتغالا ، وعن علوم أهل بيت الرسالة اعتزالا ، وهو فيما ينيف على ثمانين ألف بيت تقريبا . مضافا إلى كون الرجل من الشجرة الملعونة فى القرآن وداخلا فى سلسلة بنى أمية وآل مروان ، فكيف يمكن وجود رجل من أهالى الأيمان فى قوم توجه إلى قاطبتهم الألعان على أى لسان ومن أى إنسان[٢] » .

ونحن لايحق لنا أن نستغرب تشيع أبى الفرج فضلا عن استنكاره لاسيما بعد أن علمنا أنه قد ورث هذا التشيع عن أسرة أمه ، وأن هذه الأسرة كانت من الرافضة أو من الزيدية كما كان أبو الفرج ، وأنها استهدفت للاضطهاد بسبب هذه المذهبيات ، وبعد أن عرفنا أن هذا الميل الموروث قد قوى واشتد بفعل عاملين مهمين :

أولهما تلك الصداقة التى قامت بين الأعداء القدماء من العلويين والأمويين وذلك بسبب الموقف الذى تقفه كل أسرة منهما من خلفاء بنى العباس ، وقد

---

(١) ٨/٢٠٩ ابن الاثير .

(٢) ٤٧٨ روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات . ط . العجم سنة ١٢٨٧ هـ .

كان محمد بن أحمد الأصبهانى جد أبى الفرج قطبا من الأقطاب الذين يزورهم العلويون ويتناقشون فى مسائلهم أو فى مواقفهم فى بيته كما سبق أن ذكرنا .

وثانيهما تلك التربية الكوفية التى قام عليها رجال من الشيعة بل رجال من غلاة الشيعة كأحمد بن محمد بن سعيد عقده . ذلك الذى كان يملى فى مثالب الصحابة[1] .

لا يحق لنا أن نستغرب وأن نستنكر وإنما يحق لنا فقط أن نبحث عن مدى إيمان أبى الفرج بهذا المذهب ، فهل كان هذا الإيمان قويا عنيفا بحيث يدفع أبا الفرج إلى الاستهداف فى سبيله مهما ينل من أذى الخلفاء والحكام ، أو كان ضعيفا بحيث لا يدفع أبا الفرج إلى أى شىء . وليس له من الأيمان بهذا المذهب إلا الاسم فقط . ؟

إن الاجابة عن هـــذه المسألة من الضرورة بحيث لا يمكننا تفسير مرويات أبى الفرج لاسيما فى كتابه المقاتل إلا بعد الوقوف عليها . ذلك لأنها التى ستكشف لنا عن موقف أبى الفرج كشفاً يفسر لنا ما فى هذه المرويات من ميل أو انحراف عن الجادة .

ولقد ألف أبو الفرج كتاب المقاتل وهو كتاب قد صدر عن نزعة شيعية ما فى ذلك ريب . ولقد روى أبو الفرج عن الطالبيين أخباراً فى كتاب الأغانى كما روى عن المتشيعين كثيراً من الأخبار .. بل يذهب الطوسى إلى ما هو أبعد من هذا فيذكر لنا أن أبا الفرج قد ألف كتاب ما نزل من القرآن فى أمير المؤمنين وأهل بيته عليهم السلام كما ألف كتابا آخر فيه كلام

---

(١) ٦٨ الرجال للنجاشى . ط . فارس سنة ١٣١٧ هـ .

فاطمة عليها السلام فى فدك[١] . وهذه كتب شيعية بموضوعاتها . ولا تصدر إلا عن نزعة شيعية كما هو الواضح ، ولكنا مع كل هذا نخشى أن نخدع حين نمضى من غير أن نعرف مدى تلك العواطف التى يكنها أبو الفرج للتشيع وللشيعيين . أو بعبارة أخرى دون أن نعرف هل كان أبو الفرج يصدر فى ذلك عن تدين أو عن علم بالدين ، ذلك لأنا نعرف أن هناك فرقا واضحا بين المتدين وبين العالم بالدين . وأن الذى يؤلف فى المسائل الدينية إنما يصدر أولا وقبل كل شىء عن علم ومعرفة . عن عقل ضابط وذاكرة واعية . عن بصر بمسائل الدين وقضاياه . وليس من اللازم أن يصدر عن عاطفة قوية وعن قلب يخفق لعقيدة دينية تكون هى الفصــــل فى التفرقة بين الحق والباطل وتكون هى المتحكمه فى كل ما يصدر عنه من قول أو عمل . وليس يضيره عند ذلك أن يستثير الجماعة أو يغضب الحاكمين ما دام قد صدر عن هذه العاطفة وقد أرضى هذا الضمير الدينى .

التدين عاطفة قوية نحو المعانى الدينية . والعلم بالدين علم بمسائله وقضاياه . وهو أمر قد فطنت إليه العامة يوم أن جعلت إبليس أعلم العالمين .

إن التدين أو أن هذه العواطف القوية هى التى يقدر تأثيرها يوم أن يكتب صاحبها فى المسائل التى تخص هـذا الدين أو تخص هذا المذهب من الدين . ذلك لأنها قد تدفع المؤلف إلى إخفاء أو إعلان أو إلى تزيد أو نقصان ، كما تدفعه إلى أن ينساق فيجرى وراء المرويات التى تجىء عن أبناء هذا المذهب أو هذا الدين فيختارها على غيرها ويفضلها عن سواها لأنه يراها بعين العقيدة ويقدرها بضمير المحب المنقاد .

---

(١) ٣٧٩ الفهرست . للطوسى .

لكن هذه العواطف التى يخشى تأثيرها قد تعود فيحمد نفعها، ذلك لأنها السياج القوى الذى يحمى الحقيقة من عبث العابثين أو كيد الكائدين وتدفع صاحبها إلى الصمود فى وجه الجماهير .

علينا أن نتبين موقف أبى الفرج بوضوح لنقدر مروياته فى حذر ويقظة وفى عدل وإنصاف .

لم يكن أبو الفرج بالرجل المتزمت وإنما كان من اللاهين العابثين . ذلك هو الأمر الذى يدل عليه شعره ، ويدل عليه نثره ، ويفسره صحبته للقوم الماجنين .

كان أبو الفرج يشرب الخمر ويحب الغلمان ويحيا حياة المستهترين ويصف مجالسه تلك شعراً مرة ونثراً أخرى فيقول من أبيات له :

وبكر شربناها على الورد بكرة   فكانت لنا ورداً إلى ضحوة الغد
إذا قام مبيض اللباس يديرها   توهمته يسعى بكم مورد [1]

ويصور حالة من حالاته مع بعض الغلمان وكان قد عتب عليه أمراً أدى إلى ما يشبه القطيعة ثم لعبت الظروف لعبتها وذهب الغلام إلى أبى الفرج فى منزله وذلك حيث يقول « فأنا على غفلة إذ دخل فى خف وإزار وكادت مرارتى تنفطر فرحا فلقيته أقبل رجليه وهو يضحك ويقول يا تيها رزقها وهى نائمة هذا يا حبيبى بخت من لا يصوم ولا يصلى فى الحقيقة . . . » إلى أن يقول :

بت وبات الحبيب ندمانى   من بعد نأى وطول هجران

---

(١) ٢/٢٨١ اليتيمة . دمشق .

نشرب قفصيه معتقـــة بحانة الشط منذ أزمان
وكلما دارت الكؤوس لنا أثنى فاه ثم غنـــانى
الحمـــد لله لا شريك له أطاعنى الدهر بعد عصيان[١]

ويضيق أبو الفرج برمضان لأنه يمنعه عن اللهو والعبث وعما يستتبعه اللهو والعبث من شراب فيقول :

وقـد جاء شوال فشالت نعامة الــ
ـــصيام وأبدلنـا النعيم من الضر
وضجت حبيس الدن من طول حبسها
ولامت على طول التجنب والهجر[٢]

أبو الفرج على ما يظهر غير متحفظ ، وأبو الفرج فيما رأينا مستهتر ، ومن هنا لا تجيئه الأزمات إلا عفواً واقتداراً إن قدر للأزمات أن تجىء . ذلك لأن العواطف القوية هى المحرك فى مثل هذه الأمور ، وهى التى تدفع صاحبها إلى ألا يخشى غضب الحاكم أو ثورة الجماهير . وأبو الفرج لم يكن من ذلك فى شىء . ومن هنا خلت حياته من الأزمات وخلا تاريخه من الذكريات .

أبو الفرج صاحب ثقافة شيعية وقف التشيع منه فيما أرى عند حد العقل والذاكرة ومن هنا سخر هو نفسه فى بعض الأحيان من الشيعيين . يقول التنوخى . أخبرنى أبو الفرج الأصبهانى قال : سمعت رجلا من القطيعة يؤذن الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن عليا ولى الله ، محمد وعلى خيرا البشر فمن أبى فقد كفر ومن رضى

---

(١) ١١٧ — ١٣/١٢١ معجم الادباء . رفاعى .
(٢) ١٣٢ ، ١٣٣ المصدر السابق .

فقد شكر ، ضرطت هند على ابن عمر ، حى على الصلاح ، حى على الفلاح ، حى على خير العمل ، الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله[١] .

وأبو الفرج يملى عن الحيـــاة الشيعية أول عهده بالإملاء وهو فتى غض الإهاب فإذا ماكبر كتب فى الأغانى وفى الأدب العابث اللاهى أو الماجن المستهتر .

وأبو الفرج يكتب فى وقت أخذ فيه نفوذ الشيعيين يقوى ويضخم حتى كان الرؤساء فى ذلك الوقت من الشيعيين ، وحتى أصبحت الدويلات ثم الدول فيما بعد تدين بالمذهب الشيعى ، كما هو الحال بالنسبه للبويهيين والحمدانيين . ومن هنا لم يغضب أبو الفرج أحداً . ولم يغضب هو من أحد من الرؤساء والحاكمين .

هذا هو موقف أبى الفرج الدينى والمذهبي أو موقفه من التشيع والشيعيين .

أما موقفه من السياسة والسياسيين فيتلخص فيما يلى .

لم يكن موقف أبى الفرج من خلفاء بنى العباس إلا موقف العـداء ، ولا نعتقد أن أبا الفرج كان يصدر فى عدائه هذا عن رأى فى الحكم ومذهب فى السياسة فلم يكن أبو الفرج من ذلك فى شىء ، وليس أدل على هذا من أنه قد عاصر أخطر الأزمات التى مرت بها الخلافه العباسية وشاهد انحلال الدولة وقيام الدويلات ورأى بعينه كيف ذهبت سلطة الخلفاء وحلت محلها هيبة الأمراء وكيف أن هؤلاء كانوا يفرضون ما يريدون من أمر على خلفاء بنى العباس[٢] .

---

(١) ١/١٧٤ نشوار المحاضرة . ط . هندية .

(٢) ٨٤ — ٦/٨٧ مسكويه . التمدن سنة ١٩١٥ .

رأى أبو الفرج بعيني رأسه كل هذا ووعى هذه الأحداث كما وعاها غيره من المعاصرين من أمثال مسكويه مثلا ولكنه لم يترك لنا صوراً فنية عن شيء من هذا — اللهم إلا تلك الصورة التى رأيناها فيما مضى والتى فسرناها بأنها صورة من صور الكيد للبريدى والنكاية به، وليست الصورة التى يراد منها النيل من الراضى لأنه باعتباره من الخلفاء العباسيين الذين يضيق بهم أبو الفرج ولا يرضى عن مسلكهم فى الحكم أو مذهبهم فى السياسة قد قلد البريدى الوزارة ليستعين به على قضاء مآربه وتنفيذ أغراضه .

أن أبا الفرج إنما يصدر فى هذا العداء عن عاملين مهمين . عصبية أموية، وتشيع علوى، أو بعبارة أخرى أخصر وأدق إنما يصدر عن جو عائلى يلقنه هذه العداوة ويبث فى نفسه شيئاً غير قليل من الكراهية . فقد كان أبو الفرج أحد أفراد الأسرة الأموية والعداء بين أمية وهاشم قديم — ثم جاء الاسلام بأحداثه وكانت مواقف أبى سفيان من النبى عليه السلام، وعثمان من على رضى الله عنهما، ثم كانت أحداث معاوية والعلويين وأحداث انحلال الدولة الأموية وقيام الخلافة العباسية وما صحب هذا القيام من مصادرة للأموال وازهاق للأرواح وظلم واضطهاد ظلت صوره قائمه حتى كان عصر أبى الفرج، وكل هذه من الأحداث التى يقصها الآباء على الأبناء والتى يصورونها بالصورة التى تزيد من العداء وتنمى من الكراهية . وقد كان أبو الفرج من أم شيعية تكره العباسيين الذين يذيقون الطالبيين ألوانا من العذاب وصنوفا من الحبس والقتل ومن هنا نشأ وفى نفسه العداوة والكراهية . ولم يستطيع أبو الفرج إظهار هذا العداء فى صراحة وقوة لأن مركزه ومركز العائلة أضعف من أن يمكنه من هذا الاظهار . ومن هنا احتفظ بسره وكتم عواطفه وحال بينها وبين الظهور إلا فى الفلتات التى يمثلها حديثه عن ابن الرومى

الشاعر عند روايته لقصيدته التى يرثى بها يحيي بن عمر بن الحسين القتيل الطالبي والتى مطلعها .

أمامك فانظر أى نهجيك تنهج   طريقان شتى مستقيم وأعوج

فإنا نراه يقدم بين يدى هذه القصيدة بقوله عن المراثى التى قيلت فى يحيي « فمنه قول على بن العباس الرومى يرثيه وهى من مختار مارثى به بل إن قلت إنها عين ذلك والمنظور إليه لم أكن مبعدا ، لولا أنه أفسدها بأن جاوز الحد وأغرق فى النزع وتعدى المقدار بسبب مواليه من بنى العباس وقوله فيهم من الباطل مالا يجوز لأحد أن يقوله[١] » .

هـذه العاطفة المكتومة التى لا تستطيع أن تفصح عن نفسها فى صراحة وقوة لابد لهـا من مسارب ، ولو خفية ، تـكون المتنفس الوحيد لأصحابها ، ولن نستطيع أن نقطع برأى فى هذه المسارب ، ولا أن نقول إن منها تأليف أبى الفرج فى مقاتل الطالبيين ، وإن منها عنايته بالأخبار العابثة والأحداث اللاهية من حياة خلفاء بنى العباس ، فإن لذلك أسبابا أخرى تقوم إلى جانب هـذه العداوة المكتومة التى تحاول أن تفصح عن نفسها بهذا اللون من الأخبار . وكل مانستطيع قوله فى هذه المسائل هو أنه يجب علينا أن نـكون حذرين حينما نقرأ أمثال هـذه الأخبار ، وأن نضع نصب أعيننا دائما جواز أن يكون الدافع لأبى الفرج هو محاولة الـكيد للعباسيين من طريق خفى حتى لا يشعر به القارىء ولا يشعر به المحبون لبنى العباس .

وهنا يجب أن نفطن إلى أمر آخر له أثره الخطير فى حياة المرويات من نفس أبى الفرج ثم فى التاريخ العام . ذلك الأمر هو أن أبا الفرج وقد أحس

---

(١) ٦٤٦ مقاتل الطالبيين . ط . مصر .

فى نفسه امتزاجا وائتلافا بين الأموية والتشيع أو بين الأمويين والطالبين لم ير بأسا فى أن يكون هذا من الواقعات التاريخية . ومن هنا نراه يروى من الأخبار ما يؤكد قوة الصلة وحسن الجوار بين الطالبيين والأمويين . بل يروى ما يحاول أن يثبت به أن الأمويين كانوا أرأف وأرحم بالطالبيين من أبناء عمومتهم خلفاء بنى العباس .

يروى أبو الفرج فى كتاب المقاتل مرويات عن مروان بن محمد تثبت حرص هذا الخليفه على ألا ينال عبد الله بن الحسن أو ابنه محمدا أى أذى من واحد من الولاه [١] كما يروى ما يحاول أن يدل به على أن مروان هذا كان يعلم أن الأمر لن يكون للطالبين وإنما سيكون لبنى العباس [٢] .

ويروى أبو الفرج فى كتاب المقاتل أيضا ما يثبت أن موقف معاوية ابن سفيان من الزيديين والطالبيين كان خيرا من موقف الرشيد منهم . فمعاوية أميل إلى العلويين والرشيد أميل إلى اليزيديين (٣) .

ويروى أبوالفرج ما يدل على اعتراف الطالبيين أنفسهم بهذه المسائل . جاء فى الأغانى (وأخبرنى أحمد بن محمد بن سعيد وحرمى عن الزبير وأخبرنى الأخفش عن المبرد عن المغيرة بن محمد المهلبى عن الزبير عن سليمان بن عياش السعدى قال : جاء عبد الله بن عمر بن عبد الله العقيلى إلى سويقة وهو طريد بنى العباس ، وذلك بعقب أيام بنى أمية وابتداء خروج ملكهم إلى بنى العباس ، فقصده عبد الله والحسن أبناء الحسن بسويقة فاستنشده عبد الله شيئاً من شعره فأنشده . فقال له أريد أن تنشدنى شيئاً مما رثيت به قومك فأنشده :

---

(١) ٢٥٩ مقاتل الطالبيين ، ط ، مصر ،
(٢) ٢٤٧ ، ٢٥٨ المصدر السابق ،
(٣) ٤٧٤ ، ٤٧٥ المصدر السابق ،

تقول أمامة لمـــا رأت ... نشوزى عن المضجع الأنفس

وقـــلة نومى على مضجعى ... لدى هجعة الأعين النعس

أبى ما عراك فقلت الهموم ... منعن أباك فلا تبلسى

قال فلما أتى عليها بكى محمد بن عبد الله بن حسن فقال له عمه الحسن بن حسن بن على عليهما السلام أتبكى على بنى أمية وأنت تريد ببنى العباس ما تريد ؟ فقال والله يا عم لقد كنا نقمنا على بنى أمية ما نقمنا فما بنو العباس إلا أقل خوفا لله منهم ، وأن الحجة على بنى العباس لأوجب منها عليهم ، ولقد كانت للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبى جعفر — فوثب حسن وقال أعوذ بالله من شرك وبعث إلى أبى عدى بخمسين ديناراً . . .)[1] .

هـذه المرويات وأمثالها لا تقبل عن الشيعيين فى سهولة ويسر لا سيما أولئك الدين يعتقدون أن أبا الفرج من الشجرة الملعونة فى القرآن ، وأنه من بنى أمية الذين يلعنون فى كل مكان وعلى كل لسان — ومن هنا يجب أن نحذر عند قراءتنا لأمثال هذه المرويات فمن الجائز أن يكون أبو الفرج قد خدع وأن سبب الخداع أن حالته النفسية وما فيه من عناصر شيعية وأموية هى التى يسرت عليه كل هذا .

وليس لدينا عن موقف أبى الفرج السياسى من حيث اتصاله بما يرويه من أخبار غير ما تقدم ومن هنا نترك الموقف إلى موقف أخر هو .

الحياة الخلقية عند أبى الفرج

---

(١) أغانى ١٠/١٠١ ، ١٠٥ ساسى .

الفصل السادس

الحياة الخلقية

يقول ابن الجوزى فى ترجمته لأبى الفرج « وكان يتشيع ومثله لا يوثق برواياته فانه يصرح فى كتبه بما يوجب عليه الفسق ويهون شرب الخمر وربما حكى ذلك عن نفسه »[1] وهو قول يضع بين أيدينا مسألتين للتفكير فيهما .
الأولى ــ مسألة التيارات الخلقية فى حياة أبى الفرج وما يتبع هذه التيارات من أجواء نفسية أو من أهواء خاصة ونزعات معينة .

الثانية : ــ صلة هذه التيارات بمرويات أبى الفرج من حيث الثقة بها والاطمئنان إليها والاعتماد عليها فى ميدان البحث العلمى حينما نحاول تقدير المرويات أو تقويم الآراء .

والتيارات الخلقية من حياة أبى الفرج تتفق وما أجمله صاحب المنتظم ومن هنا لن نختلف وإياه فى شىء ، لا سيما وقد عرفنا الكثير مما يتصل بهذه التيارات : من أن أبا الفرح لم يكن بالمتدين ، ومن أن الأجواء التى كان يعيش فيها من جو أستاذه وصديقه جحظه إلى جو المهلبى ومن لف لفه من رجال الدين من أمثال القاضى الأيذجى والقاضى التنوخى أولئك الذين يحيون حياتين . ظاهر فيه الطهر والعفاف وباطن فيه الفسق والفجور ، كانت على ما رأينا أجواء فاجرة داعرة ، وأنها تدفعنا إلى التسليم بأن أبا الفرج كان من الذين يتخلعون ويتهتكون . من الذين يشربون الخمر ويأتون الذكران من العالمين .

---

(١) المنتظم ٦/٣٤٠ . مصورة ١٢٩٦ تاريخ . دار الكتب .

وأبو الفرج فى عرف المؤرخين حديد ، سريع الغضب ، بذىء اللسان ، يغضب لأتفه الأشياء ويضيق من أيسر الأمور ، ويطلق لسانه فيمن يستثير منه الغضب حتى ولو كان من أوفى الأوفياء وأخلص الأصدقاء ، ولذا نراه يهجو صديقه القاضى الأيذجى لأنه طلب منه عكازه فمنعها عنه . يهجوه أقبح الهجاء ويرميه بأنذل الصفات . يرميه بالأبنة .

اسمع حديثى تسمع قصة عجبا ... لاشىء أظرف منها تبهر القصصا
طلبت عكازة للرحل تحملنى ... ورمتها عند من يخبا العصا فعصا
وكنت أحسبه يهوى عصا عصب ... ولم أكن خلته صبا بكل عصا[1]

كما نراه يسخر من أبى القاسم الجهنى محتسب البصرة لأنه يقص من الحكايات ويورد من الأخبار المسلية ما هو من المبالغات . فقد ذكر ابن الصابى أن أبا القاسم الجهنى محتسب البصرة كان من ندماء المهلبى ، وكان يورد الطامات من الحكايات المنكرة ، فجرى مرة حديث النعنع فقال فى البلد الفلانى يطول حتى يصير شجراً أو يعمل من شجره سلالم . فاغتاظ أبو الفرج الأصبهانى من ذاك وقال نعم عجائب الدنيا كثيرة ولا يدفع مثل هذا وليس بمستبدع ، وعندى ما هو أعجب وأغرب ، وهو زوج حمام راعبى يبيض فى نيف وعشرين يوما بيضتين فانتزعها من تحته وأضع مكانهما صنجة مائة وصنجة خمسين ، فإذا انتهى مدة الحضان تفقست الصنجتان عن طست وإبريق أو سطل وكرنيب ـ فعمنا الضحك وفطن الجهنى لما قصده أبو الفرج من الطنز به وانقبض عن كثير مما كان يحكيه[2] .

---

(١) ١٣/١٣٤ معجم الادباء . ط . رفاعى .

(٢) لوحة ١٢٧٦ تاريخ الاسلام الكبير للذهبى . مصورة رقم ٤٢ تاريخ دار الكتب .

وبذاءة اللسان من أبى الفرج جعلت الناس يتحاشونه ويخشون لسانه(١) وإنهم ليذكرون لنا أنه لم يسلم أحد من هجائه حتى الوزير المهلبى . فقد ذكر ياقوت ما يلى . وعلى صنع أبى محمد بأبى الفرج ما كان يصنعه فما خلا من هجوه حيث قال فيه :

أبعين مفتقر إليك رأيتنى | بعد الغنى فرميت بى من حالق
لست الملوم أنا الملوم لأننى | أملت للإحسان غير الخالق(٢)

بل يروى ياقوت من الأخبار ما يفيد أن المهلبى كان يعلم هذه العادة الخلقية من أمر أبى الفرج ، فقد جاء فى معجم الأدباء مايلى : وحدث أبوالفرج على بن الحسين الأصفهانى قال : سكر الوزير أبو محمد المهلبى ليلة ولم يبق بحضرته من ندمائه غيرى فقال لى يا أبا الفرج أنا أعلم أنك تهجونى سراً فاهجنى الساعة جهراً ، فقلت الله الله أيها الوزير إن كنت قد مللتنى انقطعت ، وإن كنت تؤثر قتلى فبالسيف إذا شئت . قال دع ذا لابد أن تهجونى . وكنت قد سكرت فقلت ... إلخ(٣)

ولعل حدة الطبع وبذاءة اللسان هما السبب فيما يذهب إليه النقاد من أن أبا الفرج كان مجيداً فى فن الهجاء .

وأبو الفرج فى عرف المؤرخين أيضاً من القذارة بمكان ، فهو وسخ قذر دنس فى نفسه وفى ثيابه(٤) . ولعله من هنا كان بذىء اللسان لا يتورع عن دنس ولا يتعفف عن مكروه ، ولعل هذه الصفات قد لازمته منذ الصغر ،

---

(١) المصدر السابق .
(٢) ١٠٣ ، ١٣/١٠٤ معجم الادباء .
(٣) ١٠٨ ، ١٠٩ معجم الادباء .
(٤) لوحة ٩٠٢٧٦ تاريخ الاسلام للذهبى .

بل لعلها أن تكون أثراً من آثار أستاذيه القذرين أحمد بن جعفر جحظه ، وإبراهيم بن محمد عرفه .

وأبو الفرج أيضاً غريب الأطوار والعادات فيما يقص من شأنه صديقه التنوخى فقد قال « ومن ظريف أخبار العادات أنى كنت أرى أبا الفرج على بن الحسين الأصفهانى الكاتب نديم أبى محمد المهلبى صاحب الكتب المصنفة فى الأغانى والقيان وغير ذلك . دائماً إذا ثقل الطعام فى معدته ، وكان أكولا نهما ، يتناول خمسة دراهم فلفلا مدقوقا فلا تؤذيه ولا تدمعه وأراه يأكل حمصة واحدة أو يصطبغ بمرقه قدر فيها حمص فيسرهج بدنه كله من ذلك ، وبعد ساعة أو ساعتين يفصد وربما فصد لذلك دفعتين ، وأسأله عن سبب ذلك فلا يكون عنده علم منه ... »[1] ولعل لهذه المسألة أثرها فى حدة الطبع وسرعة الغضب وعدم ضبط أبى الفرج لنفسه عند ما يستثار حتى ولو كان الذى استثاره من أعز الأصدقاء وأوفى الخلطاء من أمثال الجهنى والمهلبى والأيذجى .

وأبو الفرج يصور لنا جوانب من حياته فى كتابه آداب الغرباء ، ولعل فيما نقله ياقوت عن هذا الكتاب ما يكفى لإعطاء فكرة عن التيارات الخلقية من حياة أبى الفرج كما رسمها هو . ونبدأ من ذلك بحديثه عن ذلك الغلام الذى كان يهواه والذى كان له معه مكاتبات ومعاتبات ، فإنا نراه يقول « إننى جئته يوم جمعة غدوة فوجدته قد ركب إلى الحلبة ، وكانت عادته أن يركب إليها فى كل يوم ثلاثاء ويوم جمعة ، فجلست على دكة على دار أبيه فى موضع فسيح كان عمرها وفرشها فكنا نجلس عليها للمحادثة إلى ارتفاع النهار ، ثم يدخل إذا أقمت عنده إلى حجرة لطيفة كانت مفردة له فنجتمع

---

(١) ١٠٧ ، ١٣/١٠٨ معجم الادباء .

على الشرب والشطرنج وما أشبهها . فطال جلوسى فى ذلك اليوم منتظراً له فأبطأ وتصبح من أجل رهان كان بين فرسين لبختيار ، فعرض لى لقاء صديق فقمت لأمضى ثم أعود إليه ، فهجس لى أن كتبت على الحائط الذى كنا نستند إليه هذه الأبيات :

يا من أظل بباب داره ويطول حبسى لانتظاره
وحياة طرفك واحوراره وجمال صدغك فى مداره
لاحلت عمرى عن هوا ك ولو صليت بحر ناره

وقمت ، فلما عاد قرأ الأبيات وغضب من فعلى لئلا يقف عليه من يحتشمه ، وكان شديد الكتمان لما بينى وبينه ومطالباً بمثل ذلك مراقبة لأبيه ، إلا أن ظرفه ووكيد محبته لى وميله إلى لم يدعه حتى أجاب عنها بما كتب تحتها . ورجعت من ساعتى فوجدته فى دار أبيه ، فاستأذنت عليه فخرج إلى خادم لهم فقال يقول لك لا التقينا حتى تقف على الجواب عن الأبيات فإنه تحتها ، فصعدت الدكة فإذا تحت الأبيات بخطه . ما هذه الشناعة ؟ ومن فسح لك فى هذه الإذاعة ؟ وما أوجب خروجك عن الطاعة ، ولكن أنا جنيت على نفسى وعليك ، ملكتك فطغيت وأطعتك فتعديت وما أحتشم أن أقول : هذا تعرض للأعراض عنك والسلام . فعلمت أنى قد أخطأت وسقطت شهد الله قوتى وحركتى ، فأخذتنى الندامة والحيرة ثم أذن لى فدخلت فقبلت يده فمنعنى . وقلت يا سيدى غلطة غلطتها وهفوة هفوتها فإن لم تتجاوز عنها وتعف هلكت ، فقال لى أنت فى أوسع العذر بعد أن لا يكون لها أخت . وعاتبنى على ذلك عتاباً عرفت صحته ، ولم تمض إلا مديدة حتى قبض على أبيه وهرب فاحتاج إلى الاستتار فلم يأنس هو وأهله إلا بكونه عندى ، فأنا على غفلة إذ دخل فى خف وإزار ، وكادت مرارتى تنفطر فرحا فلقيته أقبل رجليه

وهو يضحك . . . وبتنا فى تلك الليلة عروسين لا نعقل سكراً واصطبحنا وقلت هذه الأبيات . .)[١] .

وهو قول يدل على شغف أبى الفرج بالغلمان ، ولعله من أجل ذلك كان يلم بالأديرة ، وكان يشهد مجتمعات النصارىء وإنا لنراه يصور ذلك أيضا حيث يقول :

« وخرجت أنا وأبو الفرج أحمد بن إبراهيم بن على بن عيسى رحمه الله ماضيين إلى دير الثعالب للنزهة ، ومشاهدة اجتماع النصارى هناك ، والشرب على نهر يزدجرد الذى يجرى على باب هذا الدير ، ومعه جماعة من أولاد كتاب النصارى من أحداثهم ، وإذا بفتاة كأنها الدينار المنقوش تتمايل وتتثنى كغصن الريحان فى نسيم الشمال ، فضربت بيدها إلى يد أبى الفتح وقالت يا سيدى تعال اقرأ هذا الشعر المكتوب على حائط هذا الشاهد . فمضينا معها وبنا من السرور بها وبظرفها وملاحة منطقها ما الله به عليم . فلما دخلنا البيت كشفت عن ذراع كأنه الفضة وأومأت إلى الموضع . . . وحصلت بينها وبين أبى الفتح عشرة بعد ذلك ، ثم خرج إلى الشام وتوفى بها ولا أعرف لها خبراً بعد ذلك[٢] » .

هذه التيارات الخليعة التى يرسمها أبو الفرج لنفسه تخلق دائماً جوا نفسيا معينا يلذ له أنواع من الأخبار ويطربه ألوان من الأقاصيص . ومن هنا تكون الصلة بين التيارات الخليعة وبين المرويات .

وهنا يجب أن نقف للتفكير فى المسألة الثانية من مسائل صاحب المنتظم

---

(١) ١١٧ — ١٣/١٢١ معجم الادباء .
(٢) ١١٣ — ١١٥ معجم الادباء .

وهى عدم الثقة بمرويات أبى الفرج لأنه يصرح فى كتبه بما يوجب عليه الفسق ولأنه يهون شرب الخمر وأنه ربما حكى ذلك عن نفسه .

هنا قد نختلف مع ابن الجوزى لأنا لا نؤمن بذلك المقياس الذى يقيس به الرواة . ولن تكون سبيلنا إلى الثقة برواة الأدب والأخبار ألا يكونوا ممن تحدث عنهم صاحب المنتظم فهذه السبيل إن صلحت عند بعضهم فى رواية الحديث فإنها لا تصلح بحال من الأحوال فى الرواية الأدبية ، ذلك لأن هؤلاء اللاهين العابثين يكونون أكثر فطنة وأشد حذراً حينما يروون أخبار الخلاعة والمجون . فثقافتهم العلمية وخبرتهم بهذه الأجواء تجعلهم بأسرارها أدرى وبأحداثها أخبر . ومن هنا تكون قدرتهم على النقد أتم والثقة بمروياتهم فى هذا أكمل .

وإذا كان الحديث عن الثقة بالراوى له محله من الباب الثالث حيث يكون الحديث عن الضبط والعدالة فإنا سننصرف هنا إلى أمر آخر له صلة به ويتأثر أيضا بالتيارات الخلقية أو بالأهواء والنزعات ، ذلك هو اختيار المرويات وتفضيل بعضها عن بعض .

فلماذا مثلا اختار أبو الفرج الجوانب اللاهية العابثة من حياة الخلفاء ومن حياة المغنين والشعراء ؟ وهل صدر فى ذلك عن هوى ومزاج ورغبة فنية ، أو صدر فى ذلك عن أمور أخرى من أمثال الكيد السياسى ؟ أو لأنه هكذا كانت حياة هؤلاء الناس ؟

إن الكيد السياسى إن صلح بالنسبة لخلفاء بنى العباس فإنه لن يصلح بالنسبة لخلفاء بنى أمية من أمثال الوليد بن يزيد . كما أنه لا يصلح أن يكون التعليل الصادق لاختيار هذه الأخبار اللاهية من حياة الشعراء الشيعيين

أولئك الذين يتفق أبو الفرج معهم فى المذهب السياسى ويحبهم لحبه آل على .

وإن كل هؤلاء المغنين والشعراء الذين ترجم لهم فى كتاب الأغانى وصور لنا هذه الألوان من حياتهم لم يكونوا جميعا من اللاهين العابثين ، وإنما أبو الفرج هو الذى تتبع هذه الجوانب من حياتهم وحرص عليها — لا لأنه يبشر بالعبث ويدعو إلى الفجور ، وإنما لما ذكره هو فى مقدمة كتاب الأغانى من أن ما رتبناه أحلى وأحسن ، ليكون القارىء له بانتقاله من خبر إلى غيره ومن قصة إلى سواها ومن أخبار قديمة إلى محدثة ومليك إلى سوقة وجد إلى هزل ، أنشط لقراءته وأشهى لتصفح فنونه — لا سيما والذى ضمناه إياه أحسن جنسه وصفو ما ألف فى بابه ولباب ما جمع فى معناه[١] .

إن أبا الفرج قد قصد إلى الهزل لعوامل نفسية وفنية وأنه لم يقصد إليه لأنه الحقيقة التاريخية ، فلقد قص أبو الفرج من المصنوعات والأكاذيب قصصا وأخباراً ودل هو نفسه على بعضها وبرىء من العهدة فى بعضها الآخر ، ولم يفعل هذا إلا لأنه قصد إلى الرواية ولم يقصد إلى التاريخ ، وأنه قصد للرواية للإمتاع والمؤانسة ، واختار من المرويات ما يجعل الخبر ألذ وأمتع والقصة أشهى وأحلى ليكون السمر اللذيذ ولتكون الندوة المرحة . ومن هنا كانت أقاصيص اللهو والغرام ، وكانت أحاديث الكتاب والشعراء من الغلمان ، وكان بعضها واضح الدعابة خفيف الظل .

حدث أبو الفرح قال أخبرنى محمد بن خلف بن المرزبان قال حدثنا أحمد ابن الهيثم ابن فراس قال حدثنى العمرى عن الهيثم بن عدى ، وأخبرنى به

---

(١) ٣/١ أغانى . ساسى .

ابن أبى الأزهر عن حماد عن أبيه عن الهيثم بن عدى ، أن رجلا أنشد مصعب بن الزبير قول جميل .

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت بالحجر يوم جلتهـــا أم منظور

فقال لوددت أنى عرفت كيف جلتها ، فقيل له إن أم منظور هذه حية . فكتب فى حملها إليه مكرمة . فحملت إليه ، فقال لها أخبرينى عن قول جميل .

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت بالحجر يوم جلتهـــا أم منظور

كيف كانت هذه الجلوة ؟

قالت ألبستها قلادة بلح ، ومخنقة بلح واسطتها تفاحة ، وضفرت شعرها ، وجعلت فى فرقها شيئا من الخلوف . ومر بنا جميل راكبا على ناقته فجعل ينظر إليها بمؤخر عينه ويلتفت إليها حتى غاب عنا . فقال لها مصعب فإنى أقسم عليك إلا جلوت عائشة بنت طلحة مثل ماجلوت بثينة . ففعلت . وركب مصعب ناقته وأقبل عليهما وجعل ينظر إلى عائشة بمؤخر عينه ويسير حتى غاب عنهما ثم رجع[١] .

وحدث أيضا قال : أخبرنى عمى رحمه الله قال قال لى محمد بن موسى بن الحسين بن الفرات الكاتب : كان سعيد بن حميد يهوى غلاما له من أولاد الموالى ، فغاب عنه مدة ثم جاءه مسلما فقال له : غبت عنى هذه المدة ثم تجيئنى فلا تقيم عندى . فقال له قد أمسينا . فقال تبيت . قال لا والله لا أقدر ، ولم يزل به حتى اتفقا على أنه إذا سمع آذان العتمة انصرف . فقال له قد رضيت ، ووضع النبيذ فجعل سعيد يحث السقى بالأرطال ، فلما قرب وقت العتمة أخذ رقعة فكتب فيها إلى إمام المسجد وهو مؤذنه قوله :

---

(١) ٨٣ ، ٧/٨٤ أغانى . ساسى .

قل لداعى الفراق أخر قايلا ... قد قضينا حق الصلاة طويلا
أخر الوقت فى الآذان وقدم ... بعدها الوقت بكرة وأصيلا
فتراعى حق الفتـــوة فينـــا ... وتعافى من أن تـكون ثقيلا

فلما قرأ الموذن الرقعة ضحك وكتب إليه يحلف أنه لا يؤذن ايلته تلك العتمة . وجعل الفتى ينتظر الآذان حتى أمسى وسمع صوت الحارس فعلم أنها حيلة وقعت عايه وبات فى موضعه[1] .

إنما قصد أبو الفرج من الأخبار إلى الرواية — الأمر الذى سيزداد وضوحا عنـد حديثنا عن أبى الفرج وهل هو من الرواة أو من المؤرخين فى الفصل الأول من الباب الثالث إن شاء الله .

والآن نستطيع أن نقول إن مزاج أبى الفرج ومزاج الذين يحيطون به من ندماء المهلبى قد وضح فى اختيار بعض الجوانب من حيوات بعض الشعراء والمغنين والخلفاء ، وأن هذه الجوانب ماكانت إلا الخليعة الماجنة لتوافق هوى هؤلاء وتدخل السرور على أنفسهم وتـكون مادة سمرهم وأحاديثهم ، ولعلها بذلك تصور أحلامهم أكثر مما تصور واقعهم ، وترضى خيالهم أكثر مما ترضى عقولهم . لعلها أن تـكون للتنفيس لا للحقيقة والتاريخ . وعند ذلك تـكون قد أدت للإنسانية البغدادية خدمات جلى لأنها قد خففت بعض آلام المعذبين .

وقبل أن نترك الحديث عن هـذه التيارات الخلقية نشير إشارة مجملة إلى أن أهواء أبى الفرج نحو الأشخاص لها نفس الأثر الذى شعرنا به لأهوائه نحو هـذه الألوان الخليعة من الحياة . فأهواؤه نحو اسحق الموصلى جعلته

---

(١) ٣/١٧ المصدر السابق .

يعرض عن قول إبراهيم بن المهدى فيه . ونحو ابن المعتز جعلته يضيق بخصومه ويقف ليدافع عنه دفاعا حاراً . ونحو أبى تمام جعلته يضيق بابن مهرويه . ونحو آل ثوابه جعلته يضيق بالبحترى أو بفن الهجاء عنده .

إن الأهواء الشخصية لأبى الفرج يجب أن تتحسس عند قراءة مروياته ، كما تتحسس الأهواء الدينية والسياسية ويبحث عنهما كما يبحث عن أثر المادة والمال ، فكلها عوامل مؤثرة وبينة الأثر واضحة المعالم ، لا من حيث أبو الفرج فقط — وإنما من حيث كل مؤرخ أو راوية .

الفصل السابع

الحياة العقلية عند أبى الفرج

فى نص من نصوص الأغانى وفى موقف من هذه المواقف التى يحاول فيها أبو الفرج أحيانا أن يعلق على أقوال الرواة نراه يقول بصدد حديثه عن جرير والفرزدق والأخطل مايلى (فأما قدماء أهل العلم والرواة فلم يسووا بينهما وبين الأخطل لأنه لم يلحق شأوهما فى الشعر ولا له مثل مالهما من فنونه ولا تصرف كتصرفهما فى سائره . وزعموا أن ربيعه أفرطت فيه حتى ألحقته بهما . وهم فى ذلك طبقتان :

أما من كان يميل إلى جزالة الشعر وفخامته وشدة أسره فيقدم الفرزدق . وأما من كان يميل إلى أشعار المطبوعين وإلى الكلام السمح السهل الغزل فيقدم جريرا[1] . وهو قول يشعرنا بأن أبا الفرج كان يعرف للميول الثقافية خطرها فيما يصدر عن العلماء والرواة من آراء . ولعله يريد أن ينصح لنا بأن ندرس هذه الميول الثقافية من حياة العلماء والرواة ، وأن نتعرف عليها ، لنتبين فى وضوح وجلاء كيف صدرت هذه الأحكام ؟ ولماذا اختيرت هذه الأخبار ؟ .

وفى نص آخر من نصوص هذا الكتاب نرى أبا الفرج يقول (أخبرنى هاشم بن محمد الخزاعى قال حدثنا أبو غسان دماذ عن أبى عبيدة قال أنشدنى أبو الزعراء رجل من بنى قيس بن ثعلبة لطرفة بن العبد .

---

(١) ١٩/٤٧ أغانى · بولاق ·

تكاشرنى كرها كأنك ناصح وعينك تبدى أن صدرك لى دوى

قال فعجبت من ذلك وأنشدته أبا عمرو بن العلاء وقلت له إنى كنت أرويه ليزيد بن الحكم الثقفى فأنشدنيه أبو الزعراء لطرفه . فقال لى أبو عمرو إن أبا الزعراء فى سن يزيد بن الحكم ويزيد مولد يجيد الشعر وقد يجوز أن يكون أبو الزعراء صادقا .

قال مؤلف هذا الكتاب ما أظن أبا الزعراء صدق فيما حكاه ، لأن العلماء من رواة الشعر رووهما ليزيد بن الحكم وهذا أعرابى لا يحصل ما يقوله . لو كان هذا الشعر مشكوكا فيه أنه ليزيد بن الحكم ، وليس كذلك ، لكان معلوما أنه ليس لطرفه ولا موجوداً فى شعره على سائر الروايات ، ولا هو أيضاً مشبها لمذهب طرفه ونمطه وهو بيزيد أشبه وله فى معناه عدة قصائد يعاتب فيها أخاه عبد ربه بن الحكم وابن عمه عبد الرحمن بن عثمان بن أبى العاص ... الخ[1] .

وهو قول يشعرنا أيضاً بأمرين :

الأول : أن أبا الفرج يجعل للمستوى الثقافى حكمة فى قبول أو رفض المرويات فهو يرفض رواية أبى الزعراء لأن العلماء من الرواة رووا خلافها ولأن أبا الزعراء أعرابى لا يحصل ما يقوله .

الثانى : أن أبا الفرج يرى أن المذاهب الفنية صالحة لأن يعتمد عليها فى بيان الأصيل والدخيل من المرويات فهو يقبل هذا الشعر لأنه بيزيد أشبه وهو يرفضه لأنه ليس مشبها لمذهب طرفه ونمطه .

---

(١) ٩٩ ، ١٠٠/١١ أغانى ، ساسى .

ولعل أبا الفرج يريد هنا أيضاً أن ينصح لنا بدراسة المستويات الثقافية عند ما نريد أن تكون دراستنا للأشخاص سليمة ، وأن يكون حكمنا عليهم من حيث الثقة بهم وبمروياتهم صادقا .

ونحن لا نريد أن نأخذ أبا الفرج بأقل مما كان يأخذ به الرواة . بل نحن لا نريد أن نكون أقل من أبى الفرج إدراكا للصلة بين الحياة العقلية و بين ما خلف الراوى من كتب ومرويات . إن علينا أن نبحث الحياة العقلية عند أبى الفرج لنعرف العوامل الثقافية التى لعبت دورها فى مرويات أبى الفرج وفى كتبه ، ليكون درسنا للرجل سليما وحكمنا عليه صادقا .

والحياة العقلية حين تدرس عند الرواة إنما تدرس لبيان هذه المسائل :

أولا : الميول الثقافية نحو فروع من العلم وألوان من الفن ، أو نحو نظرية من النظريات ومذهب من المذاهب ، إذ لكل ذلك أثره من حيث العناية بألوان معينة من المرويات ـ ألوان يتحقق معها إرضاء الميول والأهواء . فتكثر الرواية فى لون دون لون ، وتختار المرويات لأنها تقرر هذه النظرية أو تجرى على هذا المذهب .

ثانياً : المستويات الثقافية ولها أثرها فى دلالتنا على مدى ما يمكن أن يتمتع به الراوى من ثقة . فهل كان أهلا للتحمل والضبط ولنقد المرويات والتعليق عليها أو كان من الذين يجمعون جمع حاطب الليل ويخبطون خبط عشواء ؟

ثالثاً : الحركات الذهنية وإلى أى حد كانت تنتظم خطوط سيرها . وهل أصبحت من العادات الفكرية أو الخصائص العقلية التى يمكن الاعتماد عليها فى بيان عمل صاحبها وقبول المرويات أو رفضها ؟

هذه هى المسائل التى يبحث عنها فى الحياة العقلية وفى مظهريها العلمى والفنى حتى تتم معرفة شخصية الراوى وهويته .

والوقوف على هذه المسائل فى دقة يتطلب منا أن نبحث هذه العقلية من حيث تكوينها فنبحث كيف تكونت ؟ ومن أى العناصر تكونت ؟ وما الصلة بين هذه العناصر - هل غلب أحدها فلون العقلية بلونه وطبعها بطابعه أو كانت النسب غير متفاوتة ؟ وإذا كانت فهل تم الانسجام أو ظلت هناك عناصر منفصلة وفعالة تسبب القلق الفكرى والاضطراب العقلى وتباعد بين العقلية وبين الاستقرار الذى يجعل لها خصائص أو عادات ثابتة متميزة يعرف بها عمل صاحبها ؟

والحياة العقلية إنما تتكون من الأفكار التى تأخذ مكانها من الذهن . وهى أفكار ترد عن واحد أو أكثر من واحد من مصادر ثلاثة .

المصدر الأول — التراث الشعبى ووسيلته إلى الذهن تلك التلقينات التى يقوم بها الآباء والأمهات والأخوة والأخوات والأتراب واللدات أو قل الروح الجماعية بعامة .

والمصدر الثانى — التراث العلمى والوسيلة هى التعليم بالأخذ عن المدرسين أو النقل عن الكتب والصحف .

والمصدر الثالث — الأفكار التى تتولد فى النفس البشرية نتيجة لتطور الاحساس إلى خاطره ففكره . وقد ينتهى الأمر بهذه الأفكار إلى أن تصبح من الأصول العامة أو من القيم .

والأفكار التى ترد إلى الذهن لا تكون فى حالة استقرار دائم فقد تختلف وتتنازع لما بينها من تعارض وهنا — ومن عجب أن يكون ذلك — يكون النصر للأقوى لا للأسلم من الأفكار .

والأفكار التى ترد عن المصدر الأول من أقوى الأفكار ومن هنا تجيء خطورة المصدر الأول على الحياة العقلية للأفراد وللجماعات . وتتمثل هذه الخطورة فى عدة عوامل .

الأول : أن هذا المصدر يكون فى بعض الحالات المصدر الوحيد الذى تصدر عنه الأفكار التى تكون الحياة العقلية عند من لم ينل حظا من التربية وقسطا من التعليم ، وإذا كان من المتعارف أن كل تراث شعبي لا يسلم من الأوهام ولا يخلو من الأساطير تبين لنا خطر هذا المصدر - ولعله من هنا كان من عمل المصلحين العمل على إذاعة الثقافة العلمية وعلى نشر أو تعميم التعليم .

الثانى : أن هذا المصدر عام ولا يخلو من تأثيره إنسان ، وأنه يبعث بالأفكار التى تصدر عنه إلى الذهن منذ المهد ولا يكف عن هذا الاصدار إلا عند اللحد . ومن هنا كانت هذه الأفكار مستقرة ثابتة لأنها وردت والعقل غض طرى ، والذهن مرن قابل للتأثر . ومن هنا أيضاً كان منها الأساس الأول الذى تقوم عليه الحياة العقلية ، عند كل إنسان ، ولعله من هنا حرص المصلحون على أن يكون هذا الأساس سليما منذ اللحظة الأولى وإلا اختل البناء . حرصوا على تنقية هذا التراث من الأوهام حتى لا تكون مسافة الخلف بينه وبين التراث العلمى عظيمة - وإلا اضطربت العقول وتبلبلت الأفكار ، وإلا كان النزاع حاداً عنيفاً ، وكانت النتيجة فى الغالب تمسك الأمة بتراثها الشعبي مهما يكن فيه من أساطير ومهما يدفع إليه من متاهات .

الثالث : أن الأفكار التى تصدر عن هذا المصدر قوية فى ذاتها لأنها تستمد وجودها من ذلك التراث الشعبي الذى تثبته العادات وتمكن له

التقاليد ، والذى يحيطه الشعب بسياج من العواطف القوية التى تذود عنه وتحميه . ومن هنا يكون السخط قويا والغضب حاداً عنيفا حينما ينقده ناقد أو يحاول أن ينال منه نائل أو ينتقصه منتقص . ولعله من هنا أيضاً حرصت الأمم الحية على حماية المفكرين من أبنائها لتمكنهم من النقد ومن التوجيه ـ وإلا ظل هذا التراث فى أولى درجاته مسيطرا وظلت الأمة بدائية ساذجة قاصرة . ولعله من هنا أيضاً كانت هذه المسألة مثار النزاع الدائم بين المفكرين الأحرار وبين الحكام المستبدين .

خطورة هذا المصدر هى التى دفعت الباحثين إلى الوقوف طويلا عند البيئة المعنوية يدرسونها ليتبينوا آثارها ، وليعرفوا إلى أى حد بلغت هذه الأفكار التى تجيء عن المصدر الأول من عقل العالم ومن قلب الأديب .

والوقوف على الأفكار التى تجيء عن التراث الشعبي وقوفا علمياً دقيقاً يكاد يكون فى حكم المستحيل ، ذلك لأنه يتطلب أولا وقبل كل شيء احصاء دقيقاً للأفكار التى تأخذ مكانها من الذهن ، ومعرفة واضحة للمصادر التى صدرت عنها ـ وهو العمل الذى لم يستطعه العلم بعد . ولعله من هنا اضطر الباحثون إلى الاكتفاء بدراسة التيارات المختلفة ووصف البيئة المعنوية وصفا يكشف عن ألوانها ولا يحدد أفكارها .

لقد مضينا منذ المقدمة حتى نهاية الباب الأول فى دراسة هذه التيارات أو هذه الألوان من العوامل المؤثرة فى حياة أبى الفرج وانتهينا إلى أمور عددناها فى حكم المقررات . وكان منها ذلك الميل إلى التشيع وكيف أدى إلى الكتابة فى المقاتل ، والميل إلى الملذات وكيف أدى إلى لون معين من الأخبار والأقاصيص ، والميل إلى التوفيق بين العصبيتين الأموية والطالبية وكيف أدى إلى لون معين من الأخبار هى تلك التى تقرب بين العصبيتين

حتى لتجعل الطالبيين أنفسهم يفضلون الأمويين على العباسيين . والآن نستطيع أن نعرض لأمرين من أمور البيئة لهما صلتهما بعقلية أبى الفرج .

وأول الأمرين ذلك الميل الشديد نحـــو رواية الأخبار فلقد بعث أبو الفرج ليتلقى ألوانا مختلفة من العلوم [١] . منها الدينى ومنها اللغوى والنحوى ومنها البيطرة والنجوم وعلم الجوارح ونتف من الطب [٢] . ولكنه امتاز وتفوق فى رواية الأخبار . ونستطيع تعليل هذا الميل .

وأول مانلتمس فيه التعليل هو الوراثه وليس يخفى أن أبا الفرج كان من رجال القرن الرابع وأن هـذا القرن يعتبر من أزهى القرون الاسلامية من حيث الحضارة العلمية ، ولقد كان لكل فرع من فروع العلوم أعلامه الأمجاد . ونظرة واحدة فى كتاب الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ترينا إلى أى حد كان النشاط العلمى فى ألوان المعرفة وأنواع العلوم . ومن هنا كان من السهل أن يكون أبو الفرج نحويا لغويا أو متفلسفا أو محدثا أو مفسرا ... الخ . ولكنه جنح إلى الأخبار مع أنه هو الذى بدأ برواية الحديث .

هذا الجنوح سببه الأول فيما نعتقد أن أبا الفرج ولد من أسرتين اشتغل أفرادهما بالكتابة وبرواية الأخبار . وللكثير منهم كتب نقل عنها أبو الفرج ، كما أخذ عمن التقى بهم من الرجال ـ الأمور التى وضحناها فى الفصل الثالث من الباب الأول .

وميل أبى الفرج إلى رواية الأخبار موروث ولكن الألوان التى روى فيها أو حمل أخبارها مثل أخبار النسب أو أخبار الشعراء والغناء أو أخبار الأيام والحروب هى التى تحتاج إلى تعليل غير علة الوراثة ـ تعليل يردها من

---

(١) لوحة ٢٧٦ ا تاريخ الاسلام للذهبى .
(٢) ٤٦٢ وفيات الاعيان باريس .

حيث هى أقوال علمية إلى مصدرها . الأمر الذى سنعرض له بعد لحظة إن شاء الله .

ثانى الأمرين ميل عام يكاد يكون أمرا شائعا فى العقلية الاسلامية فى ذلك الوقت ولا سيما عقلية الاخباريين ، ذلك الأمر هو الميل إلى قص الغرائب ورواية الشاذ من الأخبار . وليس من الاتفاق أن يقف ابن خلدون فى مقدمته عند الاخباريين الموجودين فى ذلك العصر من أمثال الطبرى والمسعودى ليأخذ عليهم هذا الأمر وإنما لأن ذلك هو الطابع العام لعقلية الاخباريين فى ذلك الزمان[1] . وقد عرض أيضاً لهذه المسألة المطهر بن طاهر المقدسى فى كتابه البدء والتاريخ[2] .

هذا الطابع لهذه العقلية واضح فى كتاب الأغانى وضوحاً بيناً، فلقد كان أبو الفرج يقص ألواناً من القصص تتمثل فيها هذه الغرابة ، وهو يقصها إرضاء للروح الدينية العامة أو الروح المذهبية الخاصة أو لأنها تستثير الخيال وترضى هذه العقلية التى تميل إلى الغريب — حتى ولو كان من المصنوعات والأكاذيب .

ونستطيع أن نعرض عليك مثلا تبين هذه العقلية كما تبين أن أبا الفرج كان يقف أحياناً إلى جانب بعض المرويات ويصححها لأنها فيما نعتقد ترضى ما فيه من ميل إلى الغرائب أو ترضى العقلية العامة فى مستواها لذلك العصر .

جاء فى الأغانى « أخبرنى عمى قال حدثنى أحمد بن الحرث عن بن الأعرابى عن ابن دأب قال خرج ركب من ثقيف إلى الشام وفيهم أمية بن

---

(١) راجع الفصل الخاص بفضل علم التاريخ الخ من مقدمه ابن خلدون وهو الفصل الأول .

(٢) راجع ج ١ ص ٤ وما بعدها .

أبى الصلت فلما قفلوا راجعين نزلوا منزلا ليتعشوا بعشاء إذ أقبلت عظاية حتى دنت منهم ، فحصبها بعضهم بشىء فى وجهها فرجعت ، وكفوا سفرتهم ثم قاموا يرحلون ممسين ، فطلعت عليهم عجوز من وراء كثيب مقابل لهم تتوكأ على عصا فقالت : ما منعكم أن تطعموا رجيمة الجارية اليتيمة التى جاءتكم عشية ؟ قالوا ومن أنت ؟ قالت أنا أم العوام مت منذ أعوام . أما ورب العباد ليفترقن فى البلاد ، وضربت بعصاها الأرض ثم قالت بطىء إيابهم ونفرى ركابهم . فوثبت الإبل كأن على ذروة كل بعير منها شيطاناً ما يملك منها شىء حتى افترقت فى الوادى . فجمعناها فى آخر النهار من الغد ولم نكد ، فلما أنخناها ليرحلها طلعت علينا العجوز فضربت الأرض بعصاها ثم قالت كقولها الأول ففعلت الإبل كفعلها بالأمس فلم نجمعها إلى الغد عشية ، فلما أنخناها لنرحلها أقبلت العجوز ففعلت كفعلتها فى اليومين ونفرت الإبل . فقلنا لأمية أين ما كنت تخبرنا به عن نفسك ؟ فقال اذهبوا أنتم فى طلب الإبل ودعونى . فتوجه إلى ذلك الكثيب الذى كانت العجوز تأتى منه حتى علاه وهبط منه واد فإذا فيه كنيسة وقناديل ، وإذا برجل مضطجع معترض على بابها ، وإذا به رجل أبيض الرأس واللحية ، فلما رأى أميه قال : إنك لمتبوع فمن أين يأتيك صاحبك ؟ قال من أذنى اليسرى . قال فبأى الثياب يأمرك ؟ قال بالسواد . قال هذا خطيب الجن كدت والله أن تكونه ولم تفعل . إن صاحب النبوة يأتيه صاحبه من قبل أذنه اليمنى ويأمره بلباس البياض . فما حاجتك ؟ فحدثه حديث العجوز . فقال صدقت وليست بصادقة ، هى امرأة يهودية من الجن هلك زوجها منذ أعوام ، وإنها لن تزال تصنع بكم ذلك حتى تهلككم إن استطاعت . فقال أمية وما الحيلة ؟ فقال جمعوا ظهركم فإذا جاءتكم ففعلت كما كانت تفعل فقولوا لها سبع من فوق وسبع من

أسفل باسمك اللهم ، فلن تضركم ، فرجع أمية إليهم وقد جمعوا الظهر فلما أقبلت قال لها ما أمره به الشيخ فلم تضرهم ، فلما رأت الإبل لم تتحرك قالت قد عرفت صاحبكم وليبيضن أعلاه وليسودن أسفله ، فأصبح أمية وقد برص فى عذاريه وأسود أسفله ، فلما قدموا مكة ذكروا لهم هذا الحديث فكان ذلك أول ما كتب أهل مكة باسمك اللهم فى كتبهم[١] .

وجاء فيه أيضاً « أخبرنى أحمد بن عبيد الله بن عمار ومحمد بن أحمد الحكيم قالا حدثنا أنس بن عبد الله النبهانى قال حدثنى على بن المنذر قال حدثنى عبد الله بن سعيد الاشقرى قال حدثنى دعبل بن على قال . لما هربت من الخليفة بت ليلة بنيسابور وحدى وعزمت على أن أعمل قصيدة فى عبد الله بن طاهر فى تلك الليلة ، فإنى لفى ذلك إذ سمعت والباب مردود على : السلام عليكم ورحمة الله انج يرحمك الله . فاقشعر بدنى من ذلك ونالنى أمر عظيم . فقال لى لا ترع عافاك الله فإنى رجل من إخوانك من الجن من ساكنى اليمن طرأ إلينا طارىء من أهل العراق فأنشدنا قصيدتك :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

فأحببت أن أسمعها منك . قال فأنشدته إياها . فبكى حتى خر ثم قال رحمك الله ألا أحدثك حديثاً يزيد فى نيتك ويعينك على التمسك بمذهبك . قلت بلى . قال مكثت حينا أسمع بذكر جعفر بن محمد عليه السلام فصرت إلى المدينة فسمعته يقول حدثنى أبى عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال على وشيعته هم الفائزون ، ثم ودعنى لينصرف فقلت له يرحمك الله إن رأيت أن تخبرنى باسمك فافعل قال أنا ظبيان بن عامر[٢] . . . »

---

(١) ٣/١٨١ أغانى . ساسى . وأخبار أمية كلها من هذا القبيل .

(٢) ١٨/٣٩ أغانى . بولاق .

هذه العقلية التى تمثلها هذه الأخبار أو التى ترضيها هذه الأقاصيص كانت الطابع العام لذلك العصر ، وكانت تلعب دورها فى الحياة العقلية لأبى الفرج . فقد كان يختارها كما قلنا إرضاء للروح الدينية إسلامية عامة أو شيعية مذهبية ، كما كان يختارها إرضاء للعقلية واستثارة للخيال . ومن هنا كان لا يضيره أن تكون من المصنوعات .

ولو أن الأمر وقف من أبى الفرج عند هذا الحد لما اهتممنا بأمر الاختيار كثيراً ، ولكن أبا الفرج كان يصحح بعض المرويات على هذا الأساس . يصححها لأنها غريبة لا لأن هناك عوامل الصدق والصحة التى تقوم على العقل والمنطق .

جاء فى الأغانى بصدد حديثه عن وفاة ليلى الأخيلية ما يلى (أخبرنى الحسن ابن على قال حدثنى ابن أبى سعد عن محمد بن على بن المغيرة قال سمعت أبى يقول : سمعت الأصمعى يذكر أن الحجاج أمر لها بعشرة آلاف درهم . وقال لها هل لك من حاجة ؟ قالت نعم وأصلح الله الأمير وتحملنى إلى ابن عمى قتيبة بن مسلم ، وهو على خراسان يومئذ ، فحملها إليه فأجازها ، وأقبلت راجعة تريد البادية ، فلما كانت بالرى ماتت فقبرت هناك . هكذا ذكر الأصمعى فى وفاتها وهو غلط . وقد أخبرنى عمى عن الحزنبل الأصبهانى عمن أخبره عن المدائنى . وأخبرنى الحسن بن على عن ابن مهدى عن ابن أبى سعد عن محمد بن الحسن النخعى عن ابن الخصيب الكاتب . واللفظ فى الخبر للحزنبل وروايته أتم : أن ليلى الأخيلية أقبلت من سفر فمرت بقبر توبه ومعها زوجها وهى فى هودج لها فقالت . والله لا أبرح حتى أسلم على توبه ، فجعل زوجها يمنعها من ذلك وتأبى إلا أن تلم به ، فلما كثر ذلك منها تركها فصعدت أكمة عليها قبر توبه فقالت السلام عليك يا توبه . ثم حولت وجهها

إلى القوم فقالت ما عرفت له كذبة قط قبل هـذه . قالوا وكيف ؟ قالت أليس القائل :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت ... على ودونى جندل وصفـــائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقى ... إليها صدى من جانب القبر صائح

فما باله لم يسلم على كما قال ؟

وكانت إلى جانب القبر بومة كامنة فلما رأت الهودج واضطرابه فزعت وطارت فى وجه الجمل فنفر فرمى بليلى على رأسها فماتت من وقتها فدفنت إلى جنبه .

وهذا هو الصحيح من خبر وفاتها(١) . وواضح أن التصحيح فى هـذا الخبر إنما قام على الغرابة .

هذان هما الأمران الجديدان اللذان يمكن ردهما إلى البيئة بمعناها الشعبى . بيئة الآباء والأمهات والأخوه والأخوات والأتراب واللدات .

أما البيئة العلمية أو الأفكار التى صدرت عن التراث العلمى فتلك التى سنتحدث عنها الآن .

من حسن حظنا أن كانت الرواية هى الوسيلة فى التعليم ، وهى دستور أبى الفرج فى تقييده لما وقف عليه من علم ومعرفة . ذلك لأن هذه الوسيلة أو هذا الدستور قد جعلنا نتعرف على بعض أمور هى من الأهمية بمكان . جعلنا نتعرف على وجهات النظر المختلفة فى المسألة الواحدة ، وهذا له أهميته من حيث التاريخ العلمى للمسائل وتفرعها ، والأفكار وتوزعها . وجعلنا

---

(١) ٧٧ ، ٧٨/ ١٠ أغانى ٠ ساسى ٠

نتعرف على تاريخ المسائل فى العصور المختلفة ، وهذان الأمران يمكناننا من دراسة كتب أبى الفرج ـ وبخاصة كتاب الأغانى ـ دراسة علمية دقيقة تطلعنا على الألوان الثقافية المجتمعة فى هذا الكتاب ، كما تطلعنا على التيارات المختلفة التى لعبت دورها فى كل لون .

وأمر آخر جعلنا هذا الأسلوب نتعرف عليه هو الميول الثقافية التى نشأت عن التراث العلمى ، والتى غذتها الأفكار التى تصدر عن هذا التراث . والتى ما كنا نستطيع الوقوف عليها فى سهولة ويسر وفى دقة وإحكام لولم يكن ذلك الأسلوب ـ أسلوب الرواية فى التعليم ، وفى التعبير أو تقييد العلم .

قلنا إن ميلا موروثاً دفع بأبى الفرج إلى الاهتمام بالأخبار . لكن أية أخبار ؟

هنا المسألة التى نستطيع أن نفسرها تفسيراً علمياً يقوم على النسب المختلفة لكل ما خلف أبو الفرج من كتب ، أو لكل ما بين أيدينا من مرويات .

والأخبار التى تركها أبو الفرج ألوان . منها النسب ، ومنها أخبار الاضطهادات أو القتل السياسى ، ومنها أخبار الوقائع والحروب أو أيام العرب ، ثم أخبار الغناء والشعر وأخبار الشعراء والمغنين . وهنا قد يختلط الهزل بالجد ، ويقوم الاختيار على أساس من الفكاهة والدعابة اللهم إلا فى أخبار النقد الفنى .

وإذا كان أبو الفرج قد صدر فى أخبار القتل السياسى أو فى كتاب مقاتل الطالبيين عن ميل موروث هو التشيع ، وعن ثقافة غذت هذا الميل هى الثقافة الكوفية الخاصة بالطالبيين . وإذا كان أبو الفرج قد صدر فى

الأخبار الهازلة العابثة عن مزاج خاص ، وعن ذوق معين لجماعة من الأصدقاء وعن بيئة للمغنين لا يكون فيها إلا ما هو من الدعابة إن لم يكن من الخلاعة والمجون ، فإنه فى غير ذلك – وفيما عدا بعض الأخبار السياسية التى تشبع رغبة معينة هى الكيد للعباسيين – قد صدر عن ميول ثقافية أساسها العلم ومبعثها التربية والتعليم .

وأول ميل ثقافى لأبى الفرج هو الميل إلى رواية الأخبار الخاصة بالنسب . نسب الأفراد أو نسب الأسر ، وهو أمر قد فطن إليه المؤرخون وعدوه من أجل ذلك من النسابين[1] . كما فطن إليه كاتب مادة أبى الفرج فى دائرة المعارف حيث نراه يقول عن كتاب الأغانى : جمع فيه الأغانى التى كانت شائعة إلى عهده مع ذكر شىء عن مؤلفيها وأنسابهم التى كانت تبدو له عظيمة[2] .

ومظهر عناية أبى الفرج بالأنساب واضح كل الوضوح من هذه الظاهرات .

أولا — لم يترجم أبو الفرج لشاعر أو مغن فى كتاب الأغانى ، ولا لقتيل سياسى فى كتاب مقاتل الطالبيين ، دون أن يذكر لنا نسبه . نسب أبيه فى الغالب ونسب أمه إن أمكن – اللهم إلا إذا كان مجهولا .

ثانياً — لم يترجم أبو الفرج لواحد من هؤلاء ويذكر نسبه إلا ويجمع الروايات التى قيلت فى هذا النسب . ومن هنا كنا نرى أمثال هذه العبارة

---

(١) لوحة ٢٧٦ ا تاريخ الاسلام الكبير للذهبى مصورة رقم ٢ تاريخ دار الكتب .

(٢) مادة أبى الفرج دائرة المعارف الاسلامية . الترجمة العربية .

« هذا الذى بأيدى الناس على اختلافهم فيه(١) » . حين يجد مرويات كثيرة . وأمثال العبارة التالية « ولم أجد نسبه متصلا فأذكره(٢) » حين لا يجد شيئاً .

ثالثاً — أن أبا الفرج لم يكتف بهذا الصنيع فى الأغانى والمقاتل وإنما كتب كتباً بتمامها فى النسب من أمثال نسب عبد شمس ، ونسب بنى شيبان ، ونسب المهالبة ، ونسب بنى تغلب ، ونسب بنى كلاب(٣) . وقد أشار أبو الفرج فى كتاب الأغانى إلى كتاب له فى أنساب العرب أكثر من مرة . وقد يكفى فى التدليل على ذلك هذا النص . . . ولم أذكرها ههنا لطولها ، وأن ذلك ليس من الغرض المطلوب فى هذا الكتاب . وإنما نذكر ههنا لمعاً وسائره مذكور فى جمهرة أنساب العرب الذى جمعت فيه أنسابها وأخبارها وسميته كتاب التعديل والانتصاف ...

ولأسد أشعار كثيرة ذكرت هذه منها هاهنا لأن تعلم أعراقهم فى الشعر . وسائرها يذكر فى كتاب النسب مع أخبار شعراء القبائل إن شاء الله تعالى(٤) ...

وعناية أبى الفرج بهذا اللون من الأخبار أو وجود الميل فيه لا يفسر بالوراثة . فليس فى أهله فيمن ترجمنا لهم من هو من النسابين . وإنما يفسر بعوامل أخرى أهمها فيما نعتقد عاملان :

الأول : أن أبا الفرج كان يترسم خطى إسحق الموصلى ، وإسحق قد اتخذ لنفسه دستوراً هو أن يذكر أنساب القوم . وقد نقل أبو الفرج نفسه هذا

---

(١) ١/٧ أغانى . ساسى .
(٢) ٥/١٥٣ المصدر السابق .
(٣) ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد للخطيب .
(٤) ٥٣ ، ١٩/٥٤ أغانى . ساسى .

الدستور حين نقل رسالة إسحق إلى على بن هشام والتى منها (... وبعد فأنا ، جعلت فداك ، فى صنعة كتاب مليح طريف ، فيه تسمية القوم ونسبهم وبلادهم وأسبابهم وأزمنتهم وما اختلفوا فيه من غنائهم وبعض أحاديثهم وأحاديث قيان الحجاز والكوفة والبصرة المعروفات والمذكورات وما قيل فيهن من الأشعار ولمن كن وإلى من صرن ومن كان يغشاهن ومن كان يرخص فى السماع من الفقهاء والأشراف ، فاعلمنى رأيك فيما تشتهى لأعمل على قدر ذلك[1] ...) . وإذا كان أبو الفرج قد جرى على هذا الدستور فى كتاب الأغانى فإنه قدجرى عليه فى النسب أيضاً .

الثانى : ظهور كتاب الزبير بن بكار فى النسب ، والزبير من النسابين الذين أخذ عنهم الكثيرون . وممن أخذ عنه من أساتذة أبى الفرج الطوسى وحرمى بن أبى العلاء . وأثر هذا الكتاب واضح جداً فى كتاب الأغانى حيث يتردد اسم الزبير بن بكار كثيراً .

ولعل من الخير أن نذكر أن عناية العرب بالأنساب قديمة . وأن المسلمين فى الدولة العباسية كان يقيمون على الأنساب بعض نظمهم المالية ـ كتلك التى تخص الأرزاق التى يجريها الخلفاء على الشرفاء . وإنهم قد اهتموا بالأنساب اهتماماً خاصاً لهذا السبب ، وأن هذا الاهتمام ظل قائماً حتى عصر أبى الفرج على الرغم من أنه قد أدى المهمة التى قام من أجلها . ولعل لهذا الاتجاه أثره فى توجيه أبى الفرج نحو هذه الأنساب .

وأيام العرب ووقائعها لون آخر من الألوان الاخبارية التى وقف عندها أبو الفرج . وقد كان عدد هذه الأيام فيما يحكى الخطيب ألفاً وسبعمائه

---

(١) ١٥/١٥٢ المصدر السابق .

يوم[١] . وهو عدد إن صح يبعث فى أنفسنا اعتقاداً بعناية تامة من أبى الفرج نحو هذه الأيام ، وهى عناية لا نستطيع أن نعللها بأكثر من أنها ميل خلقته الثقافة العامة التى كان يتلقاها أبو الفرج فى ذلك الحين[٢] . وليس يخفى أن من أشياخه الأخفش واليزيدى ، وأنه قد قرأ عليهما كتاب النقائض . وفى كتاب النقائض من أيام العرب ووقائعها الشىء الكثير . وفى كتاب الأغانى الموجود بين أيدينا صورة لهذه الأيام كما أخذها أبو الفرج عن الأخفش واليزيدى مسندة إلى السكرى فابن حبيب فأبى عبيدة[٣] .

أما ميل أبى الفرج إلى الشعر والغناء ، وأما ميل أبى الفرج إلى رواية الأحكام النقدية غنائية أو أدبية . وأما ميل أبى الفرج إلى مذهب إسحق فى الغناء وأبى تمام فى الشعر ، وأما موقف أبى الفرج إلى جانب ابن المعتز يدافع عنه ويوضح حقيقة فنه ، فهى الأمور التى سنجد الإجابة عنها فى الفصل التالى الخاص بالحياة الفنية عند أبى الفرج ـ لأنها كما لا يخفى من مسائل الفن وقضاياه .

عقلية أبى الفرج من الناحية العلمية عقلية إخبارية تقوم قبل كل شىء وبعد كل شىء على رواية الأخبار حتى لنعجز أن نتبين لها طابعاً آخر من لغة ونحو ، ومن حديث ودين ، ومن طب وتنجيم . ومن هنا نستطيع أن نقول إن هذا العنصر عنصر رواية الأخبار هو الذى سيطر على عقل أبى الفرج . وأن ميل أبى الفرج إلى هذا اللون كان لونا تغذيه الوراثة

---

(١) ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد .

(٢) راجع مادة أيام العرب فى دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية ففيها بحث قيم عن هذه الايام وعن عناية العرب بأيامهم وعن الاسباب فى كثرة هذه الأيام .

(٣) راجع من ٣٠ ـ ١٠/٤٥ أغانى ساسى فان فيها صورا واضحة عن هذه الأيام .

وتساعد عليه البيئة العلمية ، ومن هنا لم يشعر أبو الفرج بكثير من الحرج لأن علمه كان يغذى عواطفه وميوله ، ولأنه كان راوية والرواة كما سبق أن وضحنا فى التمهيد وكما سنرى فى الباب الثالث لا يقفون كثيراً لتحقيق المسائل وتصحيح الأخبار وإنما يمضون على روايتها كما أخذوها حتى لو كانت من الأكاذيب .

غير أنه مع كل هذا ، ومع أن الأسلوب هو الرواية نستطيع أن نتبين بعض العادات الفكرية التى كان أبو الفرج يجرى عليها فى مروياته .

وأول هـــذه العادات أن أبا الفرج يقف فى مقدمات كتبه ليحدد موضوعاتها أو مسائلها ، وهو يحددها التحديد البين الواضح الذى يمكن القارىء من معرفة موضوع الكتاب منذ اللحظة الأولى ويتصوره تصوراً مقارباً . فعل ذلك فى المقاتل حيث دلنا على أنه سيذكر فى هذا الكتاب أخبار من قتل من آل أبى طالب ، وأنه سيختار من هؤلاء من كان محمود السيرة سديد المذهب[١] . وفعل مثل ذلك فى كتاب الأغانى حيث حدد موضوعه تحديداً بينا[٢] وحيث قصره على ما وجد لشاعره أو مغنيه أو السبب الذى من أجله قيل الشعر أو صنع اللحن خبراً يستفاد ويحسن بذكره ذكر الصوت معه .

وأبو الفرج حين يختار موضوعه وحين يحدده هذا التحديد الذى يبين الغرض منه يبدأ فيختار المواد على هذا الأساس . وهو حين يختارها يشعر دائماً بما أخذ على نفسه من عهد . ومن هنا نجده يتوقف حين لا تكون المواد مما يفى بالأغراض . ولذا نراه يقول بين حين وآخر أمثال هذه

---

(١) ٤ ، ٥ مقاتل الطالبيين . مصر .
(٢) ١/٢ الأغانى . ساسى .

العبارات التى تدل على يقظته وحذره عن الخروج « وإنما ذكرنا خبره معهم لأنه كان أخاهم لأمهم وكان هوى لهم وكان عبد الله بن الحسن يحبه محبة شديدة فقتل معه لما قتل[١] » . « ونبدأ بذكر من قتل معه من أهل بيته حسبما شرطنا فى هذا الكتاب ثم نأتى بسياقة خبرهم[٢] » . « وخبره أحسن وأكثر تلخيصا وأدخل فى معنى الكتاب[٣] » وأخبار المعتضد فى صنعة هذا اللحن وغيره من الأغانى دون أخباره فى غير ذلك لأنها كثيرة تخرج عن حد الكتاب . وشيء من أخباره مع المغنين وغيرهم يصلح لما ههنا[٤] .

ونستطيع أن نقرر أن أبا الفرج لم يخرج عن الحدود التى رسمها لنفسه فى كتابه « مقاتل الطالبيين » وأنه خرج عن ذلك فى كتاب الأغانى ، وأن سر هذا الخروج ليس إلا طبيعة الموضوع ـ الأمر الذى سنتناوله بالشرح المفصل عند حديثنا عن مسألة التصنيف أو التأليف من الفصل الخاص بمرحلة الأداء . ومكان هذا الحديث هو الباب الثالث إن شاء الله .

أمر آخر نذكره على أنه من العادات الفكرية لأبى الفرج . هو أنه حين يحدد موضوعاته ويختار لها المواد يعرضها العرض الذى يلائم ما يرمى إليه من مقاصد وأغراض . ومن هنا كان العرض فى كتاب المقاتل قائماً على التقسيم الزمنى فنرى أبا الفرج يعرض علينا القتلى من الطالبيين فى الدولتين الأموية ثم العباسية . وهو فى كل دولة يعرض هؤلاء القتلى باعتبار الأزمنة أو العصور التى حكم فيها الخلفاء ـ أما العرض فى كتاب الأغانى فقد قام على أساس غير هذا ـ أساس لم يدخل العامل الزمنى فيه وإنما تحكمت طبيعة

---

(١) ١٤١ مقاتل الطالبيين · بغداد ·
(٢) ٢٨٨ المصدر السابق ·
(٣) ٨/١١٠ أغانى · بولاق ·
(٤) ٩/١٩ أغانى · ساسى ·

الموضوع . ومن أجل هذا وضح أبو الفرج هذه المسألة فى مقدمة الكتاب ، وبين لنا أن العوامل النفسية عوامل إرضاء القارىء وإدخال السرور على نفسه وتجديد نشاطه والانتقال به من جد إلى هزل هى التى تدخلت فى أسلوب العرض أو فى ترتيب المواد من مسائل الكتاب .

وقد نستطيع أن نضم إلى هذه العوامل عاملا آخر هو أن أبا الفرج قد عرض للأصوات المائة أولا وقبل كل شىء . ومن هنا تأثر عرضه بتقسيم قام به غيره ـ الأمر الذى سنشرحه أيضاً فى الباب الثالث عند حديثنا عن مسألة التصنيف والتأليف من مرحلة الأداء .

هذه عقلية أبى الفرج العلمية فى تكوينها وفى خصائصها . وقد أبناها كما استطعنا الوقوف عليها من كتبه التى يقوم التأليف فيها على أسلوب الرواية . ونستطيع أن نتركها إلى حياته الفنية ولعلها بدورها أن تلقى ضوءاً على حياته العقلية وهى جزء منها ، أو على حياته العلمية وهى شق يتممها .

الفصل الثامن

الحياة الفنية عند أبى الفرج

والعناصر الثقافية التى تتكون منها الحياة الفنية عند أبى الفرج هى :

(ا) الأخبار الفنية للغناء العربى وما يتبع ذلك من أحاديث عن المذاهب والأجناس وعن بعض النظرات النقدية التى تكشف عن ميول أبى الفرج الفنية وعن مذهبه فى الغناء .

(ب) الأخبار الفنية للشعر والشعراء ومايتبعها من أحاديث عن المذاهب الأدبية وعن ميول أبى الفرج .

(ج) الفن الشعرى .

(د) الفن النثرى لاسيما القصص أو الأخبار .

والعنصر الأول هو أقوى هذه العناصر وأكثرها وضوحا فى حياة أبى الفرج الفنية ، بل هو العنصر المتحكم فى حياة العنصر الثانى أو فى حياة الشعر والشعراء . وليس أدل على ذلك من أن أبا الفرج قد أهمل الشعراء الذين لم يجد لهم من الأشعار ما غنى فيه . فأساس الاختيار عنده أن يكون للشاعر شعر غنى فيه حتى يترجم له ، ثم هو فى ذكره للشعر الذى غنى فيه إنما يهتم به من حيث هو أصوات ، فيذكر هذه الأصوات كما غنيت حتى ولو غير المغنون الشعر لتستقيم لهم القسمة والتجزئة [1] ، وحتى لو كان الشعر لأكثر من شاعر [2] .

---

(١) راجع ٢٢٠ ، ٢٥٨ ج ٢ أغانى . دار الكتب .

(٢) ٤/٣٦ أغانى . بولاق . وهو فى المائة المختارة .

وغلبة هذا الشعر الغنائى واضحة كل الوضوح مما ترك أبو الفرج فيه من كتب، فقد كتب فى هذه الأخبار الفنية للغناء والمغنين، كما كتب فى الأنغام والعلل. ومن ذلك كتابه الأغانى الكبير الذى يقول عنه ابن خلدون «وقد ألف القاضى أبو الفرج الأصبهانى وهو ما هو كتابه فى الأغانى جمع فيه من أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم، وجعل مبناه على الغناء فى المائة صوت التى اختارها المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه، ولعمرى أنه ديوان العرب، وجامع أشتات المحاسن التى سلفت لهم فى كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال، ولا يعدل به كتاب فى ذلك فيما نعلمه. وهو الغاية التى يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأنى له بها[1]». ومنه كتاب مجرد الأغانى وقد أشار إليه أبو الفرج فى مقدمة كتابه الأغانى الكبير[2]. وكتاب مناجيب الخصيان وهو كتاب عمله للوزير المهلبى فى خصيين مغنيين كانا له[3].

أما ما كتبه فى الصنعة الغنائية أو فى علل الغناء فإنه يدل على دقة وعمق. وحسبنا من ذلك هذا النص الذى ينقد فيه المرويات نقداً فنياً قائماً على خبرة بالصناعة وبصر بها، وهو (وذكر عبيد الله أن صانع هذا الصوت الذى كنى عنه فعل ذلك وتلطف له حتى أتى بالنغم العشر فى هذا متوالية من أولها إلى آخرها، وأتى بها فى الصوت الذى بعده متفرقة على غير توالى إلا أنها كلها فيه، وذكر أن ذلك الصوت أحسن مسموعا وأحلى. وحكى ذلك أيضاً عنه يحي بن على بن يحي فى كتاب النغم. وإذ فرغت من حكاية ماذكره وحكاه عبيد الله فى نسبة هذا الصوت فقد ينبغى ألا أجرى الأمر

---

(١) ٥٠٦ مقدمة ابن خلدون بيروت سنة ١٨٨٦ الطبعة الثانية.
(٢) ١/١ الأغانى. ساسى.
(٣) ١٣/١٠٠ معجم الأدباء.

فيه على التقليد دون القول الصحيح فيما ذكره وحكاه ، والذى وصفه من جهة النغم العشر متوالية فى صوت واحد محال لاحقيقة له ولا يمكن أحداً بتة أن يفعله ، وأنا أبين العلة فى ذلك على تقريب إذ كان استقصاء شرحها طويلا ، وقد ذكرته فى رسالة إلى بعض إخوانى فى علل النغم (١) ، وشرحت هناك العلة فى أن قسم الغناء قسمين وجعل على مجريين الوسطى والبنصر دون غيرهما ، حتى لاتدخل واحدة منهما على صاحبتها فى مجراها قرب مخرج الصوت ، إذا كان على الوسطى منه إذا كان على البنصر وشبهه به ، فإذا أراد مريد إلحاق هذا بهذا لم يمكنه بتة على وجه ولا سبب ، ولا يوجد فى استطاعة حيوان أن يتلو إحديها بالأخرى ، ولا إذا اتبعت إحداهما بالأخرى فى ناى أو آلة من آلات الزمر تفصلت إحداهما من الأخرى ، وإنما قلت النغم فى غناء الأوائل لأنهم قسموا قسمين بين هاتين الأصبعين فوجدوها إذا دخلت إحداهما مع الأخرى فى طريقتها لم يمكن ذلك إلا بعد أن يفصل بينهما بنغم أخرى للسبابة والخنصر يدخل بينهما حتى تتباعد المسافة بينهما ثم لا يكون ذلك الغناء ملاحة ولا طيبا للمضادة فى المجريين فتركوه ولم يستعملوه ، فإن صح لعبيد الله عمل فى النغم العشرة فى صوت فلعله صح له فى الصوت الذى ذكر أنه فرقها فيه . فأما المتوالية على ما ذكره هنا فمحال ، ولست أقدر فى هذا الموضع على شرح أكثر من هذا . وهو فى الرسالة التى ذكرتها مشروح (٢)) .

وأبو الفرج إنما يجنح نحو مذاهب القدامى فى الغناء فهو عدو المحدثين منهم ، ويرى أنهم أفسدوا الغناء القديم ، وأنهم بصنيعهم هذا قد قضوا عليه ،

---

(١) أشار الى هذه الرسالة فى ٥/٥٣ ، ٩/٤٩ الأغانى . بولاق .

(٢) ٨/٢٦ أغانى . بولاق .

حتى أنه لم يبق منه فى عصره ما يعتمد عليه ويرى أنه صحيح سليم . وهذا هو الواضح من حديثه عن ابن المهدى حيث يقول (وكان إبراهيم مع علمه وطبعه مقصراً عن أداء الغناء القديم وعن أن ينحوه فى صنعته ، فكان يحذف نغم الأغانى الكثيرة العمل حذفا شديداً ويخففها على قدر ما أصلح له ويفى بأدائه ، فإذا عيب ذلك عليه قال أنا ملك وابن ملك أغنى كما اشتهى وعلى ما ألتذ ، فهو أول من أفسد الغناء القديم وجعل للناس طريقا إلى الجسارة على تغييره . فالناس إلى الآن صنفان : —

(ا) من كان منهم على مذهب إسحق وأصحابه ممن كان يعظم الغناء القديم وينكر الإقدام عليه ويعيب من فعله وهو يغنى الغناء القديم على جهته أو قريباً منها .

(ب) ومن أخذ بمذهب إبراهيم بن المهدى أو اقتدى به مثل مخارق وشاريه وريق . ومن أخذ عن هؤلاء إنما يغنى الغناء القديم كما يشتهى هو لا كما غناه من ينتسب إليه ، ويجد على ذلك مساعدين ممن يشتهى أن يقرب عليه مأخذ الغناء ويكره ما ثقل ، وتقلبت أدواره ، ويستطيل الزمان فى أخذ الغناء الجيد على جهته بقصر معرفته ، وهذا إذا اطرد فإنما الصنعة فيه لمن غنى فى هذا الوقت لا للمتقدمين ، لأنهم إذا غيروا ما أخذوه كما يرون وقد غيره من أخذوه عنه وأخذ ذلك أيضاً عمن غيره حتى يمض على هذا خمس طبقات أو نحوها فلم يتأد إلى الناس فى عصرنا هذا من جهة هذه الطبقة غناء قديم على الحقيقة البتة . وممن أفسد هذا الجنس خاصة بنو حمدون ابن إسماعيل فإن أصلهم فيه مخارق وما نفع الله أحداً قط بما أخذ عنه ، وزرياب الواثقية فإنها كانت لهذه الصورة تغير الغناء كما تريد ، وجوارى شاريه وريق فهذه الطبقة على ما ذكرت .

ومن عداهم من الدور مثل دور عريب ودور جواريها ، والقاسم بن زرزور وولده ، ودور بذل الكبرى ومن أخذ عنها ، وجوارى البرامكة وآل هاشم وآل يحي بن معاذ ، ودور آل الربيع ومن جرى مجراهم ممن تمسك بالغناء القديم وحمله كما سمعه فعسى أن يكون قد بقى مما أخذ بذلك المذهب قليل من كثير .

وعلى أن الجميع من الصحيح والمغير قد انقضى فى عصرنا هذا [١] .

ويظهر أن أبا الفرج كان يجرى فى هذا خلف إسحاق فقد كان إسحاق ممن يفضلون القديم ويجرون عليه وأبو الفرج قد اتخذ من إسحاق مثله الأعلى. ولعل ذلك يتضح من صنيع أبى الفرج فى كتاب الأغانى حيث جرى فيه على مذهب إسحاق حتى ولو كانت النسبة عن غيره ، وقد دل هو على ذلك حيث قال (وكل ما ذكرنا فيه من نسب الأغانى إلى أجناسها فعلى مذهب إسحاق ابن إبراهيم الموصلى وإن كانت رواية النسبة عن غيره ، إذ كان مذهبه هو المأخوذ به اليوم دون من خالفه مثل إبراهيم بن المهدى ومخارق وعلوية وعمر بن بانه ومحمد بن الحرث بن شخير ومن وافقهم . فإنهم يسمون الثقيل الأول وخفيفه الثقيل الثانى وخفيفه . ويسمون الثقيل الثانى وخفيفه الثقيل الأول وخفيفه . وقد أطرح الناس ما قالوه الآن وترك ، وأخذ الناس بقول إسحاق[٢]) .

وقد شرحت هذه الأجناس شرحا مبسطا قائما على الصلة بين الشعر والموسيقى وعلى النقرات وعلى صياح الفاختات فليرجع إليها من يشاء[٣] . فى رسائل إخوان الصفاء .

---

(١) ٣٥ ، ٩/٣٦ الأغانى . بولاق .

(٢) ١/٤ المصدر السابق .

(٣) ١/١٤٦ رسائل اخوان الصفاء . بيروت سنة ١٣٠٦ .

وقبل ان نختم هذه الفقرة نشير إلى أن اهتمام أبى الفرج بالغناء إنما يرجع إلى اهتمام البيئة العراقية به فى ذلك الوقت . ويكفى أن نعلم أن من الذين تعلموا الغناء وأثاروا حول مذاهبه الجدل والخصومة من هم من الخلفاء والأمراء والولاة من أمثال المعتضد بالله وابن المعتز وعبد الله بن طاهر وكثير غيرهم .

ويعلل ابن خلدون هذا الاهتمام بما يشعر بأن الغناء إنما قام من أجل تعلم الأدب والعناية بالشعر وذلك حيث يقول «وكان الغناء فى الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر إذ الغناء إنما هو تلحينه ، وكان الكتاب والفضلاء من الخواص فى الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه ، فلم يكن انتحاله قادحاً فى العدالة والمروءة[1] .

ولعل أكبر مظهر لهذا الاهتمام هو هذه الكثرة الكاثرة من الكتب التى ألفت فى الغناء وهى الكتب التى نقل عنها أبو الفرج كثيراً وأشار إليها صاحب الفهرست . ولعل أهمها ما اختاره المغنون الثلاثة من الأصوات المائة المختارة للرشيد . وما اختاره إسحاق للواثق وسنشير إلى كثير من هذه الكتب عند حديثنا عن مرحلة التحمل وكيف كان النسخ من الكتب أو النقل عنها جزءاً من هذه المرحلة .

ونترك هذا العنصر إلى العنصر الثانى وهو ثقافة أبى الفرج الخاصة بالشعر والشعراء .

والشعر العربى إنما اختير فى كتاب الأغانى على أساس من الغناء فهو أصوات غنائية قبل كل شىء وبعد كل شىء . ومن هنا كانت تغير ألفاظ

---

(١) ٥٠٦ مقدمة ابن خلدون بيروت سنة ١٨٨٦ ۰ الطبعة الثانية ۰

الشاعر أحيانا ، كما كان المغنون يجمعون بين أشعار لشعراء مختلفين كما سبق أن أشرنا أول الفقرة السابقة .

كما كان يختار أيضاً على أساس من الفكاهة والدعابة لأن معه أخباراً يقصد بها إلى الهزل أو إلى الإمتاع والمؤانسة ، وتكون هذه المقاصد هى المتحكمة فى الاختيار ـ ومن هنا لا نستطيع أن نقول إن هذه الأشعار تمثل ذوق أبى الفرج الفنى على أساس أن اختيار المرء قطعة من عقله .

نعم إن هناك من الأخبار ما هو جاد كأخبار الحروب وأخبار الأحكام النقدية والخصومات الأدبية تلك التى قد تمثل مذهب الشاعر أو رأى النقاد فيه . ولكن حتى هذه لا تدل على أكثر من سعة الاطلاع عند أبى الفرج ـ أما مدى فهمه لها وإيمانه بها وجعلها جزءاً من ثقافته فأمر وراء كل هذا ولا تدل عليه هذه بحال من الأحوال ، لأن كل ما يحفظه المرء فى ذاكرته أو ينسخه من كتاب لا يمثل فهمه للأمور ودقته فى تناول الأشياء ، وإنما يمثل أنها وقعت فى يده أو رآها بعينه أو سمعها بأذنه ، ومن هنا نستطيع أن نعرض عن هذه الأشعار إلى الأخبار الفنية أو الشعرية فلعلها أن تعيننا على الوقوف على ثقافة أبى الفرج الفنية وميوله المذهبية .

وأبو الفرج يقف بين يدى ترجمته للشعراء ليذكر جماع الرأى وهو فى هذا الذكر يختار بعض الأسس ليقيم عليها البناء .

وأهم هذه الأسس هى :

(ا) الأصل والمولد والمنشأ : وفى الحديث عن الأصل يكون الحديث عن النسب كما قد يكون الحديث عن الوراثة الشعرية .

(ب) المذهب الفنى : وقد يكون فيه الحديث عن الصلة بالخلفاء والأمراء

والوزراء ومذاهبهم وما يرضيهم وما لا يرضيهم من الشعر ، كما قد يكون الحديث عن المدرسة والمذهب الفنى[1] .

وهناك قد يجعل أبو الفرج عمود الشعر من الأسس التى يقيم عليها فن النقد الأدبى فيرى أن هذا قريب وذاك بعيد ، كما قد يرى أن هذا صالح المذهب وذاك فاسده .

وقد يذهب أبو الفرج إلى أبعد من هذا فيقف ليكشف لنا عن أسرار الاختلاف بين النقاد ويرينا من أين جاء الميل أو الهوى ـ وقد أشرنا إلى مثل من هذا عند حديثنا عن الحياة العقلية حيث اتخذنا من موقفهم من كل من جرير والفرزدق ما يكفى فى الدلالة على صنع الميل والهوى .

(ج) المذهب الخلقى من حيث الخلاعة والمجون وأشباههما .

ولن نستطيع أن نقول إن هذه الأشياء من مبتكرات أبى الفرج وأنها من هنا تمثل عقليته الأدبية وفهمه للأسس التى يجب أن يقوم عليها التاريخ الأدبى ، فإنما هى من الأسس التى كانت تشيع فى البيئة . وليس أدل على ذلك من أن هذه الأسس بالذات كثيراً ما ترد فى المرويات التى يرويها أبو الفرج بعد هذه الوقفات . فهى تلخيص لها فى الغالب أو إجمال حتى يجىء البيان .

إن ميول أبى الفرج الفنية فى الشعر إنما يكشف عنها تلك الوقفات التى يقف فيها إلى جانب بعض الشعراء مدافعاً عنهم ومفسرا صنيعهم . ولعله أن يكون من العجب أن نقول إن مذهب أبى الفرج الأدبى يختلف عن مذهبه

---

(١) ١٢/١٧ أغانى ٠ بولاق ٠ منصور النميرى ، ١٨/١٠٠ أخبار على ابن جبله ٠

الغنائى ، فهو هناك يحب القديم ويكلف به ، ويرى فى صنيع المحدثين إفساداً للغناء . وهو هنا لا يغفل صلة الفن بالحياة ، ويرى أثر البيئة فيما يصدر عن الشاعر ، ويدافع عن المحدثين مبينا خطل الرأى عند من ينقد الشعر لأنهم آثروا الجديد وخرجوا على عمود الشعر وعن مذهب القدماء .

وهذا هو دفاعه عن ابن المعتز الشاعر (وشعره وإن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين ، وأشياء ظريفة من أشعار الملوك فى جنس ما هم بسبيله ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية : فليس يمكن واصفا لصبوح فى مجلس شكل ظريف بين ندامى وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والنرجس ومنضود من أمثال ذلك إلى غير ما ذكرته من جنس المجالس وفاخر الفرش ومختار الآلات ورقة الخدم أن يعدل بذلك عما يشتهيه من الكلام السبط الرقيق الذى يفهمه كل من حضر إلى جعد الكلام ووحشيه وإلى وصف البيد والمهامه والظبى والظليم والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ـ ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له سيء ـ ولا أن يغمط حقه كله إذا أحسن الكثير وتوسط فى البعض وقصر فى اليسير وينسب إلى التقصير فى الجميع لنشر المقابح وطى المحاسن ، فلو شاء أن يفعل هذا كل أحد بمن تقدم لوجده مساغا ، ولو أن قائلا أراد الطعن على صدور الشعراء لقد رأى أن يطعن على الأعشى وهو أحد من يقدمه الأوائل على سائر الشعراء[1] .

إن هذا الاختلاف فى الموقفين لا نستطيع أن نفهم له سرا إلا على أساس من الإعجاب ـ إعجاب أبى الفرج بكل من إسحاق وابن المعتز ـ

(١) ٩/١٤٠ أغانى . بولاق .

وقد سبق أن ذكرنا أنهما من مثله العايا ، ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا وقف أبو الفرج إلى جانب من يحبذون الغناء القديم أو بعبارة أخرى من يجرون على مذهب إسحاق . ولماذا وقف إلى جانب ابن المعتز ودافع عنه هذا الدفاع الحار .

على أن لأبى الفرج ميلا فنياً آخر هو ميله إلى مذهب أبى تمام فى المجانس والمطابق ، حتى لقد حاول تقاليده وفشل فيما نعتقد - كما سنبين عند حديثنا عن الفن الشعرى إن شاء الله .

وميل أبى الفرج إلى أبى تمام ميل موروث ، فقد كانت الأسرة تفضله ، وحديث محمد بن أحمد الأصفهانى جد أبى الفرج لأبيه عن أبى تمام وتفضيل كل من ابن الزيات والصولى له قد نقلناه عند حديثنا عن الجو الأسرى ، ويكفينا فى هذا الموقف لبيان هذا الميل هذا القول من أبى الفرج (وقد فضل أبا تمام من الرؤساء والكبراء والشعراء من لا يشق الطاعنون عليه غباره ، ولا يدركون وإن جدوا آثاره ، وما رأى الناس بعده إلى حيث انتهوا له فى جده نظيرا ولا شكلا ، ولولا أن الرواة قد أكثروا فى الاحتجاج له وعليه ، وأكثر متعصبوه الشرح لجيد شعره وأفرط معادوه فى التسطير لرديئه والتنبيه على رذله ودنيئه ، لذكرت منه طرفا ، ولكن قد أتى من ذلك ما لا مزيد عليه[1] .

هذه هى ميول أبى الفرج الفنية من حيث المذاهب الأدبية ، وهى ميول لا تدل على عمق فى الثقافة يساوى ذلك العمق الذى أحسسنا به فى ثقافته الغنائية ، ولا بأس على أبى الفرج فى ذلك ، فنحن نعلم أنه قد ألف كتابه فى الأغانى ولم يؤلفه فى الشعر والشعراء .

---

(١) ١٥/١٠٠ المصدر السابق .

(ج) الفن الشعرى .

والفن الشعرى عند أبى الفرج لا يقاس بجريه على المجانس والمطابق من مذهب المحدثين أو بجرية على مذهب أبى تمام منهم . فيظهر لنا أن هذا المذهب لم يكن ليتفق وطبيعة أبى الفرج السمحة السهلة وموهبته الفنية التى يصدر عنها الشعر بدون تعمل أو تصنع . ومن هنا كانت محاولات أبى الفرج فى تقليده لأبى تمام محاولات فاشلة . وليس يكفى أن يحب أبو الفرج أبا تمام أو تحب الأسرة كلها أبا تمام ليقول أبو الفرج على مذهبه ويجيد فى القول .

لقد قلد أبو الفرج أبا تمام ولكنه أفلس أو كاد . وليس أدل على ذلك من هذه المقطوعات الشعرية التى يقولها أبو الفرج متغزلا أو مادحا . فهو يقول متغزلا [١] .

أنت ياذا الخال فى الـ	وجنة مما بى خالى
لا تبالى بى ولا تخطـ	ـرنى منك ببال
لا ولا تفكر فى حا	لى وقد تعرف حالى
أنا فى الناس إما مـ	ـى وفى حبك غالى

ونشعر نحن أن هذا الغزل لا يصور من الحب شيئاً . فهو غزل فاتر لا نشعر فيه بحرارة الحب ولا بأنفاس المحبين - بل لا نشعر فيه بذاك الإحساس الجميل الذى ينتاب المحبين عند ما يتحدثون عن الأحباب ويصورون حالاتهم ، وليس ذلك إلا لأن المذهب الشعرى قد أفسد على أبى الفرج كل شىء . فالجناس والطباق وخصائص مذهب أبى تمام قد رصت فى هذه المقطوعة رصا وحشرت فيها حشرا كادت معه أنفاس الشاعر نفسه

---

(١) ٢/٣٨٣ يتيمة الدهر . دمشق .

أن تضيق . ومن هنا كان الشعر شعر صناعة لا رونق فيه ولا ماء ولا روح فيه ولا حيوية . ويقول أبو الفرج مادحا [١] .

ولما انتجعنا عائذين بظله ... أعان وما عنى ومن وما منى
وردنا عليه مقترين فراشنا ... وردنا نداه مجديين فأخصبنا

ونشعر نحن أن الجناس والمقابلة قد أفسدا على أبى الفرج كل شىء ، وأن إحساسه نحو مولاه وسيد نعمته المهلبى غير واضح ، بل أن صورة المهلبى نفسه مبهمه غامضة لا تفصح عن نفسها ولا تبين - فهو شعر الصنعة الذى تفسد فيه الصنعة ما يكون فى الشعر من نسمات الوحى ومن قبسات الإلهام ومن لمسات فنية توحى بالمراد وتفصح عنه فى قوة .

ولعل هذين البيتين من تلك المقطوعة التى يهنىء فيها المهلبى بمولود من سرية روميه يريانا إلى أى حد كان أبو الفرج يجهد نفسه فى سبيل الحرص على هذا المذهب الشعرى وبناء شعره لا على المجانس والمطابق فحسب بل على الاستعارات التى لا تجىء عفوا وإنما تقسر قسرا وتحشر فى الشعر حشرا .

متبحبح فى ذروتى شرف العلا ... بين المهلب منتماه وقيصر
شمس الضحى قرنت إلى بدر الدجى ... حتى إذا اجتمعا أتت بالمشترى [٢]

ولست فى حاجة إلى أن أشرح شيئاً من هذا البيت الأخير فكل شىء واضح فيه ، وكل شىء يدل على ما نريده من إفساد الصناعة للشعر .

لقد قلد أبو الفرج أبا تمام ولكنه فشل وانصرف عن هذا التقليد فيما نعتقد ، وخيرا فعل ، وإلا لظل شعره كالأرض الموات التى لا تفيد صاحبها ولا تنفع الناس .

---

(١) ١٣/١٣٠ معجم الأدباء . ط . رفاعى .
(٢) ١٣١ المصدر السابق .

إذا كنا قد أعرضنا عن هذا المقياس فى حديثنا عن شعر أبى الفرج فإنا لن نعرض عن مقياس آخر هو من مذاهب المحدثين أيضاً وجرى عليه أبو الفرج فأجاد ، وذلك هو مذهب الذين يعملون عن وعى وعن فهم للأمور حين يحاولون تأكيد الصلة بين الفن والحياة . وخصائص هذا المذهب واضحة متميزة فى شعر ابن المعتز . ولقد زادها أبو الفرج وضوحا حين وقف ليدافع عن ابن المعتز وليرد عنه كيد الكائدين كما سبق أن ذكرنا.

والصلة بين الفن والحياة إنما تكشف عن نفسها عند هؤلاء الشعراء بأمور .

تكشف فى هذه الافتتاحيات التى تختلف كل الاختلاف عن افتتاحيات الأقدمين من الشعراء .

وتكشف عن نفسها فى تلك الموضوعات الشعرية التى تقتطع من صميم الحياة .

وتكشف عن نفسها أخيراً باللغة تلك التى تتحدد معانيها بالاستعمال لا بالمعاجم ولا باستعمالات الأقدمين من الشعراء .

وهذه الأمور أو هذه الخصائص واضحة كل الوضوح فى شعر أبى الفرج ، فهو لا يقف بالديار ولا يصف الطريق والناقة وما لاقاه من عنت ومشقة فى الأسفار وإنما يصف مجالس اللهو والطرب ويخلص منها إلى الممدوحين يطلب منهم ما يريد .

يقول بين يدى المهلبى[1] :

ويوم كمثل رداء العرو   س حسنا وطيبا إذا ما يشم

---

(١) ٢/٢٨٠ يتيمة الدهر ٠ ط ٠ دمشق ٠

خلعت عـذارى ولم أعتذر ولم أحتشم فيه من يحتشم
وقابلت فيه صفـاء الشما ل بصفو الشمول وشجو النغم
فداؤك نفسى هـذا الشتا ء علينا بسلطانه قـد هجم
ولم يبق من نشبى درهم ولا من ثيابى إلا رمم
يؤثر فيها نسيم الهـوا ء وتخرقها خافيات الوهم
وأنت العماد ونحن العفا ة وأنت الرئيس ونحن الخدم

وقد يهجم أبو الفرج على موضوعاته هجوماً سريعاً دون مقدمات قد تـكلفه عناء السفر ومشقة الانتقال . ومن ذلك قصيدته فى الراضى أو فى البريدى فقد هجم فيها على موضوعه وذلك حيث يبدأ القصيدة بقوله [1] :

يا سماء أسقطى ويا أرض ميدى قد تولى الوزارة ابن البريدى
جل خطب وحل أمر عضال وبلاء أشاب رأس الوليد

وليست الافتتاحيات أو المقدمات هى التى يذهب فيها أبو الفرج مذهب المحدثين أو المجددين من الشعراء بل هو يمضى معهم أيضاً فى الموضوعات . ومن هنا نراه لا يقصر همه على المدح والفخر والرثاء وما إلى ذلك من موضوعات القدماء وإنما يذهب مذهب المحدثين أيضاً فى وصف الدواجن والحديث عن الأليف من الحيوان . ومن هنا نراه يرثى الديك [2] ، ويصف القط (٣) ـ ويظهر أن أبا الفرج يصدر فى وصفه للقط عن غرام خاص بالقطط وعناية خاصة بتربيتها ـ وهـذا هو الواضح من حديث ابن الصابىء

---

(١) ١٣/١٢٧ معجم الأدباء . ط . رفاعى .
(٢) ٤٨٠ ـ ٤٨٤ عيون التواريخ لابن شاكر . مخطوطة رقم ١٤٩٧ . تاريخ دار الكتب .
(٣) ١٠٥ ـ ١٣/١٠٧ معجم الأدباء .

عن زيارة جده وأبي على الأنبارى وأبي العلاء صاعد لأبى الفرج وعن مكانة السنور من نفس أبى الفرج حتى ليعنى بتربيته ويعالجه إن مرض[١] .

وليس أدل على هذه العناية من هذه الصورة الفنية التى يعرض فيها أبو الفرج مقدار عنايته وعناية غيره بالقطط .

قرطقوه وشنفوه وحلو ٥ أخيراً وأولا بالخضاب
فهو طورا يمشى بحلى عروس وهو طورا يخطو على عناب

وليس أبو الفرج هو الذى يعنى وحده بالهر فيظهر أن تلك كانت عادة كثير من الشعراء فى ذلك الوقت . ومنهم ابن العلاف والصاحب بن عباد . فلكل منهما قصيدة فى رثاء الهر . ويذكر الثعالبي أن الصاحب قد عارض بقصيدته هذه قصيدة ابن العلاف[٢] .

أما الألفاظ وصلتها بالعصر والبيئة أو بعبارة أخرى صلتها بالحياة فليس أدل عليها من قول أبى الفرج نفسه بصدد دفاعه عن ابن المعتز (فليس يمكن واصفا لصبوح فى مجلس شكل ظريف بين ندامى وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والنرجس ومنضود من أمثال ذلك إلى غير ما ذكرته من جنس المجالس وفاخر الفرش ومختار الآلات ورقة الخدم أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام السبط الرقيق الذى يفهمه كل من حضر إلى جعد الكلام ووحشيه ، وإلى وصف البيد والمهامه والظبي والظليم والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ، ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسيء ، ولا أن يغمط حقه كله إذا أحسن الكثير وتوسط فى البعض

---

(١) ١٠٤ ، ١٠٥ معجم الأدباء .

(٢) ٣/٢٣ يتيمة الدهر ، تاريخ أبى الفداء ج ٢ ص ٣٦١ ، ٣٦٢ تحت عام ٣٤٨ هـ .

وقصر فى اليسير وينسب إلى التقصير فى الجميع[1] ..) وهو قول يرينا إلى أى حد كان أبو الفرج يؤمن بالصلة بين الألفاظ والحياة .

وشعره الذى قاله يؤكد فهم أبى الفرج لهذه الصلة فليس فيه من وحشى الكلام قليل أو كثير . بل لعل مختارات أبى الفرج الشعرية فى كتاب الأغانى كانت تقوم هى الأخرى على هذا الأساس . ومن هنا لم يحتج أبو الفرج إلى أن يقف ليشرح بعض القصائد أو ليروى لنا شرحها ـ اللهم إلا فى القليل النادر الذى لا حكم له .

يجرى أبوالفرج على مذهب المحدثين فى الافتتاحيات ، وفى الموضوعات الشعرية ، وفى الألفاظ المختارة الحية التى يجرى عليها الاستعمال ، وليس كل هذا هو الذى يحدد الخصائص الفنية لأبى الفرج فهناك خصائص نعتبرها من خصائصه هو لا من خصائص مذهب المحدثين .

وخصائص أبى الفرج الفنية تنتهى عند خاصتين أو عند ميزتين فنيتين كبيرتين : الأولى دقة حسه والثانية طبيعته السمحة السهلة ، فعندها نستطيع أن نتبين موهبة أبى الفرج الفنية وهى أسمى مانريد الوقوف عليه من شعره .

ودقة حس أبى الفوج هى التى مكنته من أن يشم ليوم الصفو والسرور ريحا طيبة ، وأن يرى له منظراً حسنا . فى قوله من الأبيات التى نقلناها آنفا .

ويوم كمثل رداء العرو س حسنا وطيبا إذا ما يشم

ودقة حس أبى الفرج هى التى مكنته من الإجادة فى فن الوصف أو فن التصوير الشعرى ـ ومن هنا نرى صوره الفنية دقيقة ومليئة بالحركة والحيوية . ويكفى فى الدلالة على ما نذهب إليه هذه الصورة من صور القط .

---

(١) ٩/١٤٠ أغانى ، بولاق ،

ليث غاب خلقا وخلقا فمن لا ح لعينه خاله ليث غاب
ناصب طرفه إزاء الزوايا وإزاء السقوف والأبواب
ينتضى الظفر حين يطفر للصيد وإلا فظفره فى قراب
لا يرى أخبثيه عينا ولا يعلم ما جنتاه غير التراب
قرطقوه . . . . (١)

ودقة حس أبى الفرج هى التى مكنته من الإجادة فى فن الهجاء ، ذلك لأنه قد استطاع أن يشم الروائح الكريهة المنتنة من حياة الأفراد ، وأن يكشف عنها فى لسان لاذع وشعر مؤلم موجع ، ومن هنا كان لكل من المهجوين حالاته الخاصة أو صفاته المعينة التى يضيق بها ويألم لها ويود لو أن بينه وبين الكشف عنها آماد .

والذين هجاهم أبو الفرج كثيرون ، ولكل منهم كما ذكرنا صفاته الخاصة التى تغيظه وتحنقه ، والتى يجيئه أبو الفرج منها . فهو يجىء المهلبى من من جانب الفقر وليس يخفى أن الرجل أيسر بعد اعسار .

أبعين مفتقر إليك رأيتنى بعد الغنى فرميت بى من حالق
لست الملوم أنا الملوم لأننى أملت للإحسان غير الخالق(٢)

ويجىء الأيذجى من جانب الأبنة . والأيذجى من قضاة الشرع الذين لا يليق بهم ولا يصح أن يعرف عنهم أمثال هذه الصفات .

اسمع حديثى تسمع قصة عجبا لاشىء أظرف منها تبهر القصصا
طلبت عكازة للوحل تحملنى ورمتها عند من يخبا العصا فعصا

---

(١) ١٣/١٠٦ معجم الأدباء . ط . رفاعى .
(٢) ١٠٣ المصدر السابق .

وكنت أحسبه يهوى عصا عصب ولم أكن خلته صبا بكل عصا(١)

ويجىء السيرافى من جهة العلم والمعرفة . والعلم والمعرفة هما كل شىء فى حياة السيرافى .

لست صدرا ولا قرأت على صد رولا علمك البكى بكافى
لعن الله كل شعر ونحو وعروض يجىء من سيراف(٢)

ولعل الصورة الآتية التى صور بها أبا الحسن طازاد الكاتب تفصح عن قسوة أبى الفرج فى الهجاء .

طازاد مشتق من الطين فعد عن ذكر فتى الحوز
كأن رجليه إذا ماشى مخنث يلعب بالشين (٣)

ويقول ياقوت فى حق أبى الفرج وشعره . وله شعر جيد إلا أنه فى الهجاء أجود وإن كان فى غيره غير متأخر . وكان الناس فى ذلك العهد يحذرون لسانه ويتقون هجاءه (٤) .

وهكذا نرى أن أبا الفرج كان يعتمد على دقة حسه ويستلهم هذا الحس المعانى التى يجب أن تذكر فى شعره والصور التى توحى بما يرضى أو بما يغضب الناس .

أما طبيعته السمحة السهلة التى يصدر عنها الشعر دون تعمل أو تصنع فهى التى حالت بينه وبين المضى إلى آخر الشوط فى الجرى على مذهب أبى تمام ، وهى التى مكنته من أن يرسل القول فى الشعر إرسالا ويخرجه

---

(١) ١٣٤ معجم الأدباء . ط . رفاعى .
(٢) ٢/٢٨٢ يتيمة الدهر . ط . دمشق .
(٣) ١٣/١٠٩ معجم الأدباء .
(٤) ١٠١ المصدر السابق .

خاليا من كثير من التشبيهات والاستعارات التى لا تجىء عفوا وإنما تجىء عنوة واقتداراً . ومن هنا كان شعره الذى ارتضاه معبرا عن نفسه وعن موسيقاها أو عن تلك الأنفاس التى تضطرب وتتحرك بتحرك الشعر واضطرابه دون أن يحجبها حاجب أو يحول بينها وبين الظهور تكلف فى الشعر أو صناعه .

يقول أبو الفرج مستميحا المهلبى[١] .

رهنت ثيابى وحال القضا ء دون القضاء وصد القدر
وهـــذا الشتـاء كما قد ترى عسوف على قبـيح الأثر
يغادى بصر من العاصفا ت أو دمق مثل وخز الإبر
وسكان دارك ممن أعـــو ل يلقـين من برده كل شر
فهذى تحن وهـــذى تئن وأدمع هاتيك تجرى درر
إذا ما تململن تحت الظلام يعللن منك بحسن النظـر
ولاحظن ريعك كالممحلي ن شاموا البروق رجاء المطر
يؤملن عودى بما ينتظرن كما يرتجى آئب من سفر

ويقول أبو الفرج متغزلا (٢) .

يا من أظل بباب داره ويطول حبسى لانتظاره
وحياة طرفك واحوراره وجمال صدغك فى مداره
لا حلت عمرى عن هوا ك ولو صليت بحر ناره

---

(١) ١٣٥ المصدر السابق .
(٢) ١١٨ معجم الأدباء .

ويقول واصفا حاله[1] :

وإذا رأيت فتى بأعلى رتبة   فى شامخ من عزه المترفع
قالت لى النفس العروف بفضلها   ما كان أولانى بهذا الموضع

ويقول متحدثا عن الدهر وأحداثه[2] :

الدهر يلعب بالفتى فيهيضه   طورا ويجبر عظمه نيراش
وكذا رأينا الدهر فى إعراضه   ينحى وفى إقباله ينتاش

وهكذا نشعر فى هذه المقطوعات بأن أبا الفرج إنما يصدر عن طبيعة واضحة سافرة تهيء له مجال القول وتشعره بأن الفن موهبة قبل أن يكون صناعة . ولعل هذه الموهبة هى التى مكنت أبا الفرج من أن يختار هذه النصوص الشعرية من ذلك اللون السهل الذى لا يحتاج للشرح والتفسير إلا فى القليل النادر .

(د) ونترك هذه المسألة إلى الحديث عن النثر أو فن إيراد الخبر والقصة .

ولن نستطيع أن نعتمد على هذه الأخبار التى يرويها أبو الفرج فى كل من الأغانى ومقاتل الطالبيين فى بيان الخصائص الفنية لأبى الفرج . وليس ذلك إلا لأنا نعلم أن من تقاليد أبى الفرج فى إيراد القصص والأخبار الحرص على الصور اللفظية التى أورد بها من يأخذ عنهم أو يروى لهم القصة والخبر . وهذا هو الواضح من مواقف أبى الفرج فى كتبه حين يتعدد الرواة وتختلف الصور اللفظية فإنا نراه ينص فى صراحة على أن اللفظ فى الخبر لفلان

---

(١) ٢/٢٨٢ يتيمة الدهر .
(٢) ٢٨٣ المصدر السابق .

أو فلان . كما ينص على الأسباب التى دفعته إلى اختيار هذه الصورة دون تلك مما سنذكره بتفصيل عند حديثنا عن الأداء فى الباب الثالث إن شاء الله .

نعم نحن نعلم أن أبا الفرج قد أورد فى كتابه مقاتل الطالبيين بعض الأخبار التى شاهد هو أحداثها ، وذلك من أمثال أخباره الواردة فى نهاية الكتاب ، ولكنا نعلم أيضا أن هذه الأخبار لم تكن إلا اللفتات العابرة والإشارات السريعة التى لم يقصد منها إلى القص وإنما قصد منها لفت الذهن والإشارة إلى المعروف المتداول بين الناس ، وأنها لذلك لا تصلح أن تكون المواد الفنية التى نعتمد عليها فى بيان هذه الخصائص .

إن ما بين أيدينا من نصوص صالحة لهذه المسألة قليلة جدا ، وهى تلك الأقاصيص الثلاث التى أوردها ياقوت فى معجمه نقلا عن كتاب أبى الفرج أدب الغرباء[1] . وهى نصوص إن دلت على شىء فإنما تدل على أن أبا الفرج لم يكن مغرما بالزينة اللفظية وبالأسجاع غرام معاصريه من أمثال المهلبى وابن العميد والصاحب وإنما كان يرسل القول إرسالا ويقص وكأنه يتحدث إلى الناس ولا يكتب لهم ، ومن هنا لا نلمح استعارة ولا تشبيها جاءت بها الصنعة وإنما هى التشبيهات القليلة النادرة التى تجىء عفوا والتى تستمد صورها الحية الناطقة من البيئة لا من صور الأدباء والشعراء .

والقصة التالية وما فيها من شعر تفصح عما نذهب إليه أتم إفصاح ، ولم نخترها إلا لأنها أكثر هذه الأقاصيص الثلاث من حيث الصور الفنية أو من حيث التشبيهات والاستعارات ، والشعر الذى يرد فيها يحمل نفس الطابع الذى يحمله النثر ويدل على هذه الخاصية الأدبية من خصائص أبى الفرج .

---

(١) ١١٣ — ١٢١/١٣ معجم الأدباء .

يقول أبو الفرج (وخرجت أنا وأبو الفتح أحمد بن ابراهيم بن على ابن عيسى — رحمه الله — ماضيين إلى دير الثعالب للنزهة ومشاهدة اجتماع النصارى هناك والشرب على نهر يزد جرد الذى يجرى على باب هذا الدير ، ومعه جماعة من أولاد كتاب النصارى من أحداثهم وإذا بفتاة كأنها الدينار المنقوش تتمايل وتتثنى كغصن الريحان فى نسيم الشمال فضربت بيدها إلى يد أبى الفتح وقالت يا سيدى تعال اقرأ هذا الشعر المكتوب على حائط هذا الشاهد ، فمضينا معها وبنا من السرور بها وبظرفها وملاحة منطقها ما الله به عليم . فلما دخلنا البيت كشفت عن ذراع كأنه الفضة وأومأت إلى الموضع فإذا فيه مكتوب .

خرجت يوم عيدها   فى ثياب الرواهب
فتنت باختيالها   كل جاء وذاهب
لشقائى رأيتها   يوم دير الثعالب
تتهادى بنسوة   كاعب فى كواعب
هى فيهم كأنها البـ   ـدر بين الكواكب

فقلت لها أنت والله المقصودة بهذه الأبيات ولم نشك أنها كتبت الأبيات ولم نفارقها بقية يومنا .

وقلت لها هذه الأبيات وأنشدتها إياها ففرحت :

مرت بنا فى الدير خمصانة   ساحرة الناظر فتانة
أبرزها الذكران من خدرها   تعظم الدير ورهبانه
مرت بنا تخطر فى مشيها   كأنما قامتها بانه
هبت لنا ريح فمالت بها   كما تثنى غصن ريحانه
فتيمت قلبى وهاجت له   أحزانه قدما وأشجانه

وحصلت بينها وبين أبى الفتح عشرة بعد ذلك . ثم خرج إلى الشام وتوفى بها ولا أعرف لها خبرا بعد ذلك[١] .

أما نثر أبى الفرج ذلك الذى يصور فيه الشعراء ومذاهبهم فى القول . فهو نثر مركز موجز يلخص فى سطور ما يرويه أبو الفرج فى صفحات . ونستطيع أن نعرض عليك صورة منه لنتبين إلى أى حد كان يحاول أبو الفرج البعد عن الزينة وعن الصناعة اللفظية .

يقول أبو الفرج فى حق الوليد بن يزيد (وكان الوليد بن يزيد من فتيان بنى أمية وظرفائهم وشعرائهم وأجوادهم وأشدائهم ، وكان فاسقا خليعا متهما فى دينه مرميا بالزندقة ، وشاع ذلك من أمره وظهر حتى أنكره الناس فقتل . وله أشعار كثيرة تدل على خبثه وكفره . ومن الناس من ينفى ذلك عنه وينكره ويقول إنه نحله وألصق إليه والأغلب الأشهر غير ذلك[٢] .

وللوليد فى ذكر الخمر وصفاتها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء فأدخلوها فى أشعارهم ، سلخوا معانيها ، وأبو نواس خاصة فإنه سلخ معانيه كلها وجعلها فى شعره فكررها فى عدة مواضع منه . ولولا كراهة التطويل لذكرتها هنا على أنها تنبىء عن نفسها (٣) .

هذه السمات الفنية التى تقوم على اليسر والسهولة هى التى يرجع إليها فيما نرى اختيار أبى الفرج للسهل من الأساليب القصصية والإخبارية حتى جاءت واضحة بينه لا عوج فيها ولا التواء ولا تكلف فيها ولا مشقة .

ونستطيع الآن أن نترك حياة أبى الفرج لننتقل إلى الحديث عن الرواية عنده وذلك هو الباب الثالث .

---

(١) ١١٣ — ١١٥ معجم الأدباء . (٢) ٦/٩٩ الأغانى . ساسى .
(٣) ١٠٧ المصدر السابق .

Title

Author

Accession No.

Call No.

Borrower's No.	Issue Date	Borrower's No.	Issue Date

الباب الثالث

الرواية عند أبى الفرج

الفصل الأول

أبو الفرج وهل هو من الرواة

ذكرنا فى التمهيد شيئاً عن الفروق المميزة لكل من الراوى والمؤرخ . واعتمدنا فى بيان ذلك وفى الحديث عن صنيع كل منهما فى المرويات على نصوص متأخرة ـ نصوص جاءت بعد عصر أبى الفرج بقرنين من الزمان أو يزيد ـ نصوص لكل من ابن خلدون وياقوت .

وفى الميدان العلمى لانستطيع أن نقول إن آراء هؤلاء أو أقوالهم تجرى على أبى الفرج ويؤخذ بها . بل نحن لا نستطيع أن نقول ذلك حتى ولو كان هؤلاء وأمثالهم من المعاصرين لأبى الفرج ومن البيئة التى كان يعيش فيها . وذلك لأن أمثال هذه الأقوال لا تثبت فى رأينا إلا وجود النظرية أما أن يكون أبو الفرج قد آمن بها وجرى عليها فيما يقص من حالات أو فيما يروى من أخبار فذلك هو الأمر الذى لا نستطيع القول به حتى نرى هذه الظاهرة واضحة وضوحا بينا من صنيع أبى الفرج فى مروياته ، أو من قول نظرى بجريه ايثبت لنا ذلك أو يدلنا عليه . وليس ذلك إلا لأنا نعتقد دائماً أن كل عالم أو أديب إنما هو شخصية متميزة إن يكن لها من الصفات ما يشاركها فيها غيرها فإن لها من الصفات ما يميزها عن غيرها وما يعتبر من الخصائص . وما على الباحث الذى يريد العلم والحق إلا أن يبحث عن الظواهر ، وأن يفرد الخاص منها عن العام ، وأن يصور هذه الخصائص بالصورة التى تشعر القارىء أنه أقام شخصية لها ذاتيتها الخاصة وكيانها المتميز . أما أن تكون صورة هذه الشخصية هى الصورة العامة التى يطالعها القارىء فى كل إنسان

فليس ذلك من دقة البحث فى شىء وإنما هى الأقوال التى تلقى على العواهن .

أبو الفرج شخصية متميزة لها مسلكها الخاص فى إيراد المرويات . وهو مسلك يشعرنا فيما ترى بالمذهب الذى كان يعتنقه أبو الفرج . ويرينا فى غير لبس إن كان أبو الفرج يجرى على مذهب الرواة أو يذهب مذهب المؤرخين .

وأبو الفرج واضح الدلالة فى أنه كان يجرى على مذهب الرواة ـ وأول ما يطالعنا من هذه الدلالات أن أبا الفرج كان يحرص حرصاً شديداً على ألا يفوته أى شىء مما يعرفه الناس ، فهو حريص على جمع كل ما قيل حتى ولو كان من المصنوعات والأكاذيب ـ وليس ذلك من مذاهب المؤرخين الذين يحرصون الحرص كله على الوقوف على الحقيقة وذكر ما يعتقدون أنه الحق .

والنصوص التى يفصح فيها أبو الفرج عن هذه الظاهرة كثيرة نستطيع أن نعرض منها ما يلى :

١ ـ جاء فى الأغانى « وممن حكى عنه أنه صنع فى شعره وشعر غيره المنتصر . فإنى ما ذكرت ما روى عنه أنه غنى فيه على سوء العهدة فى ذلك وضعف الصنعة لئلا يشذ عن الكتاب شىء قد روى وقد تداوله الناس[1] .

٢ ـ وجاء أيضاً « وممن هذه سبيله فى صنعة الغناء المعتز بالله فإنى لم أجد له منها شيئاً إلا ما ذكره الصولى فى أخباره فأتيت بما حكاه للعلة التى قدمتها من أنى كرهت أن يخل الكتاب بشىء قد دونه الناس وتعارفوه[2] .

---

(١) ٨/١٦٩ أغانى . ساسى .

(٢) ٨/١٧٢ المصدر السابق .

٣ — وجاء « وهذا الخبر موضوع من مصنوعات ابن الكلبي والتوليد فيه بين وشعره شعر ركيك غث لا يشبه أشعار القوم . وإنما ذكرته لئلا يخلو الكتاب من شيء قد روى[١] » .

٤ — وجاء « قال مؤلف هذا الكتاب . هذه الأخبار التى ذكرتها عن ابن الكلبي موضوعة كلها والتوليد بين فيها وفى أشعاره ، وما رأيت شيئاً منها فى ديوان دريد بن الصمه على سائر الروايات . وأعجب من ذلك هذا الخبر الأخير فإنه ذكر فيه ما لحق دريد من الهجنة والفضيحة فى أصحابه وقتل من قتل معه وانصرافه منفرداً . وشعر دريد هذا يفخر فيه بأنه ظفر ببنى الحرث وقتل أماثلهم . وهذا من أكاذيب ابن الكلبي . وإنما ذكرته على لما فيه لئلا يسقط من الكتاب شيء قد رواه الناس وتداولوه[٢] » .

٥ — وجاء « هذا الذى فى أيدى الناس من النسب على اختلافهم فيه(٣) »

أبو الفرج إذا يجمع كل ما قيل ، يجمع الصادق وغير الصادق لأنه لا يريد أن يخلو كتابه من شيء يعرفه الناس ولو كان هذا الذى يعرفونه من المصنوعات والأكاذيب .

وتلك كما قلنا ظاهرة من الظواهر التى تلازم الرواة ولا تلازم المؤرخين .

نعم نحن نعلم أن أبا الفرج كان أحيانا يعقب على غير الصادق ولكن ذلك لا يخرجه من عداد الرواة ولن يدفع به إلى عداد المؤرخين . وذلك لأن أبا الفرج لم يكن ليعقب على كل خبر كما أنه لم يقم اختياره للأخبار على أساس الصدق والصحة بل نستطيع أن نقول إنه كان يقيم أساس الاختيار

---

(١) ١٨/١٦١ المصدر السابق .
(٢) ٩/١٩ المصدر السابق .

فى كثير من الحالات على ما فيه متعة — من كل ما هو من نسج الخيال أو من كل ما هو من الأكاذيب عند المؤرخين .

وظاهرة الجمع هذه — جمع كل ما قيل حتى ولو كان من الأكاذيب — قد أفادت أبا الفرج من حيث العلم بالصادق والكاذب من الأخبار والأشعار وإنا لنراه يعتمد على هذه الظاهرة فى النقد وفى الدلالة على أن هذا الخبر كاذب وأن الشعر لفلان أو فلان . ولعل فى الخبر السابق الخاص بقصة دريد بن الصمه ما يدل على صحة هذا القول ، إذ نرى أبا الفرج ينص على أنه لم يجد شعر هذا الخبر فى ديوان دريد على سائر الروايات .

على أن الخبر التالى يدلنا دلالة قوية على مدى عناية أبى الفرج بالجمع والاستقصاء ومدى إفادته من هذه العناية فى النقد ، وفى تصحيح الأخبار . يقول أبو الفرج « وذكر يحيي بن على بن يحيي عن إسحاق أن الشعر للأعشى وذلك غلط ، وقد التمسناه فى شعر كل أعشى ذكر فى شعراء العرب فلم نجده ولا رواه أحد من الرواه لأحد منهم ، ووجدناه فى شعر ابن المولى من قصيدة له طويلة جيـــدة ، وقد أثبتناها بعقب أخباره ليوقف على صحة ما ذكرناه إذ كان الغلط إذا وقع من مثل هذه الجهة احتيج إلى إيضاح الحجة على ما خالفه والدلالة على الصواب فيه[1] » . وهو قول لايحتاج كما ترى إلى تفسير أو بيان .

* * *

وثانى ما يطالعنا من الدلالات على أن أبا الفرج كان يذهب مذهب الرواة حرصه على إيراد الخبر والقصة كما وصلته حتى ولو كان المعنى

---

(١) ٣/٨٥ أغانى . ساسى .

فاسداً أو الخبر مختلطا غير صحيح الضبط . وذلك هو الأمر الذى توضحه النصوص التالية .

١ — جاء فى الأغانى بعد رواية أبى الفرج لخبر من الأخبار « وأحسب أن هذا الخبر مصنوع ولكن هكذا أخبرنا به ابن أبى الأزهر[١] » .

٢ — وجاء « قال مؤلف هذا الكتاب . وهذا الخبر عندى مصنوع وشعره مضعف يدل على ذلك ولكنى ذكرته كما وقع إلى[٢] » .

٣ — وجاء « قال مؤلف هذا الكتاب . إنما ذكرت الخبر الذى رواه الزيادى على ما فيه من التخليط لأنى إذا أتيت بالقصة ذكرت ما يروى فى معناها . وهو خبر مختلط لأن عدى بن زيد[٣] » . . .

مذهب أبى الفرج إذن أن يروى القصة كما وصلت إليه والخبر كما وقع إليه ليس يعنيه صدق أو كذب بقدر ما تعنيه هذه الرواية . ومن هنا كنا نراه فى بعض الأحيان يذكر القصة المصنوعة التى تجيئه من طرق عديدة وبأسانيد مختلفة ، يذكرها مع هذه الطرق وبهذه الأسانيد مع اعتقاده بأنها من المصنوعات أو الأكاذيب .

ولعل خير ما يمثل هذه الحالة من حالات أبى الفرج قصه لأخبار جميلة فأنا نراه يقول « أخبرنى إسماعيل بن يونس ... أخبرنى الحسن بن على ... قالوا جميعاً إن جميلة حجت ... وقد جمعت رواياتهم لتقاربها وأحسب الخبر كله مصنوعا وذلك بين فيه[٤] .

---

(١) ١١/٩٩ أغانى . ساسى .
(٢) ١/٩١ المصدر السابق .
(٣) ٢/٣٣ المصدر السابق .
(٤) ٧/١٢٨ المصدر السابق .

كما نراه فى مواقف أخرى يرجح رواية عن روايه لا لأنها أصح بل لأن اللفظ أتم . وذلك من أمثال قوله « قال أبو الفرج ونسخت من كتاب لأبى سعيد السكرى قال حدثنى ابن أبى فنن . . أخبرنى يحيى بن على بن يحيى بهذا الخبر مما أجاز لنا أن نرويه عنه عن أبى أيوب المدائنى عن ابن أبى الدواهى . وخبر السكرى أتم واللفظ له قال[1] .

وقوله « ونسخت من كتاب ابن النطاح عن الهيثم بن عدى وقد أخبرنا محمد بن العباس اليزيدى فى كتاب الجوابات قال حدثنا أحمد بن الحرث عن المدائنى إلا أن رواية ابن النطاح أتم واللفظ له قال[2] » .

وحرص أبى الفرج هذا قد يفيد الباحثين من ناحية التسلسل التاريخى لحياة الألفاظ ولحياة الأفكار والأخبار ، الأمر الذى لم نهتم به بعد فى دراستنا الجامعية مع أنه الخطوة الأولى فى سبيل تفهم المسائل علمية كانت أو أدبية .

* * *

أما ثالث ما يطالعنا من الدلالات على أن أبا الفرج كان يذهب مذهب الرواة فهى روحه . تلك الروح التى تخالف روح معاصريه من المؤرخين من أمثال المسعودى ومسكويه . . ويحسن بنا قبل أن نصور روح أبى الفرج فى موقفه من الأخبار تاريخية كانت أو أدبية أن نقف مع المسعودى لتتبين لنا روح الراويه فى سهولة ويسر .

يقول المسعودى فى مقدمة كتابه « وجعلته منبها على أغراض ما سلف من كتبنا ومشتملا على جوامع يحسن بالعاقل الأديب معرفتها ولا يعذر فى

---

(١) ١٢/١٠٥ أغانى . بولاق

(٢) ١٥/٣ المصدر السابق .

التغافل عنها ، ولم نترك نوعا من العلوم ولا فنا من الأخبار ولا طريقة من الآثار إلا وقد أوردناه فى هذا الكتاب مفصلا أو ذكرناه مجملا أو أشرنا إليه بضروب من الإشارات أو لوحنا إليه بنجوى من العبارات . فمن حرف شيئاً من معناه أو أزال ركناً من مبناه أو طمس واضحة من معالمه أو لبس شاهرة من تراجمه أو غيره أو بدله أو انتخبه أو اختصره أو نسبه إلى غيرنا أو أضافه إلى سوانا فوافاه من غضب الله وسرعة نقمته[1] ... » .

هذا القول يرينا إلى أى حد يحرص المسعودى على ما فى كتابه وهو حرص لم ينشأ إلا من اعتقاده أنه قد أورد ما يطمئن إليه أو ما يعتقد أنه الحق . ومن هنا تهدد من يناله من أى الملل كان أو الآراء . وهو لم يكتف بهذا التهديد فى أول الكتاب وإنما يذكره فى آخره ويشير إلى ذلك فى المقدمة وفى تتمة النص السابق وليس كل ذلك إلا ليحول بين الناس وبين التغيير والتبديل والانتخاب والاختصار . وكل ذلك لا يصور إلا روح المؤرخ الذى يرى أن ما جاء به هو الحق وما أورده هو الصواب . ولو أن المسعودى كان يذهب مذهب الرواة لشعر بأنه لم يورد كل ما يمكن أن يورد ، ولاعتقد أن فيما أورده ما هو من الأكاذيب والمصنوعات التى تقبل التعديل بتغيير وتبديل أو بانتخاب واختصار .

المسعودى مؤرخ يصور لنا لوناً من المؤرخين فى القرن الرابع الهجرى أو فى النصف الأول منه . وهو ذلك اللون الذى لا يعتمد على الرواية ولا يحرص على نسبة الأقوال إلى قائليها والأخبار إلى رواتها وإنما يكتفى بإيراد ما يعتقد أنه الحق وما يرى أنه الصواب .

---

(١) ٢٢ ، ٢٣ بروج الذهب • ط • الجمعية الأسيوية بباريس •

وننتقل الآن إلى أبى الفرج لنلمس منه تلك الروح التى تسيطر عليه عند إيراده للمرويات .

وروح أبى الفرج فيما نرى هى روح الرواة الذين يروون الخبر وهم يتبرءون من العهدة ، ويروون الأخبار وهم لا يقصدون إلى أقواها إسناداً وإنما إلى أتمها ، ويروونها وهم يعلمون أنها فى حاجة إلى التعديل بالزيادة أو بغيرها ، ويروونها وقد حضوا غيرهم على ألوان من التعقيب والتصحيح ، ومن الإضافة أو الزيادة إن وقع الكتاب فى أيديهم ووقفوا على ما يحتاج إليه من قصة طريفة أو خبر جديد .

وروح أبى الفرج هذه هى التى تصورها هذه النصوص .

١ — جاء فى الأغانى « وأنا أذكر مما وقع إلى من أخباره جملا مستحنسة ، متبرئاً من العهدة فيها ، فإن أكثر أشعاره المذكورة فى أخباره ينسبها بعض الرواة إلى غيره وينسبها من حكيت عنه إليه ، وإذا قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعن ومتتبع للعيوب[١] » .

٢ — وجاء « وقد سمعت خبره من جهات عدة إلا أنه لم يحضرنى وقت كتبت هذا الخبر غيره ، وهو وإن لم يكن من أقواها على مذهب أهل الحديث إسناداً فهو من أتمها[٢] .

٣ — وجاء « ونسخت من كتاب أحمد بن سعيد الدمشقى خبر الأحوص مع سلامه التى ذكرها فى هذا الشعر وهو موضوع لا أشك فيه . لأن شعره المنسوب إلى الأحوص شعر ساقط سخيف لا يشبه نمط

---

(١) ١/٦١٤ أغانى . ساسى .

(٢) ١٤/٤٩ المصدر السابق .

الأحوص ، والتوليد بين فيه يشهد على أنه محدث ، والقصة أيضاً باطلة لا أصل لها ، ولكنى ذكرته فى موضعه على ما فيه من سوء العهدة[١] » .

٤ — وجاء « .. وبعضها لم أعرف القائل له فأتيت به كما وقع إلى ، فإن مر بى بعد وقتى هذا أثبته فى موضعه وشرحت من أخباره ما اتصل بى ، وإن لم يقع إلى ووقع إلى بعض من كتب هذا الكتاب فمن أقل الحقوق عليه أن يتكلف إثباته ولا يستثقل تجشم هذا القليل فقد وصل إلى فوائد جمة تجشمناها له ولنظرائه فى هذا الكتاب فحظى بها من غير نصب ولا كدح ، فإن جمال ذلك موفر عليه إذا نسب إليه وعيبه عنا ساقط مع اعتذارنا عنه[٢] ... » .

٥ — وجاء « وقد كنا وجدنا هذا الشعر فى رواية على بن يحيي عن إسحق منسوباً إلى المرقش وطلبناه فى أشعار المرقشين جميعاً فلم نجده ، وكنا نظنه من شاذ الروايات حتى وقع إلينا فى شعر داوود بن سلم وفى خبر أنا ذاكره فى أخبار داوود . وإنما نذكر ما وقع إلينا عن رواته فما وقع من غلط فوجدناه ووقفنا على صحته أثبتناه وأبطلنا ما فرط منا غيره وما لم يجر هذا المجرى فلا ينبغى لقارىء هذا الكتاب أن يلزمنا لوم خطأ لم نتعمده ولا اخترعناه وإنما حكيناه عن رواته واجتهدنا فى الإصابة وإن عرف صواباً مخالفاً لما ذكرناه وأصلحه فإن ذلك لا يضره ولا يخلو به من فضل وذكر جميل إن شاء الله[٣] » .

وفرق فيما نعتقد بين روح أبى الفرج هذه وروح المسعودى السابقة . فالمسعودى يذكر الحقيقة كما يراها وتلك روح المؤرخ . وأبو الفرج يذكر

(١) ٨/٨٦ المصدر السابق .

(٢) ٨/١٤٤ أغانى . ساسى .

(٣) ٥/١٣٥ أغانى . بولاق .

المرويات كما وصلته ولو لم تكن من الحقائق ولو كانت باطلة ولا أصل لها، لأنه قد يراد بها إلى الامتاع والمؤانسة ـ وتلك روح الراوية .

ولعل من الخير لنا فى هذا الموقف أن نذكر ذلك النص الذى يقف فيه ابن سلام من ابن إسحق موقف الناقد الذى لا ترضيه رواية ابن إسحق للأشعار فإن فيه ما يدل على الفرق الواضح الجلى بين روح المؤرخ وروح الراوية .

يقول ابن سلام « وكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل كل غثاء محمد بن إسحق مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسير فنقل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر عنها ويقول لا علم لى بالشعر إنما أوتى به فأحمله ، ولم يكن ذلك له عذراً ، فكتب فى السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط وأشعار النساء فضلا عن أشعار الرجال ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود .

أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ومن أداه منذ ألوف السنين والله يقول وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى ...[1] » .

واست فى حاجة إلى أن أدلل على أن اعتذار ابن إسحق يدل على روح الرواية فضلا عن طريقته التى جرى عليها ـ وأن روح ابن سلام روح المؤرخ الذى يبحث عن الحقيقة ويتحرى طرق الوصول إليها .

* * *

أبو الفرج راوية يحمل كل ما يصل إليه وليس بالمؤرخ الذى لا يذكر إلا ما يعتقد أنه الحق وستتضح هذه المسألة فى الفصول المقبلة إن شاء الله .

---

(١) ٤ طبقات الشعراء لابن سلام . ط . ليدن سنة ١٩١٦ .

الفصل الثانى

مرحلة التحمل

(ا) وأولى المسائل التى يحسن بنا أن نفتتح بها الحديث عن هذه المرحلة مسألة السن التى يبدأ فيها الراوى بالتحمل .

ومسألة السن هذه من المسائل التى يحتفل بها القدماء لما لها من صلة بالحالة العقلية التى يكون عليها الراوى — وليس يخفى أن لهذه الحالات العقلية أثرها القوى فى قيام الثقة بالراوى والاطمئنان إلى مروياته . ولعله من هنا لايرضى أصحاب علوم الحديث بالوقوف من هذه الحالات العقلية عند حد الصغر حيث يكون العقل غضا طريا ، ولا عند حد الكبر حيث يكون العقل واهنا ضعيفا ، وإنما يمضون فيبحثون عما بين الصغر والكبر من حالات . يبحثون عما يعتور العقل من خرف وجنون ومن سهو وغفلة ، ويرتبون على كل حالة أحكاما هى الضابط لمدى ما تتمتع به المرويات من ثقة .

وأصحاب علوم الحديث يصدرون فى مسألة السن هذه عن نظريتين فيما نرى .

الأولى تلك النظرية التى نبتت بذورها يوم أن أصبحت الرواية علما له أصوله التى يجب أن تتبع والتى تذهب إلى أن الراوى يجب أن يكون أهلا للكتابه وللضبط حين التحمل حتى يطمئن الناس إلى مروياته . ومن عوامل عدم الأهلية عندهم البلوغ - حتى لقد رفض بعضهم الأخذ عمن تحمل قبل البلوغ ولو أدى بعده[1] .

---

(١) ١٣٧ ابن الصلاح .

أما الثانية فهى تلك التى تجعل للتقاليد حكمها والتى تمضى على ماجرى عليه العمل منذ عهد الرسول عليه السلام ، والتى تذهب إلى جواز تحمل الصبى ، لأن الرواة قد أخذوا عن أحداث الصحابة من أمثال الحسن بن على وابن عباس وابن الزبير والنعمان ابن بشير وأشباههم من غير فرق بين ما تحملوه قبل البلوغ وما بعده . . ولأنهم لم يزالوا قديما وحديثا يحضرون الصبيان مجالس التحديث والسماع ويعتدون برواياتهم[١] .

نعم إن هناك من يحاول التوفيق بين الرأى النظرى والواقع العملى وهؤلاء فيما نعتقد هم الذين أجازوا السماع فى الصغر — ولكنهم اشترطوا للكتابة والضبط شروطا فى السن هى عشر سنين عند البصريين وعشرون سنة عند الكوفيين وثلاثون سنة عند الشاميين[٢] .

ولعل خير مايذكر فى هذه المسألة من وجهة النظر الشرعية هو ما ذهب إليه أحمد بن حنبل فقد سئل متى يجوز سماع الصبى الحديث ؟ فقال إذا عقل وضبط . . فذكر له عن رجل أنه قال لا يجوز سماعه حتى يكون له خمس عشرة سنة . . فأنكر قوله وقال بئس القول[٣] .

ويفصل ابن الصلاح هذا القول حين ينتهى إلى أن الذى ينبغى فى ذلك هو أن يعتبر فى كل صغير حاله على الخصوص ، فإن وجدناه مرتفعاً عن حال من لا يعقل فهما للخطاب وردا للجواب ونحو ذلك صححنا سماعه وإن كان دون خمس — وإن لم يكن كذلك لم نصحح سماعه وإن كان ابن خمس بل ابن خمسين[٤] .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) ٥٥ الكفاية فى علم الرواية للخطيب البغدادى .
(٣) ١٣٩ مقدمة ابن الصلاح .
(٤) المصدر السابق .

تلك هى الأقوال أو هـذه هى الأسس التى تفسر لنا بعض الشىء بحث أصحاب علوم الحديث لهـذه المسألة ولو حاولنا أن نعرف أمر أبى الفرج لتبينت لنا الأمور الآتية :

١ — أن أبا الفرج قد تحمل فى بعض الأحيان وهو صغير أو وهو حديث السن على حد تعبيره وهو نفسه الذى يثبت هذا حين يقول تعليقا على خبر يرويه عن أبى جعفر بن رستم الطبرى . (هـذا حفظته عن أبى جعفر وأنا حديث السن فكتبته من حفظى واللفظ يزيد وينقص وهـذا معناه[1]) .

ويظهر أن هـذه لم تكن حال أبى الفرج وحده وإنما هو الأمر الذى يجرى عليه الكثيرون فقد جاء فى الأغانى (وحدثنى أحمد بن عبيد الله بن عمار قال كنا نختلف إلى أبى العباس المبرد ونحن أحداث نكتب عن الرواة ما يروونه من الآداب والأخبار وكان يصحبنا فتى .. الخ[2]) .

وتفسير هـذه الظاهرة ليس بالغريب إذا تذكرنا أن الرواية كانت من الأساليب الشائعة فى التربية والتعليم فى ذلك الوقت — وليس يخفى أن التعليم يبدأ به فى سن الحداثة . كما أنه ليس يخفى أن كثيرين من المؤلفين يعتمدون فى التأليف والتصنيف على المعلومات والمعارف التى حصلوا عليها وقت الطلب .

٢ — أن أبا الفرج قد جلس لإملاء كتاب مقاتل الطالبيين سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة(٣)ـ لكن ليس معنى ذلك أن أبا الفرج كان قد أنهى مرحلة

---

(١) ١١/١٠١ . أغانى . ساسى .
(٢) ٦/١٥٣ المصدر السابق .
(٣) ٤ مقاتل الطالبيين . مصر .

التحمل — اللهم إلا إذا كان ذلك فيما يخص كتاب المقاتل وحده . . ذلك لأنا نعلم أن مرحلة التحمل أشبه بمرحلة جمع المعلومات والمواد لتأليف الكتب وأنها تتجدد كلما هم الراوى برواية لون من الأخبار جديد .

إن مرحلة التحمل إنما تنتهى بالنسبة إلى كل خبر عند الفراغ من تحمله ، وتنتهى بالنسبة إلى كل كتاب عند الفراغ من تأليفه . ولعله من هنا كان حرص أصحاب علوم الحديث على بحث الحالات العقلية عند رواية كل خبر ، وكان قولهم برد حديث أهل الغفلة (١) . ويبحث حال من كان ينسخ وقت القراءة (٢) وليس هناك من حالات يثبتونها من أمر أبى الفرج إلا أنه كان خلط قبل أن يموت (٣) .

ولسنا نعرف بطبيعة الحال إن كان أبو الفرج قد فرغ من التأليف فى ذلك الوقت أولا ؟ ولكنا نعتقد أن ما بين أيدينا من كتب قد أرخ بعضه وهو كتاب الأغانى وأن هذا الأخير قد أخرج للناس وقرأه بعض الطلاب على صاحبه كما سبق أن ذكرنا . ومضمون هذا كله أن ما بين أيدينا من مرويات لأبى الفرج إنما كان من روايته قبل أن يصيبه هذا التخليط .

* * *

(ب) وثانى المسائل التى نعنى بها من مرحلة التحمل مسألة المصادر التى يأخذ منها أبو الفرج أو يتحمل عنها .

وأبو الفرج يأخذ عن مصدرين كبيرين هما : الكتب والرجال . ويظهر

---

(١) ١٤٧ الكفاية فى علم الرواية .

(٢) ٦٦ المصدر السابق .

(٣) ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد .

لنا من حديث أبى الفرج فى مقدمة كتابه مقاتل الطالبيين عن التدوين أن عصر الرحلة فى سبيل الجمع والتدوين كان قد انقضى أو كاد ، وأن الشيوخ فى عصره كانوا يعتمدون على مجهودات السابقين قبلهم من الرواة . ومن هنا نراه يعتذر عن تقصيره فى رواية أخبار آل أبى طالب جميعا بخلو عصره من أمثال السابقين .

يقول أبو الفرج (وعلى أنا لا ننتفى من أن يكون الشىء من أخبار المتأخرين منهم فاتنا ولم يقع إلينا لتفرقهم فى أقاصى الشرق والغرب وحلولهم فى نائى الأطراف وشاسع المحال التى يتعذر علينا استعلام أخبارهم فيها ومعرفة قصصهم لاستيطانهم إياها — سيما مع قصور زماننا هذا وأهله وخلوه من مدون الخبر أو ناقل الأثر كما كان المتقدمون قبلهم يدونون ويصنفون وينظمون ويرصفون[١]) .

وكثرة الكتب التى يصدر عنها أبو الفرج وكثرة النصوص التى يأخذها عن بعض هذه الكتب تؤذن لنا بالقول بأنه فى هذا العصر قد بدأ الكتاب يزاحم الشيخ ويحاول أن يحل محله فى الرواية أو فى الاداء . ولقد فطن ابن النديم وهو المعاصر لأبى الفرج إلى هذه الظاهرة من حياة أبى الفرج العلمية وأشار عند ترجمته له إلى أن أكثر مروياته إنما أخذت عن الكتب ولم تأخذ عن الرجال[٢] . بل لعل وجود هذه الظاهرة فى كتب أبى الفرج وبخاصة الأغانى هو الذى يفسر لنا ما يقال من أن الصاحب بن عباد كان يستصحب حمل ثلاثين جملا من كتب الأدب ليطالعها فلما وصل إليه كتاب الأغانى

---

(١) ٥ مقاتل الطالبيين • ط • مصر •

(٢) ١٦٦ ، ١٦٨ الفهرست لابن النديم • ط • مصر •

لم يكن بعد ذلك يستصحب سواه استغناء به عنها[١].

وإحلال الكتاب محل الشيخ إنما نشأ عن انتشار الكتابة والاعتماد عليها فى الضبط — ومن إهمال شأن الحفظ — الأمر الذى سنقف عنده فى الفصل المقبل إن شاء الله.

والظواهر التى يحسن بنا أن نقف عندها من حيث هذه المصادر هى التالية.

أولا : أن هذه الكتب التى يعتمد عليها أبو الفرج ليست كلها من الأصول الجياد أو من الكتب الأمهات. وأن هؤلاء الرجال الذين يكثر من الأخذ عنهم ليسوا جميعا من الرواة الممتازين أو من الشيوح الكبار. فإنا إذا وجدنا من الكتب الجياد كتب أبى العباس ثعلب واليزيدى وابن الإعرابى وأبى عمرو الشيبانى وابن حبيب السكرى والمبرد وقدامه بن جعفر وابن المعـــتز وإسحق الموصلى وغيرها فإنا واجدون إلى جانبها كتبا أخرى يعدها أبو الفرج نفسه قليلة التحصيل ضئيلة الفائدة من أمثال كتب يحيى المكى وحبش وابن خرداذ به والكتاب المنسوب إلى إسحق وغيرها.

والظاهرة نفسها موجودة فى الرجال فإذا ما وجدنا من الرواة الممتازين أو من شيوخهم محمد بن جرير الطبرى ومحمد بن القاسم الإنبارى ومحمد بن العباس اليزيدى وعلى بن سليمان الأخفش والفضل بن الحباب الجمحى وابن دريد وابن عمار ونفطويه وأحمد بن سعيد الهمدانى وعلى بن العباس الكوفى وحرمى بن أبى العلاء وكثيرين غيرهم فإنا واجدون إلى جانبهم من ليسوا بالشيوخ على الإطلاق وإنما هم من الندماء وصغار الكتاب والرجال العاديين الذين يعون الحوادث ويذكرونها.

(٣) ٤٦٣ وفيات الأعيان • باريس سنة ١٨٣٨ •

هذه الظواهر المتعلقة بالكتب والرجال كانت معروفة لدى بعض المؤرخين ونقدة الرجال من المعاصرين لأبى الفرج ، ولقد عابوا أبا الفرج من أجلها ـ ووصل الأمر ببعضهم أن رماه بالكذب . جاء فى تاريخ بغداد « حدثنى أبو عبد الله الحسين بن محمد بن القاسم بن طبا طبا العلوى قال سمعت أبا محمد الحسن بن الحسين النوبختى يقول . كان أبو الفرج الأصبهانى أكذب الناس ، كان يدخل سوق الوراقين وهى عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب فيشترى شيئاً من الصحف يحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها(١) » . كما تراهم يتهمونه من حيث الرجال بالاتساع فى الرواية(٢) .

ونحن لا نستطيع أن ننقد أبا الفرج من حيث نقده هؤلاء . ذلك لأنا نعلم أنا ندرس أبا الفرج من حيث هو راوية ونحن نعلم أن من شأن الرواة جمع كل ما قيل حتى لو لم يكن مروياً عن شيوخ ممتازين أو مأخوذاً عن أصول جياد .

على أنا نستطيع أن نذكر هذا الصنيع لأبى الفرج بالخير . نذكره لا على أنه من الرواة الذين يحرصون على جمع كل ما قيل بل على أنه من الذين يؤرخون للحياة الفنية والحياة الاجتماعية للبيئة التى كان يعيش فيها . وليس يخفى أن الأسلوب الصحيح لمثل هذا التاريخ إنما يقوم أولا وقبل كل شىء على الجمع والاستقصاء ، وأن الذين يكتفون فى مثل هذا التاريخ بالجياد من الكتب والممتازين من الرجال إنما يخطئون . وليس ذلك إلا لأن الممتازين من الرجال لا يمثلون إلا أنفسهم ، وأن الجياد من الكتب لا تمثل إلا العقلية الناضجة والذوق الفنى الرفيع .

---

(١) ١١/٣٩٩ تاريخ بغداد للخطيب .

(٢) .. المصدر السابق .

إن هؤلاء جميعاً إنما يمثلون الحياة العكرية والحياة الاجتماعية من القمة أما الوسط وأما السطح فلا يمثله إلا كتب المرتبة الثانية والثالثة . وإلا رجال لا يمكن عدهم من الكبار أو الممتازين . ومن هنا يكون أبو الفرج بصنيعه هذا قد أدى خدمات يشكر عليها ولا يلام من أجلها . لأنه قد حرص على تراث الأوساط من الناس .

ثانياً : قد يأخذ أبو الفرج عن غير الممتازين من الرواة وعن غير الجياد من الكتب ولكنه يتوخى العدالة والقدرة على الضبط . وبعبارة أخرى يتحرى الصادق من الأخبار ولا يأخذ إلا عن الثقات . لكن أبا الفرج لم يفعل شيئاً من ذلك وإنما روى عن الثبت الثقة وعن غيره وأورد فى كتبه الصادق والكاذب من الأخبار . ويظهر لنا من بعض النصوص التى يوردها أبو الفرج فى كتاب الأغانى أن هذا الأمر أو هذا التساهل لم يكن خاصاً بأبى الفرج وإنما كان الأمر الذى يجرى عليه الاخباريون الأدباء .

جاء فى الأغانى « أخبرنى الحسن بن على قال حدثنا ابن مهرويه قال حدثنا إبراهيم بن الجنيد قال سألت يحي بن معين عن محمد بن مناذر الشاعر فقال لم يكن بثقة ولا مأمون رجل سوء نفى من البصرة ووصفه بالمجون والخلاعة ـ فقلت إنا نكتب شعره وحكايات عن الخليل بن أحمد ـ فقال هذا نعم ، وأما الحديث فلست أراه موضعاً له[1] » .

ويظهر لنا أن هذه الظاهرة توجد أيضاً فيما هو من باب الأخبار والأقاصيص من الأحاديث . فإنا نرى من الرواة من يتساهل فى مرويات هذا اللون من الأخبار . جاء فى مقدمة ابن الصلاح « يجوز عند أهل الحديث

---

(١) ١٧/٢٩ أغانى . بولاق .

وغيرهم التساهل فى الأسانيد ورواية ما سوى الموضوع من أنواع الأحاديث الضعيفة من غير اهتمام ببيان ضعفها ـ فيما سوى صفات الله تعالى وأحكام الشريعة من الحلال والحرام وغيرها ـ وذلك كالمواعظ والقصص وفضائل الأعمال وسائر فنون الترغيب والترهيب وسائر ما لا تعلق له بالأحكام والعقائد .

وممن روينا عنه التنصيص على التساهل فى نحو ذلك عبد الرحمن بن مهدى وأحمد ابن حنبل رضى الله عنهما(١) . بل نرى من فرق المسلمين من يجيزون وضع الأحاديث إذا كان المقصود منها العظة والعبرة أو الترغيب والترهيب بالإطماع فى الجنة والإخافة من النار(٢) .

ووجود هذه الظاهرة ظاهرة التساهل عند الإخباريين هو الذى دفع أصحاب علوم الحديث إلى عدم الأخذ عن كتبهم فيما يتعلق بالرجال بل هو هو الذى دفعهم إلى عدم الأخذ عن كتب المحدثين الذين يذهبون مذهب الإخباريين . يقول ابن الصلاح بصدد الحديث عن الكتب التى ألفت فى شأن الرجال « ومن أجلها وأكثرها فوائد كتاب الاستيعاب لابن عبد البر لولا ما شانه به من إيراده كثيراً مما شجر بين الصحابة وحكاياته عن الإخباريين لا المحدثين . وغالب على الإخباريين الإكثار والتخليط فيما يروونه(٣) » .

وتفسير هذه الظاهرة ليس بالعسير إذا نظرنا إلى المسألة على أساس الخطر الذى يترتب على هذه المرويات . فالأقاصيص مثلا أو الأخبار

(١) ١١٣ ابن الصلاح .
(٢) ١٣٣ الكفاية فى علم الرواية ، ١١٠ ابن الصلاح .
(٣) ٢٥١ ابن الصلاح .

الأدبية قد تراد للفكاهة وللامتاع والمؤانسة . وهنا يصبح الخطر قليلا أو لا خطر على الإطلاق . ونشعر أنه قد أصبح من غير اللازم أن تكون الأحداث قد وقعت وأن تكون الأخبار والأقاصيص من واقع هذه الحياة فإنما المطلوب من كل هذه الأشياء أن تمتع وأن تؤنس - ويستوى بعد ذلك أن تكون من واقع الحياة أو أن تكون من نسج الخيال .

وكذلك الأمر فى أحاديث الترغيب والترهيب فإنما المقصود منها استثارة الانفعال وتربية العاطفة الدينية - وكل ذلك لا يتطلب أمراً قد وقع فإنما يؤدى إليه المثل والقصة وما هو من هذا الميدان .

أما الأخبار التى يقصد منها إلى التاريخ وأما الأحاديث التى يقصد منها إلى التشريع فهى التى تتطلب النقد القوى والعناية الكبرى ، وهى التى يجب أن تقوم فيها الرواية على أساس من الدقة والضبط يدفع إلى الثقة بها ويوحى بالاطمئنان . ولعله من هنا تشدد قوم فى رواية الحديث إلى الحد الذى جعل مروياتهم منه قليلة جداً الأمر الذى وقف عنده ابن خلدون وأطال(١) .

على أن هناك أمراً آخر يجب ألا تغفله فى هذا الموطن وهو التقاليد التى جرى عليها رواة الأدب والأخبار الأدبية والنسب من قبل . فلقد جرى هؤلاء منذ العصر الجاهلى على عدم اشتراط ما يعرفه أصحاب علوم الحديث من عدالة وضبط ، إذ كانت رواية الشعر عندهم نوعا من التعليم ، وكانت رواية الأنساب والأخبار نوعا من الشائعات التى تشيع فى البيئة والتى يعرفها أكثر الناس ويعبرون عنها بعبارات تلائم أمزجتهم وبصيغ تسعفهم دون العناية فى كل ذلك بنقد أو تمحيص . حتى لقد روى أبو الفرج

---

(١) راجع من حيث الأخبار من ١ - ٢٤ ومن حيث الأحاديث ٣١١، ٣١٢ .

نفسه فيما يخص الأنساب خبراً عن النبي عليه السلام يقلل من قيمتها ويجعلها غير أهل لأن يعتمد عليها فى قضايا الشرع أو قضايا الدين(١) . ولسنا فى حاجة إلى أن ندل على أن أمثال هذه الشائعات لا تعتبر مصدراً قيما من مصادر التاريخ .

ثم هناك الضرورات التى دفعت الرواة إلى قبول الأخبار من غير العدول . وماذا يفعل الرواة حين يكون الشهود الذين شهدوا الأحداث أو الذين وقعت منهم الأحداث من المجان والفساق ومن الخلعاء والمتهتكين . إنهم وحدهم الشهود وإن مروياتهم وحدها هى التى تصور ما كان — فضلا عن أنها الأخبار القيمة للإمتاع والمؤانسة ، وأنهم لابد حافظون لهذه الأخبار وراوون لها ومعرضون عن تلك الصفات التى يتطلبها أصحاب علوم الحديث فى رواته . إنه من هنا فيما نعتقد ذهب ابن قتيبة إلى ما ذهب إليه حين قال « وأعلم أنا لم نزل نتلقط هذه الأحاديث فى الحداثة والاكتهال عمن هو فوقنا فى السن والمعرفة ، وعن جلسائنا وإخواننا ، ومن كتب الأعاجم وسيرهم وبلاغات الكتاب فى فصول من كتبهم ، وعمن هو دوننا — غير مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سنا لحداثته ولا عن الصغير قدراً لخساسته ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها فضلا عن غيرها — فإن العلم ضالة المؤمن من حيث أخذه نفعه ولن يزرى بالحق أن تسمعه من المشركين . . . فأما علم الدين والحلال والحرام فإنما هو استبعاد وتقليد ولا يجوز أن تأخذه إلا عمن تراه لك حجة ولا تقدح فى صدرك منه الشكوك . . . . وسينتهى بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما

---

(١) ١/٧ أغانى ، ساسى .

فإذا مر بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به[١] » .

إن التقاليد والضرورات وإن تفرقة الأقدمين بين خطر الحديث حين يكون للتشريع وخطره حين يكون للعظة والعبرة . وإن المقاصد التي تقصد من إيراد الأقاصيص والأخبار من إمتاع ومؤانسة . إن كل ذلك هو الذي أباح للإخباريين من الأدباء التساهل وعدم التشدد . بل إن الامتاع والمؤانسة هو الذي دفعهم إلى إيراد المصنوعات والأكاذيب ووضع الأقاصيص .

جاء في الأغاني (أخبرني محمد بن خلف بن المرزبان قال حدثني أبو العيناء قال سئل الأصمعي عن شعر تبع وقصته ومن وضعهما فقال ابن مفرغ[٢]) . كما جاء فيه أيضا صور للكيفية التي يضع بها بعض الندماء والرواة أمثال هذه الأقاصيص « أخبرني عمي أبو عبد الله قال سمعت رجلا سأل أبا العبر عن هذه المحالات التي لا يتكلم بها أي شيء أصلها . قال أبكر فأجلس على الجسر ومعي دواة ودرج فأكتب كل شيء أسمعه من كلام الذاهب والجائي من كلام الملاحين والمكارين حتى أملأ الدرج من الوجهين ثم أقطعه عرضا وألصقه مخالفا فيجيء منه كلام ليس في الدنيا أحمق منه[٣] » .

ولعله من أجل هذا الإضحاك احتاج الخلفاء إلى الندماء وإلى أخبار الحمقى والمغفلين والطفيليين ومن إليهم . ولعله من أجل الإمتاع والمؤانسة وضع الأقدمون من الأدباء أخباراً وأقاصيص أشار صاحب الأغاني إلى بعضها وذلك من أمثال قصص جميلة[٤] . وقصص المجنون[٥] بل أشار

---

(١) س ، ع ، ل . عيون الأخبار . ط . دار الكتب .
(٢) ١٧/٥٢ أغاني . ساسي .
(٣) ١٩/٩١ المصدر السابق .
(٤) ٧/١٢٨ المصدر السابق .
(٥) ١٦١ — ١/١٦٤ المصدر السابق .

صاحب الأغانى إلى أن هناك كتبا قد وضعت بتمامها، وذلك من أمثال هذا الكتاب الذى يشير إليه عند حديثه عن على بن آدم بقوله (هو رجل من تجار أهل الكوفة كان يبيع البز وكان متأدبا صالح الشعر يهوى جارية يقال لها نهلة واستهام بها مدة ثم بيعت فمات أسفا عليها . وله حديث طويل فى كتاب مفرد مشهور صنعه أهل الكوفة لهما فيه ذكر قصصهما وقتا وقتا وما قاله فيها من الأشعار وأمرهما متعالم عند العامة وليس مما يصلح الإطالة به[1]) .

على أن هذه المصنوعات نفسها يستفاد منها من حيث هى مصدر من مصادر الحياة العقلية والفنية من حيث أنها تفسيرات لظواهر مختلفة أو من حيث أنها تصوير لما يحس به الأديب من مشاعر . وللاحساس حكمه فى تصوير الآلام والآمال حتى لو كانت كواذب فى حكم العقل والمنطق . ولهذه الصور دلالتها على الحياة التى كانت تحياها الجماعات وعلى ما تصبو إليه من مثل وما تضيق به من آلام .

* * *

(ج) وثالثة المسائل التى نقف عندها من مسائل مرحلة التحمل هى مسألة الإسناد .

وحرص أبى الفرج على الإسناد واضح فى كتابيه الأغانى والمقاتل . . وهو حرص قد لا يتلاءم وتساهله فى المرويات وأخذه عن الكذبة وتدوينه للمصنوعات . لأن الإسناد ما وجد إلا ليحول بين الرواة وبين أن يخدعوا فيرووا الأكاذيب أو الموضوع من الأخبار والأقاصيص . ولذا كان

---

(١) ١٤/٤٩ المصدر السابق .

لابد لنا من هذه الوقفة لنرى رأينا فى أبى الفرج . فهل كان حرصه على الإسناد لتكون الصحة فى النقل أو كان لأمر آخر يقصد ويراد ؟

إن الإجابة عن هـــذا السؤال تتطلب منا بحث تاريخ الإسناد . بحث نشأته والغرض منه والدور الذى يلعبه فى المرويات :

والإسناد نشأ أولا فى أحضان الدين وفى بيئة المحدثين والفقهاء . وينص أصحاب علوم الحديث على أنه خصيصة شريفة من خصائص الأمة الإسلامية جاء فى مقدمة ابن الصلاح « أصل الإسناد أولا خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة وسنة بالغة من السنن المؤكدة — روينا من غير وجه عن عبد الله ابن المبارك أنه قال : الإسناد من الدين لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء . وطلب العلوفية سنة أيضا — ولذلك استحبت الرحلة فيه[1] .

وكان الغرض منه فيما هو واضح من أواخر النص السابق ومن قول سفيان الثورى « لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التواريخ[2] » . الحيلولة بين الكذبة من الرواة وبين أن يكون لأحاديثهم الموضوعة أثر فى توجيه الحياة التشريعية فى الإسلام — لا سيما وهم يؤمنون بأن الحديث هو المصدر الثانى من مصادر الشريعة الإسلامية ، وأنه مفسر ومبين للقرآن .

وهذا الغرض الذى من أجله كان الإسناد لم يوجد فى الحياة إلا حين بدأ المسلمون بجمع الأحاديث وتدوينها ، وحين وجدوا فيما يجمعون لونا من الاختلاف قد يصل أحيانا إلى حد التعارض والتباين — وحين عملوا على إزالة هذا الاختلاف بالتوفيق أولا وبالنسخ ثانيا وبالترجيح ثالثا — ومن

---

(١) ٢١٥ ابن الصلاح .
(٢) ٣٨٢ المصدر السابق .

عوامل الترجيح الثقة بالرواة — ومن هنا كان السند ، وكانت إقامة السلاسل ، وكانت السلسلة الذهبية[١] .

هـذه النشأة كما ترى كانت يوم أن أصبحت الرواية علما له رسومه وأصوله التى يجب أن تتبع ، وكانت تقتضى التطبيق فى عهدين عهد سابق على نشأتها وعهد لاحق لهذه النشأة ، حيث يبحثون حال الرواة الأولين فيرجحون رواية العدل الثقة الضابط . وحيث يبحثون حال الرواة المتأخرين فلا يأخذون إلا عن العدول الثقات الضابطين .

هذه الحالات لم تكن لتستمر وإنما كان من المفروض أن تنتهى بانتهاء التدوين — تدوين كل ما صدر عن الرسول عليه السلام ونقده نقداً يبين الصحيح من الزائف ويكشف عن الموضوعات من الأحاديث . وهـذا هو الذى قد كان ، فقد أحس الرواة وأصحاب علوم الحديث بأن الإسناد قد أدى مهمته ، وأنهم قد فرغوا مما احتاجوا إليه من أجله وأنهم لا حاجة بهم إليه بعد اليوم — لكنهم مع كل هـذا أبقوا عليه لأسباب يذكرونها هم .

(ا) حين يقولون « قال البيهقى . فمن جاء اليوم بحديث لا يوجد عند جميعهم لم يقبل منه ، ومن جاء بحديث معروف عندهم فالذى يرويه لا ينفرد بروايته والحجة قائمة بحديثه برواية غيره والقصد من روايته والسماع منه أن يصير الحديث مسلسلا بحدثنا وأخبرنا وتبقى هـذه الكرامة التى خصت بها هذه الأمة »[٢] .

(ب) وحين يقولون « إذا وجدنا فيما يروى عن أجزاء الحديث وغيرها

---

(١) ١١ المصدر السابق .

(٢) ١٣٢ ابن الصلاح .

حديثا صحيح الإسناد ولم نجده فى أحد الصحيحين ولا منصوصا على صحته فى شيء من مصنفات أئمة الحديث المعتمدة المشهورة فإنا لا نتجاسر على جزم الحكم بصحته ، فقد تعذر فى هذه الأعصار الاستقلال بإدراك الصحيح بمجرد اعتبار الأسانيد ، لأنه ما من إسناد من ذلك إلا وتجد فى رجاله من اعتمد فى روايته على ما فى كتبه عريا عما يشترط فى الصحيح من الحفظ والضبط والاتقان ، فآل الأمر إذا فى معرفة الصحيح والحسن إلى الاعتماد على ما نص عليه أئمة الحديث فى تصانيفهم المعتمدة المشهورة التى يؤمن فيها لشهرتها من التغيير والتحريف ، وصار معظم المقصود بما يتداول من الأسانيد خارجا عن ذلك إبقاء على سلسلة الإسناد التى خصت بها هذه الأمة(٢) » .

(ج) وحين يقولون « أعرض الناس فى هذه الأعصار المتأخرة عن اعتبار مجموع ما بينا من الشروط فى رواة الحديث ومشايخه فلم يتقيدوا بها فى رواياتهم لتعذر الوفاء بذلك على نحو ما تقدم وكان عليه من تقدم ، ووجه ذلك ماقدمناه فى أول كتابنا هذا من كون المقصود المحافظة على خصيصة هذه الأمة فى الأسانيد والمحاذرة من انقطاع سلسلتها . . . وقد سبق إلى نحو ما ذكرناه الحافظ الفقيه أبو بكر البيهقى رحمه الله تعالى فإنه ذكر فيما روينا عنه توسع من توسع فى السماع من بعض محدثى زمانه(٢) » .

الإبقاء على الإسناد لم يكن فيما يروى البيهقى ومن يذهب مذهبه من أصحاب علوم الحديث لبيان صحة النقل ومعرفة الصحيح من الحسن من الأحاديث - فتلك مهمة قد فرغ منها الرواة الأولون - وإنما كان ذلك إبقاء على تلك الخصيصة الشريفة التى اختصت بها هذه الأمة .

---

(١) ١٢ المصدر السابق .

(٢) ١٣٢ المصدر السابق .

إذا عرفنا هذه المسائل استطعنا فى سهولة ويسر أن نفهم نظرية الإسناد فى الأدب وفى الأخبار ، وأن نقدر أو نفسر لماذا أعرض الأدباء والإخباريون عن اعتبار بجموع الشروط التى يشترطها أصحاب علوم الحديث فى رواة الحديث ومشايخه . واستطعنا أن نقدر تبعا لذلك موقف أبى الفرج من الإسناد وكيف أنه وقف عند الإسناد موقفاً يخالف الكثيرين ممن سبقوه أو عاصروه من الأدباء والإخباريين .

حاول الأدباء والإخباريون عند تدوينهم للنصوص الأدبية والإخبارية تطبيق نظرية الإسناد فى ميدانهم لنفس الأسباب التى وجدت عند المحدثين وهى الاختلاف بين المرويات . ولقد كان الاختلاف فى هذا الميدان أكبر وأضخم لأن التراث فى نفسه واسع المدى . فهو أكثر طولا وعرضاً بعيد المسافات الزمنية وشاسع الأطراف المكانية . ثم أن الرواة أنفسهم كانوا من القلة بحيث يعجزون عن أن يجاروا المحدثين من حيث القيام بالعمل ، فلقد كانت عواطفهم نحو عملهم أضعف من عواطف المحدثين . وكانت كثرة المحدثين العددية ، والنهى الموجود عندهم عن وضع الأحاديث ، والوعيد الذى تهددهم به النبى عليه السلام . كل ذلك جعل ميدان الاختلاف أضيق فى الحديث عنه فى الأخبار والأدب .

حاول الإخباريون تطبيق نظرية الإسناد فى الأخبار والأدب ولكنهم لم ينتهوا من ذلك إلى نتيجة علمية محققة . ويرجع ذلك فيما نرى إلى جملة أسباب . نذكر منها .

أولا : طول المدة الزمنية وذلك لأن المحدثين حينما طبقوا نظرية الإسناد على رواة الأحاديث فى العهد السابق لنشأة هذه النظرية وجدوا أمامهم زمنا ليس بالطويل ، وأجيالا من الرجال ليسوا بالعديدين . فالزمن

هو العهد بين النبى عليه السلام وبين عصر الجمع والتدوين الذى بدىء به فى آخر العصر الأموى أو فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز - وهو عهد لا يتجاوز القرنين ، وهى أجيال لا تتجاوز الثلاثة فى أغلب الأحيان .

على أن المحدثين قد حاولوا رد هذه المدة الزمنية إلى ما يقرب من قرن وذلك بحرصهم على العلو فى السند وبجعلهم الصحابة جميعاً من العدول[١] .

أما رواة الأدب والأخبار فقد وجدوا أمامهم أجيالا كثيرة وقرونا متطاولة ، قد ترجع بهم لا إلى العصر الجاهلى فحسب بل إلى خلق العالم وإلى سرد قصص حول آدم وابنيه قابيل وهابيل ، وإلى رواية أشعار لهم وأخبار لمن جاء بعدهم من الأنبياء عليهم السلام .

على أنا لو وقفنا فقط عند العصور التاريخية الجاهلية والإسلامية والأموية لوجدنا أزمنة متطاولة وأجيالا من الرجال ولشعرنا بأن إقامة الإسناد عملية شاقة عسيرة إن لم تكن مستحيلة - ومن هنا نفهم لماذا وقفت السلاسل فى كتب الأدب والأخبار الأدبية فى الغالب عند الرواة الأولين الذين قاموا بالجمع وبالتدوين من أمثال أبى عبيدة والأصمعى وأبى عمرو بن العلاء ومن إليهم - وفى كتاب الأغانى صور واضحة لأخبار هذه العصور تمثل هذه الظاهرة ويستطيع من يشاء أن يرجع إليها فى قص أبى الفرج لأخبار أيام العرب ، وفى ترجمته لكثير من الشعراء من أمثال المرقش الأكبر وأعشى همدان والوليد بن عقبة وأبى قطيفة والحطيئة وتأبط شرا وعبده بن الطبيب وغيرهم .

وإذا كان لابد لنا من كلمة نقولها قبل الانتقال إلى الحديث عن سبب آخر غير هذا فإنا نقول : إنه كلما اقتربنا من عصر أبى الفرج كانت إقامة

---

(١) ٥٩ - ٦١ ، ٢١٥ ابن الصلاح .

السلاسل أيسر ، وكلما كان المترجم له قريباً من عصر أبى الفرج كان النقل أصح .

ثانياً : هناك ضرورة ثانية دعت الرواة إلى عدم العناية بالسند أو إلى إهماله فى قبول المرويات ـ هى قلة الأخبار التى تروى حول بعض الشخصيات . فلقد كانت هذه العله سبباً قوياً من الأسباب التى دفعت الرواة إلى تقبل كل ما يقال وتلقيه بالبشر والترحاب ، وذلك واضح فى ترجمة أبى الفرج لبعض الشخصيات ، فلقد كان الرجل لا يجد ما يرويه فى بعض الحالات ، وكان فى بعضها الآخر لا يجد إلا خبراً أو خبرين ـ وليس من المعقول أن يهمل أمثال هذه الأخبار وأن يشترك فى رواتها العدالة والقدرة على الضبط والتحرى . إنه فى موقف يدعوه إلى الأخذ وإلا ظلت الشخصية غامضة أو مجهولة غير مصورة ـ ونور باهت خير من ظلام دامس أو من جهالة عمياء . وإذا أردنا أن نضرب لذلك المثل أشرنا إلى هذه النصوص من كتاب الأغانى .

يقول أبو الفرج بصدد حديثه عن محمد نعجه « ولم أجد لهذا المغنى خبراً ولا ذكراً فى موضع من المواضع أذكره »(١) .

ويقول بصدد حديثه عن عبد قيس بن خفاف البرجمى « وأما عبد قيس ابن خفاف البرجمى فإنى لم أجد له خبراً أذكره إلا ما أخبرنى به قدامة ابن جعفر قال ...(٢) » .

إن قلة أمثال هذه الأخبار هى التى دفعت الرواة إلى قبولها من غير العدل الثقة ـ من الكافر المشرك ومن الأمة ومن الغلام الصغير ـ وبعبارة

---

(١) ٧/١٧٨ أغانى . ساسى .
(٢) ٧/١٥٢ أغانى . بولاق .

أخرى دفعتهم إلى تقبل كل ما يقال حتى ولو كان هذا الذى يقال من الشائعات . وفى الأغانى صور لأمثال هذا عند ترجمته لكثير من الشعراء كذى الرمة وتأبط شراً والصعاليك . بل نستطيع أن نقول إن تدوينه لأخبار أيام العرب فى الجاهلية ، ولأخبار بعض الجاهليين كان من قبيل تدوين الشائعات . ولقد نص أبو الفرج على ذلك عند ترجمته لعبد الله بن هارون بن السميدع(١) .

وإذا كان لابد لنا من كلمة نقولها أيضاً فى هذا الموقف فإنا نقول : يجب أن نحذر الشائعات فلا نبنى عليها أحكامنا التاريخية ، ويجب أن نقدر فى كل موقف نقفه قيمة كل خبر وأن نذكر دائماً الأصل القائل . الضرورات تبيح المحظورات .

ثالثاً : والسبب الذى يجب أن نعنى به فى هذا المقام هو أن الإسناد فى باب الحديث ومايترتب عليه من صحة فى النقل يلزم أمراً ويصل بالباحث إلى نتيجة ـ هى الإيمان بالحقيقة الشرعية ووجوب العمل بما تدعو إليه . ومن هنا كان حرص الأقدمين من الفقهاء على الحذر فى قبول المرويات من الأحاديث . أما فى باب الأخبار فلن يثبت تطبيق النظرية فى إحكام ودقة أكثر من صحة النقل ـ ولا شىء وراء ذلك من وجوب العمل بمقتضى ما يدعو إليه الخبر أو المروى ـ الأمر الذى نجده فى الأحاديث . ولعله من هنا كانت التفرقة بين المحدثين والإخباريين لأن الحقيقة الشرعية لا تقاس بالعقل عند أصحاب النقل من الفقهاء ، وليس ذلك إلا لأنها من الشارع الحكيم . أما الحقيقة الإخبارية فتخضع لحكم العقل والمنطق وتقاس بهما ، وليس ذلك إلا لأنها أولا وأخيراً خبر من الأخبار ، وهى شهادة من شخص

---

(١) ١١/٦ أغانى ، ساسى .

تجوز عليه الغفلة ويجوز عليه الخطأ والنسيان ـ مهما يقل فى شأنه من عدالة ومن قدرة على الضبط .

ولقد فطن بعض الإخباريين القدماء إلى هذه الفروق ووقف بعضهم عندها طويلا . وإنا لنرى ابن قتيبة يقول (حدثنى أبو الخطاب . . . عن ابن عباس قال خذوا الحكمة ممن سمعتموها منه فإنه قد يقول الحكمة غير الحكيم ، وتكون الرمية من غير الرامى ، وهذا يكون فى مثل كتابنا لأنه فى آداب ومحاسن قوم ومقابح أقوام والحسن لا يلتبس بالقبيح ولا يخفى على من سمعه من حيث كان . فأما علم الدين والحلال والحرام فإنما هو استعباد وتقليد ولا يجوز أن تأخذه إلا عمن تراه لك حجة ولا تقدح فى صدرك منه الشكوك[1]) .

ونستطيع أن نحيلك فى هذه المسألة إلى مقدمة ابن خلدون ففى الفصل الأول منها بيان واف عن هذه المسألة وأمثلة تقرر هذه الحقيقة وتطلعنا على كثير من الأخطاء التى وقع فيها كثير من المؤرخين الأقدمين .

هذه الأسباب مجتمعة ومضافا إليها ما سبق أن أشرنا إليه من تساهل المحدثين فيما هو من باب القصص والأخبار ومن تساهل الإخباريين فيما هو من باب الإمتاع والمؤانسة كل ذلك قد دفع بعض الإخباريين إلى التهاون فى إقامة الإسناد ، والاعتماد على هذه النظرية فى إيراد النصوص وفى قص الأخبار . يقول ابن عبد ربه (وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار طلباً للاستخفاف والإيجاز ، وهرباً من التثقيل والتطويل ، لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر لا ينفعها الإسناد باتصاله ولا يضرها ما حذف منها ، وقد كان

---

(١) ع مقدمة عيون الأخبار . ط . دار الكتب .

بعضهم يحذف أسانيد الحديث من سنة متبعة وشريعة مفروضة فكيف لا تحذفه من نادرة شريفة ومثل سائر وخبر مستطرف[١] .

ويذكر ابن عبد ربه عن الأصمعى ما يفيد أنه كان لا يعتمد كثيراً على نظرية الإسناد . (وروى الأصمعى خبراً فسئل عن إسناده فقال هو من الآيات المحكمات التى لا تحتاج إلى دليل وحجة[٢]) .

وكان نفطويه يقول (ما رأيت أحفظ للأخبار بغير أسانيد من المبرد وأبى العباس ابن الفرات[٣]) .

ونستطيع أن نضم إلى ما تقدم ما نعرفه عن ابن سلام والمرزبانى صاحب معجم الأدباء فقد كان كل منهما يروى الأخبار الأدبية من غير إسناد .

كان من صنيع بعض الإخباريين إيراد المرويات بغير أسانيد للعوامل المتقدم ذكرها ـ ولكن بعضهم الآخر ومنهم أبو الفرج كانوا حريصين على الإسناد .

وحرص أبى الفرج عليه واضح فى الأغانى والمقاتل لا سيما فى بعض المواطن التى يشعر فيها أبو الفرج بأن فى الإسناد نقصا ، إذ نراه يقف ليدل على هذا النقص أو يشير إليه وذلك من مثل مواقفه فى المواطن الآتية :

١ — أخبرنا أبو خليفة عن محمد بن سلام موقوفا عليه لم يتجاوزه إلى غيره[٤] .

---

(١) ٤/١ العقد الفريد . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر .
(٢) ٥ المصدر السابق .
(٣) ١٩/١١٢ معجم الأدباء . ط . رفاعى .
(٤) ٩/١٠ أغانى . ساسى .

٢ — وحدثنى به محمد بن عمران المؤدب بإسناد لست أحفظ الاتصال بينه وبين الكلبي فيه[١] .

٣ — وما وجدت هذا الشعر فى دواوين عمر بن ربيعة التى رواها المدنيون والمكيون وإنما يوجد فى الكتب المحدثة والإسنادات المنقطعة[٢].

٤ — وجدت فى كتاب الشاهينى بغير اسناد[٣].

٥ — وأخبرنى الصولى أيضا بغير اسناد[٤] .

٦ — وجدت فى بعض الكتب بغير اسناد[٥] .

٧ — ووجدته أيضا فى بعض الكتب بغير هذا الإسناد عن الأصمعى[٦] .

٨ — نسخت من كتاب محمد بن العباس اليزيدى بخطه يأثره عن خالد ابن كلثوم بغير إسناد متصل بينهما أن رجلا . . . الخ[٧] .

هذا الحرص من أبى الفرج على إيراد الأخبار والأقاصيص مسندة فى سلاسل من الرواة لا يمكن أن يعالل بأن أبا الفرج كان يرى فى الإسناد دليلا على صدق الخبر فى ذاته لأن أبا الفرج نفسه يروى قصصا فنية وأخبارا مصنوعة ويدل هو على مكان الصنعة فيها يرويها بالسند المتصل فى بعض الحالات . ثم لأنه كان يورد الأخبار أحيانا لا لقوة السند بل لتمام الأخبار .

---

(١) ١٦/٧٢ المصدر السابق .
(٢) ١٩/٥٢ المصدر السابق .
(٣) ٨/٢١ المصدر السابق .
(٤) ٩/٩٧ المصدر السابق .
(٥) ١١/٣٥ المصدر السابق .
(٦) ١٥/٥٧ المصدر السابق .
(٧) ١١/٨٧ المصدر السابق .

ومن هنا كان يعرض أو يتهاون فى شأن الأسانيد فلا يتعب نفسه بالبحث عنها كما هو الواضح من الخبر الذى حدثه به محمد بن عمران المؤدب السابق ذكره ، ومن الخبر التالى «وقد سمعت خبره من جهات عدة إلا أنه لم يحضرنى وقت كتبت هـذا الخبر غيره ، وهو وإن لم يكن من أقواها على مذهب أهل الحديث إسناداً فهو من أتمها[١] » .

شأن أبى الفرج إذاً فى إيراد الاسناد أنه كان من رواة الحديث وكان من رواة الأخبار الدينية . ولقد قلنا إن هؤلاء بعد أن فرغوا من عملية الجمع والتدوين أبقوا على الإسناد — لا لأنه يؤدى مهمة علمية أو غرضا نقدياً وإنما حرصاً على هـذه الخصيصة الشريفة التى خصت بها الأمة الإسلامية . وهذا هو الواضح من صنيعه فى كتبه .

وإذا كان لابد لنا من كلمة نقولها فى هـذا الموقف فهى أنه يجب ألا يخدعنا إيراد الأخبار مسندة فى كتاب الأغانى ، وإنما يجب علينا أن نقف عند كل خبر لنسبر غوره ونقيسه بمقياس الحقائق التاريخية — ذلك المقياس لذى أشار إليه ابن خلدون فى المقدمة والذى فصله كل من الأستاذ أسد وستم والدكتور حسن عثمان الأول فى كتابه مصطلح التاريخ والثانى فى كتابه منهج البحث التاريخى .

* * *

(د) أما الرابعة فتلك التى تخص حالات التحمل ومراتبه . والحديث عن هذه الحالات وهذه المراتب ليس إلا الحديث عن الصلات التى تكون بين الشيوخ وبين الطلاب حين يتعاونون على إيراد المرويات وتبليغها

---

(١) ١٤٠ أغانى ٠ ساسى ٠

الناس . وهو حديث لايكون من حيث ما يشترط فى الشيوخ من عدالة ، ولا من حيث ما يشترط فى الطلاب من قدرة على الضبط والتحرى ، وإنما يكون من حيث القصد فى التروية ـ أى القصد فى أن يأخذ الطلاب عن الشيوخ وأن يرووا عنهم .

والحديث عن هذا القصد يجرى فى كتب أصحاب الحديث من حيث ما يأتى :

١ — يجرى أولا من حيث الحالات التى كان عليها التحمل . فيجرى حول التحديث والإملاء والقراءة على الشيخ ، ويجرى حول المكاتبة والإجازة والمناولة ، ويجرى حول الأعلام والوصية بالكتب والوجادة ـ يجرى حول هذه الحالات لبيان مدى ما تفصح به كل واحدة منها عن القصد فى التروية .

٢ — ويجرى ثانياً من حيث المصطلحات اللغوية التى يعبر بها عن كل حالة من هذه الحالات فيبحثون عن مدلولات أخبرنا وحدثنا وسمعت وقال وذكر !! الخ .

٣ — ويجرى ثالثاً حول المرتبة التى تحتلها كل حالة من هذه الحالات السابقة من حيث القصد ـ فكل حالة يكون القصد فيها أوضح وأبين تكون أقوى وأشد ويكون الإيمان بالمرويات أوجب والعمل بمقتضاها ألزم . ومن هنا نراهم يجعلون التحديث أقوى من الإجازة . والمكاتبة أقوى من الوجادة وهكذا .

ونحن لا نريد فى هذا الموقف أن نتحدث عن هذه المسائل جميعها . لا نريد أن نقف عند كل واحدة منها لنبحثها وندرس الآراء التى تدور حولها

ونردها إلى المدارس التى فيها نشأت والمذاهب التى عنها صدرت ثم ننتهى من كل ذلك إلى ما يبين وجهة نظرنا فى هـذه المراتب من حيث هى حالات فى النقل وفى الرواية ـ حالات تدفع إلى الثقة بالمرويات وتدعو إلى الإيمان بقضاياها . لا نريد أن نفعل شيئاً من ذلك لعدة أسباب :

أولها ـ أنا ونحن جميعاً نعلم أن المذاهب الفكرية لا تنشأ فى يوم وليلة ، وأن المصطلحات العلمية لا تستقر فى لحظة وساعة ، لا نستطيع الانتهاء من هذه المسائل إلى نتائج علمية محققة ولها خطرها فى ميدان البحث العلمى إلا بعد درس هـذه المسائل جميعها من جديد ، وإلا بعد إقامة هذا الدرس أساس من البحث التاريخى .

لابد لنا أولا من درس الرواية والرواة . درس كيف نشأت الرواية وكيف عبد الرواة الأولون طريقها ويسروا سبلها ووضعوا الأسس التى قامت عليها الغالبية العظمى مما نرى فى كتب أصحاب علوم الحديث من قواعد وتقاليد .

لابد لنا من درس الآراء الكثيرة فردية وجماعية ، ولابد من درس المذاهب والمدارس فى البيئات المختلفة كيف نشأت ؟ وكيف نمت وترعرعت وكيف تسلطت فدفعت بالباحثين إلى لون معين من التفكير وإلى لون بذاته من القيم تقاس به المرويات وتوزن ؟

لابد لنا من هذا الدرس وإلا عجزنا عن تفسير كثير من الظواهر وقعدنا حيارى أمام كثير من المسائل . وأنى لنا أن نفسر ذهابهم إلى أن المسموعات أقوى من المكتوبات وأن التحديث أفضل من المكاتبة بل أفضل من القراءة على الشيخ دون أن نفهم النشأة الأولى للرواية وكيف كانت وسيلتها السماع وأداة ضبطها هى الحفظ .

لقد كانت الأمة أمية ولم يكن لها من وسيلة غير ما تقدم ، وظل الحال على هذا سنين متطاولة حتى انتصرت الكتابة وحتى أصبحت وسيلة الضبط فى الرواية يجرى القوم عليها كما يجرون على السماع والحفظ . لكن بقى لهذين السلطان ، وظل القوم يفضلون السماع أو يفضلون التحديث على المكاتبة - وليس لهذا التفضيل من تعليل أو تفسير إلا بفهم هذه النشأة وبالوقوف على هذه التقاليد .

إن التقاليد وحدها هى التى تفسر لنا هذه المسائل ، ولا نستطيع فهم هذه التقاليد إلا بعد درس الرواية والرواة على أساس من البحث التاريخى - الأمر الذى يحتاج إلى بحوث وإلى تضافر جهود ولا تنفع فيه الفقر أو الفقرات . ومن هنا كان إعراضنا عن هذه البحوث فى هذا المقام .

ثانياً — أنا مع تسليمنا ولو على سبيل الفرض الجدلى بصحة ما يذهب إليه الأقدمون من أصحاب علوم الحديث من تصوير للرواية والرواة وللمدارس والمذاهب وللبيئات الحجازية والكوفية والشامية . إلخ . . . لا نستطيع أن نعتمد على بحوثهم فى هذا المقام . لأنها بحوث نشأت عند المحدثين ولم تنشأ عند الإخباريين وتقاليد أولئك غير تقاليد هؤلاء . ومن هنا لا تكون هذه الدراسات أو الاعتماد عليها منتجة فى هذا المقام .

نعم نحن لا ننكر أنها الدراسات التى قامت حول النقل وصحته ، وأن هذه الدراسات لا غنى عنها فى ميدان الأخبار من حيث هى وسائل للنقل . ولكنا نعلم أن هذه الوسائل حين تكون الحالات والمراتب تكون قليلة النفع عديمة الجدوى وخاصة فى ميداننا هذا .

إن الإيمان بالمرويات ووجوب العمل بمقتضياتها فى ميدان الحديث إنما يجىء من صدورها عن الشارع الحكيم . عن الذى لا ينطق عن الهوى .

وعمن قوله لا يجيئه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - حتى ولو لم يخضع هذا المروى لحكم العقل وقواعد المنطق عند أصحاب الرواية من الفقهاء والمشرعين .

ومن هنا تكون صحة النقل ضرورة من الضرورات . ومن هنا تكون المفاضلة بين المرويات . ومن هنا تجىء المراتب ويكون لكل مرتبة حكمها . وتجرى الأمور فى هذا الميدان على أساس أنه كلما تأكدت صحة النقل زادت الثقة بالمروى ووجب الإيمان به والعمل بمقتضاه .

أما فى ميدان الأخبار فلا شىء من ذلك . لأن الأخبار إنما تصدر عن غير الشارع الحكيم . تصدر عن الذى قد ينطق عن الهوى وقد يجىء حديثه الباطل من بين يديه أو خلفه . ومن هنا لم يجب الإيمان بالمروى حتى تثبت صحة النقل . ومن هنا كانت للإخباريين مقاييس أخرى التفت ابن خلدون إلى بعضها ودرس كل من أســد رستم والدكتور حسن عثمان كثيراً منها كما سبق أن أشرنا . ومن هنا لا تجد الحديث عن المراتب والحالات فى هذا المقام جليل النفع عظيم الخطر .

ثالثاً — إنا لم نعقد هـذه الفقرة إلا لبيان الخصائص والتقاليد التى كان يجرى عليها أبو الفرج فى مروياته من حيث هذه الحالات والمراتب . ومن هنا يجب أن نقف عندها وأن نعنى بهـا ، فإن خرجنا فإلى ما يفسر ظاهرة أو يوضح قاعدة - ما دام أبو الفرج قد جرى على أساليب المحدثين فى إيراده للأخبار . أما أن نمضى بعد ذلك فنحكم على هـذه المرويات بالصدق وتلك بالكذب والوضع لأن هذه وسيلتها التحديث وآلة ضبطها هى الحفظ وتلك وسيلتها المكاتبة وآلة ضبطها هى الكتابة ، أو لأن هـذه فى المرتبة الأولى وتلك فى الثالثة فأمر خارج عن عملنا .

ابو الفرج من الإخباريين الذين يذهبون مذهب المحدثين فى الرواية وأوضح خصائص هذا المذهب إنما تظهر عند أبى الفرج من دقته فى تصويره للحالات التى قامت عليها رواية الأخبار ، ومن حرصه فى بيان القصد فى الرواية . وتلك الدقة وهذا الحرص إنما يظهران بوضوح من النصوص التالية .

١ — حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد على سبيل المذاكرة فحفظته عنه لم أكتبه من لفظه والحديث يزيد وينقص والمعنى واحد . . . (٤٠٨ مقاتل)

٢ — فحدثنى على بن ابراهيم العلوى عن نفسه أو رواه عن غيره أنا أشك قال . . . (٤٥٩ مقاتل) .

٣ — حدثنا محمد بن العباس اليزيدى على سبيل المذاكرة قال . . . (٣٣٨ مقاتل) .

٤ — وحدثنى بعض أصدقائنا عن أبى بكر بن دريد ولم أسمعه منه قال . . . (١٥/١٥٠ أغانى ساسى) .

٥ — أخبرنى عبد الله بن الربيع أبو بكر الربيعى صديقنا رحمه الله قال حدثنى وسواسة بن الموصلى وقد لقيت وسواسه هذا وهو أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم وكان معلماً ولم أسمع هذا منه فكتبته وأشياء أخرى عن أبى بكر رحمه الله . . . (٦/١٥ أغانى ساسى) .

٦ — أخبرنى عمى والحسن بن على ومحمد بن يحيى وجماعة من أصحابنا وأظن أيضا جحظه حدثنا به قالوا . . . (١٥/٩٨) .

٧ — حدثنا محمد بن جرير . قرأته عليه . قال . . . (٦/٩٧) .

٨ — وأخبرنى أبو خليفة فيما كتب به إلى عن محمد بن سلام . . . (١١/٧٥) .

٩ — أخبرنى جعفر بن محمد بن عبيد بن عتبة فى كتابه إلى قال . . . (١٥/١٢١) .

١٠ — كتب إلى على بن العباس المقانعى قال . . . (٤٨٤ . مقاتل)

١١ — أخبرنى أبو جعفر أحمد بن محمد بن نصر الضبعى أجازة قال . . (١١/٢٩ أغانى . ساسى) .

١٢ — أخبرنى محمد بن يزيد أجازة عن حماد بن اسحاق . . . (١/١٤٨)

١٣ — قال الزبير بن بكار فيما أجاز لنا الحرمى بن أبى العلاء والطوسى روايته عنهما مما حدثا به عنه . . . (١١/٥٢) .

١٤ — نسخت من كتاب أبى عبد الله اليزيدى ولم أقرأه عليه قال . . . (١١/٩٤) .

١٥ — ونسخت من كتاب أحمد بن الحرث الخراز ذلك ولم أسمعه إلا أن عيسى بن الحسين دفع الكتاب الذى نسخت هذا منه إلى وقال لى هذا كتاب أحمد بن الحرث . . . (٣٩٠ ، ٣٩١ مقاتل) .

١٦ — نسخت من كتاب لمحمد بن داوود الجراح خبره ذكر أن عبد الله بن سليمان السجستانى دفعه إليه وأخبره أنه سمعه من عمر بن شبه وأجاز له روايته . . . (٢٠/١٥٩) .

١٧ — نسخت من كتاب أحمد بن الحرث مما أجاز لى أبو أحمد الحريرى روايته عنه . . . (٤/٨٠) .

١٨ — نسخت خبره فى ذلك من كتاب محمد بن الحسن بن دريد ولم أسمعه منه قال . . . (١٧/١٠٧) .

١٩ — فمن ذلك نسخت من كتاب أعطانيه أبو الفضل العباس بن أحمد ابن ثوابه رحمه الله بخط اسحاق فى قرطاس وأنا أعرف خطه وجواب لابراهيم بن المهدى . . . (٩/٦٩) .

٢٠ — ونسخت من كتاب لاسحاق بن ابراهيم الموصلى فيه اصلاحات بخطه والكتاب بخط النضر بن حديد من أخبار عبد الله بن الزبير وشعره . . . (١٣/٤٢) .

٢١ — أخبرنى بخبرها محمد بن إبراهيم قريض أن ابن المعتز دفع إليه كتابه الذى ألفه فى أخبارها وقال له أن يرويه عنه فنسخت منه ما كان يصلح لهذا الكتاب على شرطى . . . (١٤/١٠٥) .

٢٢ — نسخت من كتاب جدى لأمى يحي بن محمد بن ثوابه بخطه . . . (٨ ، ١٣/٣٢) .

٢٣ — نسخت من كتاب لأبى العباس بن ثوابه بخطه ... (١٧/١٣٧)

٢٤ — ونسخت من كتاب للشاهينى بخطه . . . (٢٠/١٦٢) .

٢٥ — وجدت فى كتاب على بن محمد بن نصر عن جده حمدون ابن اسماعيل ولم أسمعه من أحد أن ابراهيم بن المهدى . . . (٦/١٤) .

٢٦ — ووجدته فى بعض نسخ الكوفيين عن سليمان بن الربيع . . . (١٦/٩٣) .

٢٧ — ووجدت فى كتاب مؤلف فى النغم غير مسمى الصانع . . . (٨/٤٤) .

٢٨ — وجدت ذلك فى كتاب محمد بن عبد الله الحـــزنبل . . . (٢٠/١٧٤) .

٢٩ — ونسخت هذا الخبر أيضا من بعض الكتب . . . (١٦/١٦٣) .

٣٠ — ونسخت بعضه من كتاب منسوب إلى الهيثم بن عدى . . . (١/١١) .

ولو مضينا فى سرد المرويات التى يحرص أبو الفرج فى روايتها على بيان الحالات والمراتب والتى يكثر فيها من القيود ليكون البيان واضحا والوصف دقيقا لما انتهينا إلا بعد المئات من الصفحات ، ولعل فى الأمثلة السابقة ما يرينا مدى عناية أبى الفرج بهذه الحالات والمراتب ، وبتطبيقه لأسلوب المحدثين فى الرواية .

وإذا كان هناك من كلمة ننصح بها القارىء فهى أنه يجب أن يضع نصب عينيه دائما أن تطبيق أبى الفرج لأساليب المحدثين فى روايته للأخبار لا يعنى دائما أن أبا الفرج كان يصنع ذلك ليضع بين يدى القارىء لكتبه أنواعا من السلاسل وألوانا من الأسانيد يستطيع أن يفاضل بينها حتى يصل إلى الحقيقة . فأبو الفرج إنما يفعل ذلك لأن هذه كانت التقاليد التى يجرى عليها بعض الرواة . وهى التقاليد التى جاءته من اشتغاله أول عهده بالحياة برواية الحديث . ويقف أبو الفرج من كل هذا عند هذا الحد . وليس أدل على ذلك من أنه يروى النوادر المصنوعة على طرق المحدثين مع إيمانه بأنها نادرة مصنوعة يقصد منها إلى الاضحاك وإلى الامتاع والمؤانسة . وذلك هو الذى كان من جحظه مع ابن القصار فإنا نرى أبا الفرج يقول « ومن طيب ما ثلبه به جحظه وتنادر عليه به . وأراها مصنوعة أنه . . . »(١) وغيرها كثير .

---

(١) ١٢/١٦٠ أغانى . ساسى .

والألفاظ الاصطلاحية التى يعبر بها أبو الفرج عن الحالات والمراتب كثيرة وهى واضحة بينه وليس منها ما يحتاج إلى مزيد من البيان غير «أخبر» فانها التى كانت تستعمل فى ذلك الوقت استعمالات غير التى جرى بها العرف العام عند المحدثين فيما بعد . ونستطيع أن نعرض الآن بعض هذه الألفاظ .

ونبدأ من ذلك بما يجعلونه من المرتبة الأولى وهى حالات التحديث والإملاء وأبو الفرج يستعمل فى ذلك حدث مضافة إلى ضمير المفرد أو ضمير الجمع . ولاتدل حدث فى كل مرة على القصد فى الترويه فقد تكون فى بعض الحالات معبرة عن السماع فقط . وذلك هو الواضح من تحديث أبى الفرج عن غير الشيوخ من الرواه من أمثال العباس بن أحمد بن ثوابه(١) وحكيم ابن يحيى(٢) أولئك الدين كان يروى عنهم أخبار الأحداث التى شاهدوها بأنفسهم . كما قد تكون معبرة عن التلقى ويكون إلى جانبها صيغة أخرى تدل على الحالات والمراتب من مثل قوله حدثنا محمد بن جرير الطبرى قرأته عليه قال(٣) . .

وقد يعبر عن التحديث بصيغة سمع كما هو الحال فى قوله . فسمعت بعض مشايخنا من الكوفيين يذكر وهو محمد بن الحسين(٤) . .

أما أخبر مضافة إلى المفرد والمجموع فيعبر بها أبو الفرج عن حالات القراءة على الشيخ وعن المكاتبات والأجازات .

---

(١) ١٨/١٧٠ المصدر السابق .

(٢) ٦٩٨ مقاتل . مصر .

(٣) ٦/٩٧ أغانى . ساسى .

(٤) ٦٤٥ مقاتل . مصر .

وقد كان أبو الفرج يعتمد فى بعض الأحيان على القيود اللفظية لبيان الحالات ـ أجازات ومكاتبات . وان كنا لا نستطيع أن نقول إن تلك كانت عادته فى كل خبر يرويه فلم يكن من دأبه أن يقول أخبرنى فلان فيما أجاز لنا أن نرويه عنه ، أو أخبرنا فلان أجازة ، أو أخبرنى فلان فيما كتب به إلى . . الخ . ولعله كان يترك ذلك اعتمادا منه على فهم القارىء للصلة بينه وبين الشيخ الذى يروى عنه . وذلك هو الواضح من تلك المرويات التى يرويها عن أبى الفياض سوار بن أبى شراعه فقد كانت الوسيلة إليها المكاتبات بين أبى الفرج وهو ببغداد وأبى الفياض وهو بالبصرة . وقد دل أبو الفرج على هذا حين ترجم لأبى شراعه(١) واكتفى بذلك وأخذ يذكر فى مروياته عن أبى الفياض هذا أخبرنا أبو الفياض من غير هذه القيود اللفظية(٢) .

واستعمال أخبر فى الإجازات من غير قيد يدل على هذا كان معروفا فى ذلك الوقت وكان يجرى عليه بعض الشيوخ من الرواة . جاء فى مقدمة ابن الصلاح (وكان الحافظ أبو نعيم الأصبهانى صاحب التصاريف الكثيرة فى علم الحديث يطلق أخبرنا فيما يرويه بالاجازة . روينا عنه أنه قال : أنا إذا قلت حدثنا فهو سماعى وإذا قلت أخبرنا على الاطلاق فهو إجازة من غير أن أذكر فيه إجازة أو كتابة أو كتب إلى أو أذن لى فى الرواية عنه .

وكان أبو عبد الله المرزبانى الاخبارى صاحب التصانيف فى علم الخبر يروى أكثر ما فى كتبه أجازة من غير سماع ويقول فى الاجازة أخبرنا ولا يبينها(٣) .

---

(١) ٣٥/٢٠ أغانى . ساسى .
(٢) ١٨/١٤٣ ، ١٩/١٢٤ المصدر السابق .
(٣) ١٦٣ ابن الصلاح .

أما استعمال أخبرنا فى القراة على الشيخ فهو الشائع المشهور عند الرواة حتى لقد قيل بأن أخبرنا قد خصصت بهذه الحالة من حالات التحمل . جاء فى مقدمة ابن الصلاح « قلت وكان هذا كله قبل أن يشيع تخصيص أخبرنا بما قرىء على الشيخ(١) » . وجاء « وذكر صاحب كتاب الانصاف محمد ابن الحسن التيمى الجوهرى المصرى أن هذا مذهب الأكثر من أصحاب علوم الحديث الذين لا يحصيهم أحد ، وأنهم جعلوا أخبرنا علما يقوم مقام قائله أنا قرأته عليه لا أنه لفظ به لى(٢) » .

أما ذكر وقال فلا تدل على لقاء ما بين الشيخ والطالب ولا على قصد فى الترويه ، وتستطيع أن ترجع إلى كتاب الأغانى فترى ذلك واضحا بالنسبة إلى كل منهما(٣) .

أما غير ذلك من المصطلحات من أمثال كتب إلى وقرأت عليه وأنشدنى ومن أمثال حديثه عن الكتب حين يكون الاخذ منها فمن الوضوح والبيان بحيث لا تحتاج منا إلى وقفة نبين فيها دلالتها على تلك الصلات التى تكون بين الشيوخ والطلاب من حيث الدلالة على القصد فى الترويه ولبيان المراتب والحالات .

* * *

(هـ) أما المسألة الخامسة والأخيرة من مسائل التحمل فتلك التى تخص التصحيح . ونقصد به فى هذا الموطن تصحيح السماع أو تصحيح النقل وهو

---

(١) ١٤١ المصدر السابق .

(٢) ١٤٣ المصدر السابق .

(٣) راجع ١١٥/١٠ ، ١٤٣/١١ ، ١٧/٦ وراجع ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤/١٠ أغانى . ساسى .

أن تجىء المرويات صورة طبق الاصل مما صدر عن الشيخ فى حالة السماع ، ومما هو فى الكتاب فى حالات المكاتبة والوجادة . . . الخ .

أما تصحيح الاخطاء لغوية أو فكرية فله محله من البحث عند حديثنا عن مرحلة الاداء .

والتصحيح بالمعنى الذى نريده فى هذا الموطن إنما يكون بعد التحمل مباشرة . هذا هو الذى ينص عليه أصحاب علوم الحديث . جاء فى مقدمة ابن الصلاح « وإذا نجز الاملاء فلا غناء عن مقابلته وإتقانه واصلاح مافسد منه بزيغ القلم وطغيانه[١] » . كما أنه الذى يفهم من هذا النص من نصوص الأغانى : وحدثنى أحمد بن عبيد الله بن عمار قال كنا نختلف إلى أبى العباس المبرد ونحن أحداث نكتب عن الرواة ما يروونه من الآداب والأخبار ، وكان يصحبنا فتى من أحسن الناس وجها وأنظفهم ثوبا وأجملهم زيا ولا نعرف باطن أمره ، فانصرفنا يوما من مجلس أبى العباس المبرد وجلسنا فى مجلس نتقابل بما كتبناه ونصحح المجلس الذى شهدناه فإذا بجاريه . . . الخ[٢]) .

وتصحيح أبى الفرج لمروياته غير منصوص عليه وإن يكن الأمر الثابت الذى لا يقبل جدلا . وسنجد فى الفقرة التالية أن مرويات أبى الفرج عن كل من ابن جرير . وأبى خليفة عن ابن سلام . والأخفش واليزيدى عن المفضليات ليست إلا صورة طبق الأصل لما ورد فى تاريخ ابن جرير وفى طبقات الشعراء وفى المفضليات من مرويات .

ونترك التحمل بمسائله إلى أمر آخر له خطره فى الرواية وهو الضبط .

---

(١) ٢٠٩ ابن الصلاح .

الفصل الثالث

الضبط

والقدرة على الضبط شرط أساسى فى الراوية وإلا ردت مرويات الراوى[1] وأصبح غير أهل للأخذ عنه . وأصبحت مروياتة غير أهل للاعتماد عليها فى ميادين التشريع والأخبار والآداب .

والضبط هو ضبط المتلقى أو المروى وذلك بالمشافهة الحافظة أو بالكتابة المقيدة . والوسيلة الأولى وهى الحفظ أقدم الوسيلتين لأنها بنت البيئة ونتاج الحياة ، ولن يكون غير الحفظ وسيلة فى البيئات الأمية التى لم تنل من العلم حظا ومن المعرفه نصيبا .

والحفظ أكبر الوسيلتين حظا من حيث العناية والرعاية التى ينالها من الرواة ، ومن أصحاب علم الرواية ، حتى لنرى منهم من يرى أن الرواية لا تكون إلا عن محفوظ[2] . ومن يرى أنه إذا وجد الحافظ فى كتابه خلاف ما يحفظه اعتمد فى الاملاء على حفظه دون الكتاب ما دام قد حفظ من فم المحدث[3] ولعله من هنا عاب بعضهم أبا الفرج بأنه ينسخ من الكتب ويأخذ عن الوراقين[4] .

واعتماد الأقدمين للحفظ فى عملية الضبط جعلهم يبحثون الحياة العقلية

---

(١) ١٥٨ الكفاية فى علم الرواية للخطيب .
(٢) ١٦٩ مقدمة ابن الصلاح .
(٣) ١٨٨ المصدر السابق .
(٤) ١١/٣٩٩ تاريخ بغداد . للخطيب .

للراوى وإلى أى حد يتأثر بها حفظه . ورتبوا على ذلك أحكاما . فردوا حديث أهل الغفلة(١) وقالوا بأن السىء الحفظ لا يعتد من حديثه إلا بما رواه عن أصل كتابه(٢) وتركوا الاحتجاج بمن كثر غلطه وكان الوهم غالباً على روايته(٣) . وتجادلوا فى سماع من كان ينسخ وقت القراءة(٤) وليس يخفى حال من به خرف أو أصابه مس من الجنون .

وكبر السن له حكمه كما للصغر حكمه أيضاً . وإذا كنا قد تحدثنا عن الصغر فى أول الفصل السابق فإنا نثبت هنا حال الكبر كما هو مصور عند الباحثين فى أمر الرواة من اللغويين ، إذ نراهم يقولون : ومن آداب اللغوى أن يمسك عن الرواية إذا كبر ونسى وخاف التخليط(٥) .

والقدرة على الضبط لم يصبح شرطا أساسيا فى الرواية إلا بعد أن أصبحت الرواية علما له أصوله ورسومه — أى إلا بعد العصر الأموى تقريبا . ومركزها من هذه الناحية يشبه مركز العدالة تماما ، فهى أيضا لم تكن من الصفات التى تشترط فى الراوية حتى أصبحت الرواية علما تناقش مسائله ، وتنقد قواعده ، وتدور المجادلات فيه على ما يجوز وما لا يجوز . وإذا كان حماد فيما يذكر ابن سلام أول من جمع أشعار العرب وأحاديثها(٦) . فإن الأمر الذى يترتب على هذا هو أن مرويات العصر الجاهلى وعصر صدر الإسلام وعصر بنى أمية إلا قليلا قد رويت قبل أن تصبح العدالة ويصبح

---

(١) ١٤٧ الكفاية فى علم الرواية .

(٢) ٢٢٣ المصدر السابق .

(٣) ١٤٣ المصدر السابق .

(٤) ٦٦ المصدر السابق .

(٥) ٢/٣٣٥ المزهر للسيوطى . الأخير .

(٦) ١٤ طبقات الشعراء . ط . ليدن .

الضبط من الشروط الأساسية التى يجب توافرها فى الراوى حتى يوثق به ويطمئن إلى مروياته . ولعله من هنا كثر الخلط الاضطراب فى مرويات هذه العصور . واختلاف الروايات فيما يتعلق بأيام العرب يعطينا صورة من هـذا الخلط(١) الشنيع . ولقد عرض نولدكه لبعض الألوان من هذا الاضطراب فى كتابه أمراء غسان ووقف من ذلك عند صور كثيرة وردت فى كتاب الأغانى(٢) .

والأمر الذى يحسن بنا أن نلتفت إليه فى هذا الموقف هو أن نفرق بين أمرين من مرويات أبى الفرج .

الأمر الأول : أمر أخذه عن الشيوخ . فهل كان يتحرى فيهم الشروط الأساسية ومنها القدرة على الضبط أولا ؟ وكذلك الحال فيما يختص بالكتب التى ينسخ منها وفى أصحابها .

الأمر الثانى : أمره هو نفسه وإلى أى حد كان يعتبر من الضابطين .

أما مسألة الشيوخ فيظهر لنا أن أبا الفرج كان يأخذ عنهم دون أن يشترط فى ذلك شروطا معينة بخاصة عند ما ينفردون بلون من الأقاصيص والأخبار . وليس ذلك إلا لأنه كان يقصد إلى الجمع - جمع كل ما قيل ولو كان من المصنوعات والأكاذيب . يقصد إليه لا لأنه راوية والعمل الأول للرواة هو الجمع بل لأنه كان يقصد فى بعض كتبه أو فى بعض مروياته إلى الإمتاع والمؤانسة — وقد يكون فى الأكاذيب ما يمتع وفى المصنوعات ما يؤنس ويدخل السرور إلى القلوب . ومن هنا كان يأخذ أبو الفرج عن

---

(١) راجع يوم ذى قار ٢٠/١٣٢ أغانى ، ٢/٦٣٨ نقائض .

(٢) راجع ٢٠ ، ٢٢ — ٢٤ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ من الترجمة العربية لكتاب أمراء غسان .

الكذبة الوضاعين وعن غير الضابطين . يأخذ عن محمد بن مزيد بن أبى الأزهر وقد كان كذابا قبيح الكذب ظاهره(١) ويأخذ عن الباغندى وقد كان مدلسا(٢) . ويأخذ عن محمد بن خلف بن وكيع القاضى وقد كان فيه لين(٣) ويأخذ عن الطوسى وقد تكلموا فى روايته كتاب النسب عن الزبير بن بكار(٤) . ويأخذ عن أحمد بن محمد بن سعيد وقد ضعفوه واتهمه بعضهم بالكذب(٥) . ويأخذ عن أحمد بن جعفر جحظة وقد اتهمه هو نفسه بوضع النوادر(٦) ويأخذ عن الصولى وقد كان ينقل الكتب وينتحلها(٧) يأخذ عن كل هؤلاء ويكثر من الأخذ عن بعضهم وهم فيما نرى من غير العدول .

ثم هو يأخذ عن كتب ابن خرداذبه(٨) . وهو نفسه يتهم ابن خرداذبه بأنه قليل التصحيح لما يرويه . ويأخذ عن ابن دريد وقد كان إخوانه ينصرفون عنه لكثرة تخليطه من شدة السكر(٩) . ولا نريد أن ندلل على أخذه من الذين ينقلون أقوال من يخلط من أمثال المجنون ومان الموسوس ويحيي المكى وأبى العبر الهاشمى فلقد ترجم لهم أبو الفرج جميعا وذكر فى ترجمته لهم من الصفات العقلية ما يدل على أنهم من المخلطين أو من غير الضابطين .

---

(١) ٢٨٨ — ٣/٢٩١ تاريخ بغداد .
(٢) ٢١٣ المصدر السابق .
(٣) ٢/٢٤٩ شذرات الذهب .
(٤) ٢٦٤ المصدر السابق .
(٥) ٣٣٢ المصدر السابق .
(٦) ١٢/١٦٠ أغانى . ساسى .
(٧) ٢١٥ الفهرست لابن النديم .
(٨) ٥/٣ ، ١٠/١١٥ ، ١١/١٢ أغانى . ساسى .
(٥) ١٧/١٣١ معجم الأدباء .

وأبو الفرج ينقل عن كتاب حبشي وهو الذى يقول عنه فى بعض المواطن إنه رجل لا يحصل ما يقوله ويرويه[١] . ثم هو الذى يقول بعد إيراده لأخبار عدى بن زيد « قال مؤلف هذا الكتاب إنما ذكرت الخبر الذى رواه الزيادى على ما فيه من التخليط لأنى إذا أتيت بالقصة ذكرت ما يروى فى معناها ، وهو خبر مختلط لأن عدى بن زيد إنما كان صاحب النعمان بن المنذر . . . إلخ »(٢) . وهو قول يدل على ما كان يذهب إليه أبو الفرج فى إيراده للمرويات من إيراد المختلطات والمصنوعات والأكاذيب .

أبو الفرج راوية يهمه كما قلنا الجمع . الجمع أولا وقبل كل شيء — فإن عمد إلى التعقيبات والتصحيحات فهو الأمر الذى يقصد إليه ليدل على أنه ليس راوية فحسب فى كل المواطن ، وإنما هو من الرواة الذين يقفون فى بعض المواطن للاجتهاد والتصحيح .

هذه حال أبى الفرج مع الشيوخ الذين يأخذ عنهم ، ومع الكتب التى ينسخ منها أو ينقل عنها .

أما حاله فى نفسه فقد كان القدماء يوثقونه(٣) . ولا يذكرون له من عيب إلا أنه قد خلط قبل أن يموت(٤) .

ووسائل الضبط عند أبى الفرج الحفظ(٥) . والكتابة(٦) وكانت الكتابة أبرز وأشهر — وليس يخفى أنه كان من الكاتبين فى ديوان الوزير المهلبى .

---

(١) ٣/١٩ أغانى . ساسى .
(٢) ٢/٣٣ المصدر السابق .
(٣) ١١/٤٥٠ تاريخ بغداد .
(٤) المصدر السابق .
(٥) ٢١/١٠٦ أغانى . ساسى .
(٦) ٢٩٠ — ٢٩٥ مقاتل . بغداد .

وأبو الفرج حين يحفظ كان يؤدى المعانى فى بعض الأحيان وقد كان ينص على ذلك وهذا هو أحد هذه النصوص « حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد على سبيل المذاكرة فحفظته عنه لم أكتبه من لفظه والحديث يزيد وينقص والمعنى واحد[1] » .

وإذا كان من حقنا أن نذكر رأينا فى قدرة أبى الفرج على الضبط فإنا نستطيع أن نقول — بعد مقابلتنا بين مروياته فى كتبه وبين مرويات من أخذ عنهم من الشيوخ من الذين وصلت إلينا مروياتهم — أنه كان من الضابطين . وضح لنا ذلك من مقابلتنا بين ما أخذه عن أبى خليفة عن ابن سلام وما جاء فى كتاب الطبقات لابن سلام . ونستطيع أن نجد ذلك فى هذه المقابلات .

١ — قول يونس بن حبيب فى كل من الفرزدق وجرير ٧/٣٦ أغانى ، وفى ٧٥ طبقات ليدن .

٢ — قول الأسيدى فى ٣٦ ، ٧/٣٧ أغانى ، وفى ٨٧ طبقات .

٣ — قول بشار المرعث فى ٧/٣٨ أغانى ، وفى ٨٦ طبقات .

٤ — قول العلاء بن جرير ٧/٦٠ أغانى ، وفى ٨٦ طبقات .

ولعل النص الكبير الواضح فى هذه المقابلات هو ذلك النص الأدبى الذى يصف فيه أبو زبيد الطائى الأسد عند عثمان — ذلك النص الذى ورد فى ٢٣ ، ١١/٢٤ أغانى . وفى ١٣٢ — ١٣٤ طبقات إذ فيه نرى قدرة أبى الفرج على الضبط .

---

(١) ٢٧٢ المصدر السابق .

ووضح لنا ذلك أيضا من المرويات التى أوردها فى كتبه عن ابن جرير الطبرى لاسيما تلك التى تخص الغزوات — فإنها صورة مطابقة لما فى الطبرى من أخبار حول هذة الغزوات(١) .

ووضح لنا ذلك أخيراً من المرويات التى تخص أيام العرب وكان رواتها هم فى كل من الأغانى وكتاب النقائص — من أمثال تلك التى جاءت عن يوم شعب جبلة(٢) .

أبو الفرج من الضابطين وإن تكن مروياته فى كتبه لم تؤخذ جميعها عن الضابطين .

---

(١) راجع ٤/١٧٠ وما بعدها أغانى دار الكتب ، ١٢٩٥ وما بعدها من القسم الأول طبرى ثم راجع ٢٢٤ — ٤/٢٣٠ أغانى دار الكتب ، ١٤٣٢ وما بعدها طبرى .

(٢) ١٠/٣٣ أغانى . ساسى ، ٢/٦٥٤ نقائض .

الفصل الرابع

مرحلة الأداء

سبق أن أشرنا إلى بعض المسائل التى نستطيع أن نعد الحديث عنها من مسائل مرحلة الأداء وذلك من مثل حرص أبى الفرج على الاسناد — وبخاصة إذا كانت هناك بعض العيوب ، كأن يكون السند موقوفا على شيخ بعينه لا يتجاوزه إلى غيره . ومن مثل حرص أبى الفرج على الإفصاح عن حالات التحمل ومراتبه — وبخاصة إذا كان هناك ضعف أو وهن ، كأن يكون المخبر أو المحدث قد أخبره أو حدثه من حفظه فى حالة المذاكرة . وهى مسائل مشروحة فى الفصول الأولى من هذا الباب .

والآن نريد أن نقف عند بعض المسائل التى توضح لنا التقاليد التى كان يجرى عليها أبو الفرج فى الأداء .

وقبل أن نبدأ الحديث عن هذه المسائل نحب أن نشير إلى مسألة قد تكون من مسائل السند ولكنها المسألة التى تتصل اتصالا كليا بالأداء — وتلك هى رواية النسخة المشهورة المشتملة على أخبار باسناد واحد ، فإن رواية أمثال هذه النسخ قد يجرى على تقاليد يجيزه أصحاب علوم الحديث . وهو تقاليد قد يدفع بالقارىء الذى لم يعرف من اجازة المحدثين شيئا إلى الظن بالرواة واتهامهم بالتدليس .

يذهب أصحاب علوم الحديث إلى أنه يجوز لراوى النسخة المشهورة المشتملة على أخبار باسناد واحد أن يسلك أحد سبيلين .

الأولى أن يكتفى بذكر الاسناد فى أول النسخة وعنـــد أول حديث أو خبر منها .

والثانيـة تفريق الأحاديث والأخبار ورواية كل حديث منها بالاسناد المذكور فى أولها(١).

كان أبو الفرج من الذين يروون فى بعض المواطن أخباراً تعتبر من قبيل رواية النسخة الواحدة ، وكان أبو الفرج يذكر الإسناد فى أول خبر ثم يورد المرويات كما أملاها أو قيدها صاحب النسخة وبالحالات التى كان يأخذها بها أو يتحملها عليها . ومن ذلك إيراده لأخبار جميلة فإن أبا الفرج إنما يروى من أخبارها ما جمعه اسحاق وغيره ولـكنه حين يروى ما جمعه اسحاق عن الحسين بن يحيى لحماد بن اسحاق فاسحاق يصور الحالات كما أثبتها اسحـاق فيقول حدثنى بعض أهلنا(٢) . حدثتنى عمتى(٣) . حدثنى أبو أيوب(٤) . وهكذا .

هـذا التصوير أو هـذا التقليد لم يفطن إليه بعض الناشرين ومن هنا رأيناهم يضعون حـدث بينَ الأقواس التى يوضع بينها من هذه الألفاظ الاصطلاحيه ما يدل على أن أبا الفرج هو القائل لهذه الألفاظ — وفى ذلك من اتهام أبى الفرج بالتدليس أو الإيحاء باتهامه بالتدليس ما فيه . ذلك لأن قارىء الـكتاب قد يعتقد أن أبا الفرج قد حدث عن رجال لم يلقهم ولم يأخذ عنهم ، وهو أمر لا نعتقد أن أبا الفرج قد وقع فيه .

* * *

---

(١) ١٩٧ مقدمة ابن الصلاح .
(٢) ٧/١٣٩ أغانى . ساسى .
(٣) ٧/١٣٣ المصدر السابق .
(٤) ١١٨ ، ٧/١٤٠ المصدر السابق .

ننتقل الآن إلى بعض المسائل التى نريد الحديث عنها فى هذا الفصل .

(ا) والمسألة الأولى التى يحسن بنا أن نقف عندها هى مسألة تصنيف المرويات . وهى مسألة لها أهميتها الخاصة لأنها سبيلنا إلى توضيح البواعث التى دفعت بأبى الفرج إلى أن يكون راوية أكثر منه مؤرخا . كما أنها سبيلنا إلى إيضاح ما سبق أن أشرنا إليه فى المقدمة من تلك العيوب التى تلحق البحوث العلمية حين يعمد المؤلفون إلى التقسيم والتبويب قبل جمع المواد والكشف عن الحقائق .

وأبو الفرج يجرى فى تصنيف المرويات على أساس الموضوعات لا على أساس المسانيد . وهى موضوعات يحددها فى مقدمات كتبه كما هو الحال فى كتاب الأغانى وكتاب مقاتل الطالبيين .

وموضوعات أبى الفرج التى تدور حولها المرويات هى الأشخاص : أشخاص المقتولين من آل أبى طالب فى كتاب المقاتل . وأشخاص الشعراء والمغنين فى كتاب الأغانى — وبخاصة أصحاب الأصوات المائة والخلفاء وأولادهم أو من له شعر غنى فيه .

وطريق أبى الفرج فى كتاب المقاتل سهلة لينة . ذلك لأنه اختار الترتيب الزمنى أساسه الأولى فى ترتيب الأشخاص فى الكتاب . فبدأ بأول قتيل فى الاسلام وانتهى إلى آخر قتيل قتل فى الوقت الذى أخرج فيه هذا الكتاب للناس .

وكان يختار من أخبار المقتولين ما يصور الأحداث التى انتهت بهم إلى القتل والتى صورها هو حين قال (ونحن ذاكرون فى كتابنا هذا إن شاء الله وأيد منه بعون وإرشاد جملا من أخبار من قتل من ولد أبى طالب

منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الوقت الذى ابتدأنا فيه هذا الكتاب — وهو جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة للهجرة . ومن احتيل فى قتله منهم بسم سقيه وكان سبب وفاته . ومن خاف السلطان وهرب منه فمات فى تواريه . ومن ظفر به فحبس حتى هلك فى محبسه — على السياقة لتواريخ مقاتل من قتل منهم ووفاة من توفى بهذه الأحوال لا على قدر مراتبهم فى الفضل والتقدم . ومقتصرون فى ذكر أخبارهم على من كان محمود الطريقة سديد المذهب لا من كان بخلاف ذلك أو عدل عن سبيل أهله ومذاهب أسلافه أو كان خروجه على سبيل عيث وافساد(٢) .

أما طريق أبى الفرج فى كتاب الأغانى فصعبة ملتوية ومن هنا اخترنا الوقوف طويلا عندها لنتبين الصعاب ، ولنتبين البواعث التى بعثت أبا الفرج على أن يختار طريق الرواه .

أساس الترتيب عند أبى الفرج فى كتاب الأغانى ليس الزمن وليست الأسماء مرتبة ترتيبا أبجديا أو مرتبة حسب القبائل أو البلدان . بل ليس أساسه الأشخاص على الاطلاق .

إن ترتيب الكتاب إنما يقوم على الأصوات . الأصوات الثلاثة والأصوات المائة وأغانى الخلفاء وأولادهم ثم أغانى المشهورين من المغنين والمغنيات . وهذا هو الذى نص عليه أبو الفرج حين قال (ولعل من يتصفح ذلك ينكر تركنا تصنيفه أبو أبا على طبائق الغناء أو على طبقات المغنين فى أزمانهم ومراتبهم ، أو على ماغنى به من شعر شاعر . والمانع من ذلك والباعث على ما نحوناه علل : منها إنا لما جعلنا ابتداءه الأصوات المختارة كان شعراؤها

---

(١) ٤ ، ٥ مقاتل الطالبيين • مصر •

من المهاجرين والأنصار وأولهم أبو قطيفة وليس من الشعراء المعدودين ولا الفحول، ثم عمر بن أبى ربيعة، ثم نصيب. فلما جرى أول الكتاب هذا المجرى ولم يكن ترتيب الشعراء فيه ألحق آخره بأوله وجعل على نسب ما حضر ذكره، وكذلك سائر المائة صوت المختارة فإنها جارية على غير ترتيب الشعراء والمغنين. وليس المغزى فى الكتاب ترتيب الطبقات وإنما المغزى فيه ماضمنه من ذكر الأغانى بأخبارها وليس هذا مما يضربها. ومنها... الخ(١).

أساس التقسيم كما ترى ليس الأشخاص وإنما هو الأصوات. وهوأساس ليس من صنع أبى الفرج وإنما قام به غيره — وبخاصة فى الأجزاء الأولى من الكتاب تلك التى تخبر عن الأصوات الثلاثة المختارة، والأصوات المائة المختارة، والأصوات التى تجمع النغم العشرة المشتملة على سائر نغم الأغانى والملاهى والأرمال الثلاثة المختارة، ومدن معبد وهى سبعة أصوات، والسبعة التى جعلت بأزائها من صنعة ابن سريج، وأغانى الخلفاء وأولادهم، وما اعتبر من صدور الغناء وأوائله مما يعتقد أبو الفرج أنه لايحسن تقديم غيره أمامه.

وكان على أبى الفرج أن يجرى فى إيراد المرويات على طريقة ليست من صنعه أيضاً. فكان عليه أن يجرى على تلك الطريقة التى رسمها اسحاق الموصلى فى كتابه الذى بعث به إلى على بن هشام والذى أورد صاحب الأغانى صورته عند ترجمته لاسحاق(٢). والذى جعلناه من العلامات الدالة على تأثر أبى الفرج باسحاق عند حديثنا عن الجو المدرسى فى الباب الأول.

كان على أبى الفرج أن يورد أولا الصوت الذى غنى فيه المغنون ويذكر شيئا من أخباره ثم يتبع ذلك أخبار الشاعر الذى قال الشعر والمغنى الذى

---

(١) ٣/١ الأغانى . ساسى .
(٢) ١٥/١٥٢ أغانى . ساسى .

غنى اللحن المختار . وكان على أبى الفرج أن يعمل ذلك فى الأغانى المختارة والتى شهد لها بالامتياز صوتا ، وفى هذا الصنيع ما يشعرنا سلفا بما سيزج فيه أبو الفرج نفسه من متاعب ، وبما سيلحق كتابه من عيوب . تلك المتاعب وهذه العيوب التى نستطيع أن نعرض عليك أهمها فى هذا المقام .

١ — كان العيب الأول توزيع المرويات وتجزئة حياة الأشخاص وذلك لأن الشاعر قد يؤخذ من شعره أكثر من قطعة للغناء . والمغنى قد يغنى أكثر من صوت . وإذا كانت الأصوات هى الأساس فى التقسيم والتبويب كان معنى ذلك أن يذكر أبو الفرج مع كل صوت ما يلائمه من الأخبار . ومن هنا ترجم لبعض الشعراء فى أكثر من موطن وقص أخبار بعض المغنين والمغنيات فى أكثر من مكان(١) .

٢ — وكان العيب الثانى هو التكرار وذلك لأن أخبار الصوت الواحد قد تتصل بحياة الكثيرين من الشعراء والمغنين والخلفاء والأمراء والجوارى والغلمان ومن إليهم من كل من اتصلت به الأخبار وترجم له أبو الفرج فقد كان أبو الفرج يورد هذه الأخبار مع كل شخص ترجم له ممن كانت هذه الأخبار متصلة بحياته(٢) .

٣ — وكان العيب الثالث وهو العيب الذى يعتبر من العيوب الرئيسية فى نظر المؤرخين تهاون أبى الفرج بالنقد التاريخى وجمعه الأخبار جمع حاطب الليل ثم عجلته تلك العجلة التى دفعت به إلى أن يأذن للناسخين وللقارئين بتصحيح أخبار الكتاب ، وبالزيادة فى عدد مروياته . وذلك لأن أبا الفرج

---

(١) ٤٣/٥ المصدر السابق .

(٢) راجع تراجم جرير والأخطل والفرزدق .

يريد أن يملأ فراغات وأن يسد خانات . وهى فراغات وهى خانات تتطلب مجهودات العصبة أولى القوة لضخامة المشروع ولعظم البناء .

كان على أبى الفرج أن يملأ كل خانة وعدد الخانات كثير وإذا فلا ريث ولا مهل ولا بأس عليه من أن يكون من الرواة وألا يكون من المؤرخين . لا بأس عليه من أن يذكر الصحيح وغيره ، وأن يذكر المصنوعات والأكاذيب ، وأن يذكر كل ماعرفه الناس وتداولوه — الأمر الذى أثبتناه فى الفصل الأول من هذا الباب .

وكان على أبى الفرج أن يملأ كل خانة ولكن أبا الفرج كان لا يجد فى بعض المواقف ما يملأ به بعض الخانات ، أوكان يجد ولكن ما يجده ليس إلا المصنوعات وليس إلا الأكاذيب . وهنا نجد أبا الفرج يعلن عجزه ويأذن لغيره بملء الفراغات وسد الخانات إن وقع الكتاب فى يده[١] . ويتصحيح بعض الأخبار أن عرف لها وجها من وجوه التصحيح[٢] . كما يعلن براءته من العهدة فى رواية الأخبار(٣) .

أعتقد أنه من هنا كانت هذه الزيادات التى وجدت فى الساسى ولم توجد فى نسخة بولاق والتى كانت سببا فى قيام بعض الكتب[٤] وبعض الأبحاث ، بل التى قد توجد فى النادرة الواحدة إذا كررت روايتها[٥] .

---

(١) ٨/١٤٤ أغانى . ساسى .
(٢) ٥/١٣٥ المصدر السابق .
(٣) ١/١٦٤ المصدر السابق .
(٤) راجع تصحيح كتاب الأغانى للشنقيطى . ط الجمالية سنة ١٩١٦ م .
(٥) راجع .
(أ) ١٧/٩٤ ، ١٧/٩٦ .
(ب) ١٧/٨٧ ، ١٧/٩٧ .
(ج) ١٧/٩٦ ، ١٧/١٠٣ .

ولست أريد أن أبين صلة هذا القول بما ذكرناه فى المقدمة من عيوب التقسيم والتبويب ورسم صورة للموضوع قبل كشف الحقائق وجمع المواد فالصلة أقوى من أن يوقف عندها أو يفصل أمرها بالبيان .

* * *

(ب) والمسألة الثانية من المسائل التى نريد الحديث عنها فى هذا الفصل هى مسألة اللفظ والمعنى . أو مسألة العبارة التى كان يعبر بها أبو الفرج عن المرويات . فهل كان يؤدى المرويات بألفاظها ومعانيها أو كان يحرص على المعنى ويؤدى بعبارات من عنده ؟

والإجابة عن هـذا السؤال تتطلب منا الوقوف أولا وقبل كل شىء على الألوان المختلفة لما جاء به أبو الفرج فى كتبه من مرويات . وليس ذلك إلا لأن لأبى الفرج فى بعض هذه الالوان من الاخبار طرقا خاصة فى الاداء .

يروى أبو الفرج فى كتبه أخبار الغناء من حيث هو ألحان لهـا طرقها وأجناسها أو مذاهبها ومن حيث هو أشعار غنى فيها .

ويروى أبو الفرج نصوصاً أدبية أكثرها شعر . ويروى أخباراً منها الأدبى ومنها السياسى ومنها الدينى ومنها الاجتماعى .

وأبو الفرج فى روايته للغناء لا يؤديه كما وصله إلا إذا كان على مذهب إسحق فإن كان على مذهب غيره فإن أبا الفرج يغيره إليه . وهذا هو نص عبارته فى هـذا المقام (وكل ما ذكرنا فيه من نسب الأغانى إلى أجناسها فعلى مذهب إسحق بن إبراهيم الموصلى وإن كانت رواية النسبة عن غيره ، إذ كان مذهبه هو المأخوذ به اليوم دون من خالفه مثل إبراهيم بن المهدى ومخارق وعلويه وعمر بن بانه ومحمد بن الحرث بن شخير ومن وافقهم فإنهم

يسمون الثقيل الأول وخفيفه الثقيل الثانى وخفيفه ، ويسمون الثقيل الثانى وخفيفه الثقيل الأول وخفيفه . وقد اطرح ماقالوه الآن وترك وأخذ الناس بقول إسحق(١) .

وهو فى روايته للأصوات من حيث هى شعر يؤديها كما غنيت لا كما قالها الشاعر . وذلك لأن من المغنين من كان يغير فى ألفاظ الشعر ويستبدلها بألفاظ تناسب المقام . جاء فى الأغانى (أخبرنى إسماعيل بن يونس الشيعى قال حدثنى عمر بن شبه عن ابن البواب قال . جلس المعتصم يوما للشرب فغناه بعض المغنين قوله :

وبنو العبـــاس لا يأتون لا وعلى ألسنتهم خفت نعم . . . إلخ

فقال لا أعرف هـذا الشعر فلمن هو ؟ قيل للبيد . فقال وما للبيد وبنى العباس ؟ قال المغنى إنما قال . وبنو الريان لا يأتون لا فجعلته وبنو العباس فاستحسن فعله ووصله(٢)) .

وأبو الفرج فى روايته للنصوص الأدبية يرويها بألفاظها وبخاصة إذا كانت من الشعر ، إذ ليس من حقه أن يروى شيئاً من النصوص الأدبية بالمعنى . على هذا جرى العرف ومضى الرواة .

أما أبو الفرج فى رواية الأخبار فقد كان يحرص على الألفاظ والمعانى حين ينسخ من الكتب أو حين يقرأ على الشيوخ — وذلك هو الذى رأيناه من مقابلتنا بين ما جاء فى كتبه مما رواه عن ابن جرير الطبرى أو على بن سليمان الأخفش واليزيدى عن ابن حبيب وما جاء فى تاريخ الطبرى وفى

---

(١) ١/٣ أغانى ٠ ساسى ٠

(٢) ١٤/٩٥ أغانى ٠ ساسى ٠

النقائض الأمر الذى أشرنا إليه عند حديثنا عن الضبط فى الفصل الثالث من هذا الباب . وقد كان يحرص على الألفاظ أيضاً فى الأخبار المفردة فيما نعتقد . والذى يدفعنا إلى ذلك أنه كان حين يروى بألفاظ من عنده كان ينص على ذلك فى صراحة . الأمر الذى لم نره إلا قليلا[١] .

ولعل مما يؤكد هذه المسألة أن أبا الفرج كان حين يروى الخبر الواحد عن الشيوخ الكثيرين ويريد أن يؤديه كان يختار لفظ أحدهم وينص على ذلك فى صراحة تامة فمن ذلك قوله « وخبر السكرى أتم واللفظ له[٢] » وقوله « إلا أن رواية ابن النطاح أتم واللفظ له[٣] » .

وقد كان أبو الفرج يفعل ذلك فى بعض الأحيان حين يختلف الرواة . فقد كان يجمع بينهم فيما اتفقت رواتهم فيه ، ويفرد كل واحد منهم بخبره فيما اختلفوا فيه . جاء فى الأغانى (أخبرنى بخبره جماعة من مشايخنا منهم أحمد بن عبد العزيز الجوهرى عن عمر بن شبه ومحمد بن خلف بن المرزبان عن جماعة من أصحابه وأحمد بن عبد العزيز الجوهرى عن على بن محمد النوفلى عن أبيه فما اتفقت رواياتهم من خبره جمعتها فى ذكره وما اختلفت أفردت كل فرد منهم بروايته[٤]) .

ولكن ليس معنى ما نريد قوله أنه كان يحرص دائما على هذه المسألة فيروى الأخبار بألفاظها ، فإنا نراه فى بعض الأحيان يذكر الأخبار مختصرة وبألفاظ من عنده وإن نص على كمال المعنى . ومن ذلك قوله بعد روايته

---

(١) ١١/١٠١ المصدر السابق ، ٤٠٨ مقاتل مصر .
(٢) ١٢/١٠٥ أغانى . بولاق .
(٣) ١٥/٣ المصدر السابق .
(٤) ١٧/٥٢ أغانى . ساسى .

لبعض الأسانيد «فجمعت من رواياتهم ما احتيج إلى ذكره مختصر اللفظ كامل المعنى(١)» .

وعلى العموم فحرص أبى الفرج على ألفاظ المرويات أكثر من حرصه على روايتها بالمعنى . وهو حرص قد يفيد أولئك الذين يهتمون بالدراسات اللغوية والأدبية إن أرادوا درس الألفاظ واستعمالاتها فى بعض العصور وفى بعض البيئات . أو أرادوا درس القصة الأدبية وتطورها .

وقد يحسن بنا فى هذا المقام أن نذكر أن من العلماء الأقدمين من لم يعتمد الرواية بالمعنى فى الميدان العلمى ، وذلك كالنحاة الذين لم يستنبطوا النحو من أحاديث الرسول عليه السلام لأنها قد رويت بالمعنى(٢) . وأن نذكر أيضا أن المؤرخين المحدثين يعتمدون على الألفاظ ودلالاتها فى نقد الأخبار وبخاصة إذا روى المؤرخ وثيقة أو خبراً وكانت ألفاظه غير ألفاظ العصر الذى أدعى أن الوثيقة قد كتبت فيه(٣) .

ومن هذين نستطيع أن نفهم إلى أى حد يقدم الرواة الذين يحرصون على الرواية باللفظ خدمات علمية للباحثين فى العـلوم اللغوية والأدبية وللمؤرخين .

* * *

(ج) أما المسألة الثالثة ولعلها أن تكون الأخيرة فى هذا الفصل فهى مسألة التصحيحات . والمقصود بها هنا التصحيحات الفكرية لا تصحيحات

---

(١) ٤/١٣٩ أغانى • ساسى •

(٢) ص ٥ وما بعدها ج ١ خزانة الأدب •

(٣) ٨٣ وما بعدها منهج البحث التاريخى •

النقل والسماع . وأبو الفرج يقف فى مواطن قليلة لأمثال هذه التصحيحات ويجىء بها بعد إيراده للأخبار بحالتها التى أخذها بها عن الشيوخ .

وتصحيحات أبى الفرج قليـــلة ولكنها على قلتهـا تشعرنا بقدرة أبى الفرج على النقد التاريخى ، واستعداده حين يمهل ويتريث لأن يكون من المؤرخين .

والأسس التى يستند إليها أبو الفرج فى نقده للمرويات ، وفى تصحيحه لها ، كثيرة نستطيع أن نذكر منها على سبيل المثال ما يلى .

١ — معرفته بالتاريخ . وذلك من مثل قوله تعقيبا على بعض الأخبـار (قال مؤلف هـذا الكتاب هـكذا أخبرنا ابن المرزبان بهذا الخبر وأظنه غلطا لأن دحمان لم يدرك خلافة الرشيد وإنما أدركها أبناء زبير وعبد الله فإما أن يكون الخبر لأحدهما أو يكون لدحمان مع غير الفضل بن يحيى[1]) ومن مثل موقفه من ابن الكلبى ذلك الموقف الذى يعان فيـه خطأ هـذا المؤرخ فى حديثه عن مليكه[2] .

٢ — البحث ومحاولة الاستقصاء . وذلك من مثل قوله تعقيباً على إحدى الروايات « وذكر يحيى بن على بن يحيى عن إسحاق أن الشعر للأعشى وذلك غلط ، وقد التمسناه فى شعر كل أعشى ذكر فى شعراء العرب فلم نجده ، ولا رواه أحد من الرواة لأحد منهم ، ووجدناه فى شعر ابن المولى من قصيدة له طويلة جيـــدة وقد أثبتناه بعقب أخباره ليوقف على صحة ما ذكرناه[3] . » ومن مثل قوله « وقد كنا وجدنا هذا الشعر فى رواية على بن

---

(١) ٥/١٤٦ أغانى . بولاق .

(٢) ١١/٥٣ أغانى . ساسى .

(٣) ٣/٨٨ أغانى . بولاق .

يحيى عن إسحاق منسوبا إلى المرقش وطلبناه فى أشعار المرقشين جميعا فلم نجده ، وكنا نظنه من شاذ الروايات حتى وقع إلينا فى شعر داود بن سلم وفى خبر أنا ذاكره فى أخبار داود(١) » .

٣ ـ عدم مشاكلة الخبر للعصر والبيئة . وذلك من مثل قوله فى حق جحظة عند ترجمته للنصيبى « وذكره جحظة فى كتاب الطنبوريين فأتى من ذكره بشىء ليس من جنس أخباره ولا زمانه(٢) . » وقوله فى حق ابن الكلبى عند روايته لأخبار دريد « هذه الأخبار التى ذكرتها عن ابن الكلبى موضوعة كلها والتوليد بين فيها وفى أشعاره وما رأيت شيئا منها فى ديوان دريد بن الصمة على سائر الروايات . وأعجب من ذلك هذا الخبر الأخير فإنه ذكر فيه ما لحق دريدا من الهجنة والفضيحة فى أصحابه وقتل من قتل معه وانصرافه منفرداً . وشعر دريد هذا يفخر فيه بأنه ظفر ببنى الحرث وقتل أماثلهم(٣) » .

٤ ـ المذهب الفنى . وذلك من مثل قوله تعقيبا على رواية لأبى الزعراء « ما أظن أبا الزعراء صدق فيما حكاه لأن العلماء من رواة الشعر رووهما ليزيد بن الحكم . وليس كذلك لكونه معلوما أنه ليس لطرفه ولا موجودا فى شعره على سائر الروايات ولا هو أيضا مشبها لمذهب طرفة . . .(٤) » ومن مثل قوله عند ترجمته للسيد الحميرى « وما وجدنا ذلك فى رواية محصل ولا شعره أيضا من هذا الجنس ولا فى هذا المذهب ، لأن هذا شعر ضعيف

---

(١) ١٣٥/٥ المصدر السابق .
(٢) ١٦١ ، ١٦٢/٥ المصدر السابق .
(٣) ١٩/٩ المصدر السابق .
(٤) ١٠٠/١١ أغانى . ساسى .

يتبين التوليد فيه وشعره فى قصائده الكيسانية مباين لهذا جزالة ومتانة(١)
ومن مثل قوله « ونسخت من كتاب أحمد بن سعيد الدمشقى خبر الأحوص
مع سلامة التى ذكرها فى هذا الشعر وهو موضوع لا أشك فيه لأن شعره
المنسوب إلى الأحوص شعر ساقط سخيف لا يشبه نمط الأحوص . والتوليد
بين فيه يشهد على أنه محدث . والقصة أيضا باطلة لا أصل لها . ولكنى ذكرته
فى موضعه على ما فيه من سوء العهدة . . .(٢) » .

٥ — الثقة بالرواة أو عدم الثقة بهم . وذلك من مثل موقفه من
مرويات نصر بن مزاحم ومرويات على بن محمد بن سليمان النوفلى عند حديثه
عن السبب فى خروج أبى السرايا فإنا نراه يقول عن مرويات على (فربما
ذكرت الشى اليسير منها والمعنى الذى يحتاج إليه ، لأن على بن محمد كان
يقول بالأمامة فيحمله التعصب لمذهبه على الحيف فيما يرويه ونسبة من
روى خبره من أهل هذا المذهب إلى قبيح الأفعال . وأكثر حكاياته فى ذلك
بل سائرها عن أبيه موقوفا عليه لا يتجاوزه ، وأبوه حينئذ مقيم بالبصرة
لا يعلم بشىء من أخبار القوم إلا ما يسمعه من ألسنة العامة على سبيل
الأراجيف والأباطيل ، فيسطره فى كتابه عن غير علم طلبا منه لما شان القوم
وقدح فيهم : فاعتمدت على رواية من كان بعيدا عن فعله فى هذا وهى رواية
نصر بن مزاحم إذ كان ثبتا فى الحديث والنقل ، ويظهر أنه ممن سمع خبر أبى
السرايا عنه . قالوا(٣) الخ) .

ومن مثل موقفه مع محمد بن على بن حمزه عند حديثه عن مقتل عبيد الله

---

(١) ٥/٧ المصدر السابق .
(٢) ٨٩/٨ المصدر السابق .
(٣) ٥١٨ مقاتل الطالبيين . مصر .

ابن الحسين حيث نراه يقول (ذكر محمد بن على بن حمزه أن أبا مسلم دس إليه سما فمات منه ولم يذكر ذلك عن يحيي بن حسن العلوى ووصف أن عبد الله مات فى حياة أبيه . وقد كان يحيي حسن العناية بأخبار أهله . ولعل هذا وهم من محمد بن على بن حمزة(١) » .

٦ — وقد يعتمد أبو الفرج فى ترجيحاته للروايات على أمور أخرى كالفلك ، وذلك من مثل موقفه من الروايات الواردة فى إسم اليوم الذى قتل فيه الحسين بن على رضى الله عنه وإنا نراه يقول . (فأما ما تقوله العامة أنه قتل يوم الاثنين فباطل ، وهو شيء قالوه بلا رواية ، وكان أول المحرم الذى قتل فيه يوم الأربعاء وأخرجنا ذلك بالحساب الهندى من سائر الزيجات . وإذا كان ذلك كذلك فليس يجوز أن يكون اليوم العاشر يوم الإثنين(٢)) .

هـذه هى الأسس التى يقيم عليها أبو الفرج التصحيحات والترجيحات وهى تشعرنا بأن أبا الفرج كان يملك عدة المؤرخ وأنه لو حاول أن يكونه فقط لكانه — ولكنه أراد أن يكون الراوية الذى لا يفوته من المرويات ما يعرفه الناس ومايتداولونه . ومن هنا كان همه الأول الجمع ، ولم يقف للنقد إلا فى المواطن القليلة .

وإذا كان هناك من كلمه نقولها فى هـذا الموطن فهى أن أبا الفرج فى كتاب الأغانى راوية وأنه فى كتاب المقاتل ينزع إلى أن يكون من المؤرخين. ولعل السر فى ذلك أنه فى الكتاب الأول يسرد من الأخبار ما يمتع ويؤنس لأنه كتاب يجمع من الأخبار ماكان فى الغالب من الأسمار والنوادر ،

---

(١) ١٨٠ المصدر السابق .

(٢) ٧٨ مقاتل الطالبيين . مصر .

وقد كان القصد منه أيضاً إلى السمر وإلى الامتاع والمؤانسة . ومن هنا جمع أبو الفرج كل مايؤنس ويمتع وجعل ذلك شرط الاختيار فى مقدمة الكتاب . أما فى المقاتل فقد كان يروى أخباراً سياسية . وقد كانت هذه الأخبار هى المواد الأولى لكل من يريد أن يكون من المؤرخين . وقد كانت قديما اللبنات الأولى التى يبنى منها التاريخ .

ولعل مما ساعد على هذا قصر المدة الزمنيه فى كتاب المقاتل ووضوح الأحداث وضوحا حال بينها وبين أن تكون محل عبث كبير من الرواة والمؤرخين . ثم هى إلى جانب ذلك من الأخبار الدينية المذهبية التى تهتم بها الجماعات الدينية وتحرص عليها وتعتبرها عنصرا فعالا فى مقوماتها وفى مقاومتها لمن يخالفها فى المذهب من رجال السياسة ورجال الدين .

الخاتمـــة

هذا هو بحث أبى الفرج الراوية قصدت منه إلى أمرين .

الأول الكشف عن هذه الشخصية التى يعتبرها بعض الباحثين من أعظم الشخصيات فى القرن الرابع الهجرى ، والتى وقف أمامها الباحثون حيارى لغموضها ولقلة ما يدور حولها من أخبار — حتى لقد أعلن المجمع اللغوى عن جائزة مقدارها مائتان من الجنيهات لمن يقدم بحثا عن هـذه الشخصية . ولعله أن يكون من العجب أن لم يقدم أحد بحثا أو لم ينل الجائزة إنسان .

هذه الشخصية الاخبارية تكاد تكون أعظم شخصية أخبارية فى القرن الرابع الهجرى . وحسبك أن يقول عنها ابن خلدون فى مقدمته (وقد ألف أبو الفرج الأصبهانى وهو ما هو كتابه فى الأغانى جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء فى مائة الصوت التى اختارها المغنون للرشـيد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ، ولعمرى إنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التى سلفت لهم من كل فن فيما نعلمه . وهو الغاية التى يسمو إليهـا الأديب ويقف عندها وأنى له بها(١)) .

هذه الشخصية ظلت مجهولة أو كالمجهولة حتى الآن . ومن هنا كان لا بد من الكشف عنها والوقوف على شيء من أحوالها وظروفها وما وصلت إليه من علم ومعرفة ، وما كانت عليه من خلق ومزاج ، وما جرت عليه من

---

(١) ٥٠٦ مقدمة ابن خلدون ٠ ط ٠ بيروت ٠

تقاليد وعادات فكرية فى تأليف الكتب وفى تصنيف المرويات — ولقد فعلت الكثير من هذا حتى ليخيل إلى أنى قد أضفت جديداً إلى العلم وحتى لأعتقد أنى قد أتيت بما يفيد .

الأمر الثانى : أمر منهجى فلقد حرصت فى هذا البحث على أن أسلك سبيل المؤرخين الذين يحرصون الحرص كله على تطبيق المناهج التاريخية تطبيقا يحول بين الإنسان وبين الزلل ويعصمه من الخطأ وينتهى به إلى نتائج محققة بالقدر الذى تسمح به ما بين يديه من أخبار . ومن هنا كانت أولى الخطوات الأعراض عن ذلك التخطيط الذى يفرضه التقليد أو يفرضه المنطق النظرى على الباحثين وهو تخطيط يضر أكثر مما يفيد — كما ذكرنا عند حديثنا عن التأليف والتصنيف .

ثم كانت الخطوة الثانيه جمع المواد ونقدها لفصل الزائف عن الصحيح والانتهاء من ذلك إلى الصورة التى رسمها لهذه الشخصية التاريخ .

وإذا كان لابد من الحديث عن بعض الملامح والقسمات التى كشفنا عنها أو أزلنا ماكان يعلوها من غموض وإبهام ، والتى نستطيع أن نعتبرها من حسنات ذلك المنهج التاريخى فهى التالية :

١ — التحقيق التاريخى . وبخاصة ذلك الذى يكشف عن سنة الوفاة ، وذلك الذى يدور حول أصبهان أو المولد ، والذى يدور حول علاقة أبى الفرج بسيف الدولة ومسألة إهداء الكتاب .

٢ — الكشف عن أسرة الأم وعن حياه أسرة الأب وبيان ما خلفنه كل منهما فى أبى الفرج من ميول ومن آراء ومعتقدات .

٣ — الكشف عن الأساتذة الذين طبعوا أبا الفرج بطابعهم ووجهوا

حياته وجهات معينة . وتوضيح ما لكل منهم من أثر حتى ذلك الذى يكون فى الخلق والمزاج .

٤ — الحديث عن الحياتين العقلية والفنية وهو حديث يكشف لنا عن أبى الفرج المثقف وأبى الفرج الفنان .

٥ — بيان واف لموقف أبى الفرج من تقاليد الرواة وبخاصة فيما يتعلق بالعدالة وبالضبط وبالسند . وتوضيح للعوامل المختلفة التى جعلت أبا الفرج يجنح فى روايته للأخبار إلى سبيل الرواة .

والآن أضع هذا البحث بين يدى القارىء ، وأضع صورة أبى الفرج كما استطعت الوقوف عليها . وهى شخصية الرجل الذى أراد أن يكون راوية فكان . ومن هنا يحسن بنا أن نعتقد دائما أن مرويات أبى الفرج مصدر من مصادر التاريخ وليست هى التاريخ .

ولقد وقفنا على ما لأبى الفرج من ميول وأهواء فيجب أن نحذر هذه الميول وهذه الأهواء كلما حاولنا الاعتماد على ما خلف الرجل من مرويات فقد يكون الرجل مضللا . وقد يكون صاحب غرض وهوى . وليس يخفى أن للأهواء حكمها فى التاريخ وهو حكم قد يملى رغبته لا فى ذكر الأخبار فحسب وإنما أيضا فى الكتمان .

المـراجع

١ ، ٢ أما المرجعان الأول والثانى فهما من كتب أبى الفرج وأولهما الأغانى وثانيهما مقاتل الطالبيين وقد قرأت كل واحد منهما أكثر من مرة وقرأته فى أكثر من طبعة . قرأت الأول فى طبعته الأولى بمطبعة بولاق وفى طبعته الثانية على نفقة الساسى ورجعت فى بعض الأحيان إلى الطبعة الأخيرة طبعة دار الكتب لأحقق بعض النصوص وأقابلها عليها ، كما كنت أرجع أيضا فى بعض الأحيان إلى بعض النسخ المصورة وبخاصة فيما يتعلق بمسألة محمد بن الحسين الكندى وكونه مؤدب أبى الفرج الأصفهانى .

وقرأت الثانى فى طبعته الثانية ببغداد وفى طبعته الثالثة بالقاهرة . وإذا كنت قد أثبت نصوص البحث فى الغالب عن أغانى الساسى وعن مقاتل الطالبيين طبعة مصر فليس ذلك إلا لأن هذه هى الطبعات التى أملكها والتى كنت أراجع الفيشات أو الجزازات عليها حين إثبات النص فى البحث .

وقد يكون من المفيد أن أثبت هنا أنى أعتقد أن كتاب الأغانى الموجود بين أيدينا الآن ليس بحالته التى تركه عليها أبو الفرج ، وأنه قد أصابه بعض الخلل والاضطراب . وإذا كان الحديث عن الكتاب وتاريخه ليس من موضوع البحث إلا أنى أضع بين يدى القارىء بعض الملحوظات .

أولا — ذلك الاختلاف الذى نجده بين النسخ الموجودة وهو اختلاف لا يرجع فقط إلى زيادة بعض الأخبار أو نقصانها فى ترجمة بعض الأشخاص وإنما يرجع أيضا إلى ترجمات بتمامها لبعض الأشخاص فمن النسخ من يقف عند الجزء العشرين ومنها من تضم إليه جزءاً آخر ومنها من يحمل بعض

أجزائها رقم الجزء الرابع والعشرين . ونظرة واحدة إلى نسخه مكتبة فيض الله وهى مصورة فى مكتبة معهد المخطوطات بالجامعة العربية ترينا مدى هذا التفاوت وإلى أى حد يكون هذا الاختلاف .

ويظهر أن هذا الاختلاف قديم . فقد تحدث ياقوت عند ترجمته لأبى الفرج وعند حديثه عن الكتاب وكتابته نسخة منه ، واعتماده عليه فى تأليفه كتابه الموسوم بأخبار الشعراء ، عن هذا الخلل الذى أصاب الكتاب وانتهى منه بقوله : وما أظن إلا أن الكتاب قد سقط منه شىء أو يكون النسيان قد غلب عليه والله أعلم .

بل يظهر لنا أن هذا الاختلاف أقدم من ذلك — الأمر الذى يوحى به هذا النص المروى على أنه من أحاديث المهلبى عن كتاب الأغانى وهو : سألت أبا الفرج فى كم جمعت هذا الكتاب فقال فى خمسين سنة ثم تعقيبة الناقل لهذا الخبر والمثبت له فى مقدمة ما انتخبه من الكتاب إلى سيف الدولة . قال : وإنه كتبه مرة واحدة فى عمره وهى النسخة التى أهداها إلى سيف الدولة . فإن هذا القول يصل بنا مع أشياء أخرى إلى أن الخلل الذى أصاب الكتاب إنما يرجع إلى عهد سيف الدولة بن صدقة وإليك البيان :

لقد رأيت فى الفصل الأخير من الباب الأول حديثى عن ابن الخازن وسيف الدولة صدقة وكيف فسر المؤرخون الحسين بن على بن الحسين بالوزير المغربى وسيف الدولة هذا بسيف الدولة الحمدانى . ورأيت أنا حاولنا أن ننفى ما شاع من أن أبا الفرج قد أهدى كتابه إلى سيف الدولة الحمدانى وأن النسخة التى دفعت إلى هذا الرأى الأخير لنست إلا نسخة سيف الدوله صدقة التى كتبها له ابن الخازن .

ولقد رأيت أيضا أن ناسخ هذه النسخة قد كتب فى مقدمتها ذلك الكلام الذى يشعرنا بأن الكاتب أو الناسخ كان يعتقد أن أبا الفرج لم يترك من كتاب الأغانى إلا نسخة واحدة .

أعتقد أنه من السهل أن نمضى سويا فى تفسير المسألة على هذا الأساس .

كتب ابن الخازن النسخة لسيف الدولة صدقة وقد كانت النسخة الوحيدة فى البيئة العراقية فى ذلك الوقت .

حدث أن نهبت خزانة سيف الدولة وأحرقت كما سبق أن أشرنا فى الفصل الأخير من الباب الأول نقلا عن ابن الأثير ، وكان مما وجد من كتبها بعد النهب والحريق نسخة ناقصة مشوهة من كتاب الأغانى . ومن هنا أصاب الخلل الاضطراب هذا الكتاب .

على أنك قد تسأل وإذا فكيف جاء الكتاب بهذا الحجم الذى يقرب مما وصفه به المؤرخ المعاصر لأبى الفرج وهو ابن النديم ؟

هنا استطيع أن أقول أنى أرى أن الناسخين قد ضموا كثيرا من مرويات أبى الفرج فى كتبه الأخرى إلى مرياته التى بقيت من كتاب الأغانى ، وأن هذه المرويات جميعها هى التى كانت منها هذا الأغانى الذى بين أيدينا الآن .

وقد تسألنى وما الدليل ؟ فأقول إن هناك بعض القرائن وهى أن فى كتاب الأغانى بعض الفصول التى لا نمنع من أن تكون من مرويات أبى الفرج وإنما نمنع أن تكون من كتاب الأغانى ، لأنها خارجة عن موضوع الكتاب وأستطيع أن أضرب لذلك مثلا بهذه الفصول .

١ — حديثه عن يوم رحرحان ذلك الحديث الذى يعنون له بقوله فى ١٠/٣٠ ساسى .

ونذكر ههنا خبر رحرحان ويوم قتله إذ كان مقتل الحرث وخبره خبرهما . فإنه عنوان يشعر بأن هذا الحديث ليس من موضوعات الكتاب وأنه قد قسر فيه قسرا ولعل ختام الحديث بقوله ٣٣/١٠ تم والحمد لله رب العالمين . مما يشعر بأن هـذا الحديث منقول عن كتاب أبى الفرج (أيام العرب) فليس من عادة أبى الفرج فى كتاب الأغانى أن يختم أخباره بمثل هذه الجملة .

وكذلك حديثه عن شعب جبله من ٣٣/١٠ فانه ليس من موضوعات هـذا الكتاب التى تطلب لذاتها . وقد ختم الحديث أيضاً بالجملة السابقة تم اليوم والحمد لله .

هـذه فصول أردت بها ضرب المثل ولم أرد بها إلى البحث والاستقصا فإن لذلك بحثا آخر عن كتاب الأغانى وتاريخه ليس هنا محله .

والآن نستطيع أن نترك هذين المصدرين من مصادر البحت إلى غيرهما من المصادر . وإن كنا نحب أن نلفت الذهن إلى أنا عثرنا على نصوص منقولة عن كتاب لأبى الفرج فى معجم الأدباء وذلك هو كتاب أدب الغرباء . كما عثرنا على نصوص له شعرية فى عيون التواريخ لابن شاكر ، وفى الفخرى فى الآداب السلطانية ، وفى يتيمة الدهر للثعالبى ، إلى جانب شعره فى معجم الأدباء .

الكتب الأدبية

أو كتب التاريخ الأدبى والأدب

١	— الثعالبي	يتيمة الدهر
٢	— المرزبانى	معجم الشعراء
٣	— ابن عبد ربه	العقد الفريد
٤	— ابن سلام	طبقات الشعراء
٥	— أبو عبيدة	النقائض
٦	— ياقوت	معجم الأدباء
٧	— الآمدى	المؤتلف والمختلف
٨	— البغدادى	خزانة الأدب
٩	— أبوالقاسم الأصفهانى	إيضاح المشكل من شعر المتنبي
١٠	— الشنقيطى	تصحيح كتاب الأغانى
١١	— ابن قتيبة	عيون الأخبار
١٢	— التنوخى	نشوار المحاضرة
١٣	— البحترى	ديوان البحترى
١٤	— ابن زاكور	تزيين قلائد العقيان بفرائد البيان — شرح قلائد العقيان
١٥	— التنوخى	المستجاد من فعلات الأجواد

٢ — كتب شروط الرواة والمؤرخين

١ — ابن خلدون	المقدمة

٢ — السخاوى	الاعلان بالتوبيخ

٣ — الخطيب	الكفاية فى علم الرواية

٤ — ابن الصلاح	مقدمة ابن الصلاح

٥ — السيوطى	المزهر

٦ — حسن عثمان	منهج البحث التاريخى

٧ — أسد رستم	مصطلح التاريخ

٨ — النووى	التقريب

٣ — الكتب التاريخية

١ — الطبرى	تاريخ الرسل والملوك

٢ — عريب	صلة تاريخ الطبرى

٣ — ابن مسكويه	تجارب الأمم

٤ — اليعقوبى	تاريخ اليعقوبى

٥ — المسعودى	مروج الذهب

٦ — ابن الفرات	تاريخ الدول والملوك مصورة رقم ٣١٩٧ دار الكتب

٧ — أبو الفداء	تاريخ أبى الفداء

٨ — المقريزى — الخطط
٩ — ابن خلدون — مقدمة ابن خلدون وكتابه فى التاريخ
١٠ — المقرى — نفح الطيب
١١ — ابن طباطبا — الفخرى فى الآداب السلطانية
١٢ — بروكلمان — تاريخ الشعوب الإسلامية ترجمة دار العلم للملايين
١٣ — ابن الأثير — الكامل
١٤ — ميخائيل عواد — أقسام ضائعة من تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء
١٥ — نولدكه — أمراء غسان . الترجمة العربية (بيروت الجامعة الأمريكية)

٤ — كتب تاريخ الرجال

١ — ابن النديم — الفهرست
٢ — أبو نعيم — أخبار أصفهان
٣ — الخطيب — تاريخ بغداد
٤ — ابن خلكان — وفيات الأعيان
٥ — الذهبي — تاريخ الإسلام الكبير مصورة رقم ٤٢ تاريخ دار الكتب
٦ — ابن شاكر — عيون التواريخ . مخطوطة رقم ١٤٩٧ دار الكتب

٧ — ابن العماد — شذرات الذهب
٨ — الذهبي — ميزان الاعتدال
٩ — ابن حجر — لسان الميزان
١٠ — الصفدى — الوافى بالوفيات . مصورة رقم ١٢١٩ تاريخ دار الكتب
١١ — أعيان الشيعة — أعيان الشيعة
١٢ — خير الدين الزركلى — الأعلام
١٣ — الطوسى — الفهرست
١٤ — النجاشى — الرجال
١٥ — ابن الجوزى — المنتظم مصورة رقم ١٢٩٦ تاريخ دار الكتب
١٦ — الزبيدى — طبقات النحويين . نسخة خاصة نقلا عن نسخة نور عثمانية باستانبول ٣٣٩١ مكررة
١٧ — محمد باقر — روضات الجنات

٥ — كتب عامة

١ — طاشكبرى زاده — مفتاح السعادة
٢ — ابن حزم — الجمهرة
٣ — آدم متز — الترجمة العربية . الحضارة الإسلامية
٤ — البكرى — معجم ما استعجم
٥ — أغا بزرك الطهرانى — الذريعة إلى تصانيف الشيعة
٦ — ياقوت — معجم البلدان

فهرس الكتاب

الباب الأول

العوامل المؤثرة فى حياة أبى الفرج

الباب الثانى

حياة أبى الفرج

الباب الثالث

الرواية عند أبى الفرج



مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد ـ القاهرة